بسم الله الرحمن الرحيم

أشياء.. لا تشترى

رواية

فتحية محمد القلاّ

لا تصالح..
ترى لو فقأووا عينيك
ووضعوا مكانها جوهرة
هل ترى؟
هي أشياء..لا تشترى
أمل دنقل

أجلسني الرجل المكلف بمساعدتي على مقعد خشبي طويل تحت شجرة كبيرة في ركن ناء من الحديقة، ربت على كتفي قائلاً:

: ها هو ذا مكانك. ستراك فتاتك حينما تصعد الرابية.

بدا مبتهجاً وهو يقول:

: آه.. ما أجمل الحب. أرى في عينيك البريق ذاته الذي أراه في عينيها كلما جالستك. بالمناسبة لم تنقطع عن زيارتك حتى وأنت..

لم يكمل جملته، ربما خشي القول حتى وأنت غارق في هذيانك. وددت الرد لكن لساني لم يطاوعني، هل سأكذب عليه وأؤمن على ما قاله عن حالة الهذيان التي ظن الجميع أنني تائه بها، أم أصدقه القول بأنني كنت أرى وأسمع ولكن عذابي كان أشد من تجاهله، وأقسى من تحمله؟

اليوم الأحد..لا أعرف كم يوم أحد مثل هذا اليوم فات وأنا هنا. يوم مختلف بالنسبة لي تماماً، أرصد كل ما حولي بانتباه، أرى وأحس وأفكر وأحلل، ما أجمل هذا.

قبل حضوري إلى الحديقة كنت في قاعة الطعام أتناول الفطور مع جميع النزلاء، غمرني شعور طارئ بالفرح فاستسلمت له. تابعت بفضول وجوه من حولي، تنطلق من عيونهم لهفة غريبة وهي تتنقل بانتظام بين طعامهم والنوافذ المطلة على الحديقة. أحسست بفرحتهم وهم يتدافعون للخروج، وهم يتعانقون مع أحبائهم وذويهم. لأول مرة في حياتي، لم يخطر على بالي، ذاك الإنسان الذي أحببته أكثر من نفسي، لم أحزن بقدر ما أسعدني غيابه أخيراً عن تفكيري.

لم يقترب مني أحد، أتأمل الحديقة الجميلة الواسعة بفضول، أشجار السرو العالية والضخمة محيطة بالسور العالي، تعزلها عن الشارع تماماً، كواحة متفردة في تصحر البشر الذي أصبح سمة العصر. لعل هذه التلال المخضرة صناعية تتناغم مع الوديان الصغيرة الرابضة بينها، مع الأرض المستوية المغطاة بالحشائش المنداة. مقاعد خشبية موزعة بانتظام بين الارتفاعات والانخفاضات، مقاعد إسمنتية بالقرب من نافورات المياه.

منذ متى وأنا أجلس على هذا المقعد كما قال لي مرافقي؟ لم لم أكن ألحظ ما ألحظه الآن؟ تمليت الوجوه البعيدة، كانوا يتضاحكون وهم يأكلون الحلوى، وهم يتكلمون. الوجوه القريبة مني مكدرة خائفة، لا يتزحزحون ولا يسمحون لأحد بالاقتراب. كأن هذا المكان النائي لمن لم يشف تماماً، أو من ليس له من يسأل عنه.

لكن ماذا عني، ها هي قصيدة هيفاء نظمت فجأة فوق التل، إنها فتاتي تتلفت باحثة عني، ما أحسن حظي. لوحت بيدها حالما رأتني ونزلت بتؤدة. توقفت قليلاً ثم انحدرت متجهة نحو أحد الأطباء الذي كان مشغولاً بالحديث مع مرضاه. استدار باشاً حين رآها، تصافحا، واستأنفت السير برفقته نحوي. وقفت لاستقبالها ثم جلست. قال الطبيب:

: زائرتك تلح على معرفة كافة التفاصيل للاطمئنان عليك. كل مرة أؤكد لها بأنك بخير، لكنها على ما يبدو لن تصدق ما لم تكلمها. يا أخي كلمها، أنا أعرف وأنت تعرف بأنه يمكنك ذلك. كيف حالك؟

: بخير..

: أنا طبيبك، هل تعرف...

لكزته وأوسعت طريقها نحوي، انسحب بهدوء. نظرت إليّ متفحصة. ابتسمت لها ابتسامة واسعة مشجعة ملأت وجهي، تمنيت أن تلحظ التغيير الذي طرأ علي هذا الصباح وأحس به من حولي. ببراءة طفل طل فرح كبير من عينيها، ارتبكت حركاتها، كانت جالسة بقربي فوقفت من جديد، قفزت فوق المقعد، طوت ساقيها تحتها وجلست فوقهما. صارت كلها في مواجهتي، ضمتني لصدرها ثم عادت تنظر إلي من جديد. ابتسمت لها ابتسامة واسعة مطمئناً أو محباً أو شاكراً لا أعرف. احتضنت وجهي بكفيّها وتأملت طويلاً عيني، مست شفتيّ بقبلة خاطفة وهمست:

: أخيراً رأيت ابتسامتك الجميلة، يا الله..كم غابت.

اقترب الممرض منها حاملاً صينية فوقها كوب حليب وبعض حبات دواء، تناولت الكوب والدواء من يده، قربته من شفتي ورجاء يطل من عينيها. استعدت إنسانيتي وقدرتي على الصمود، شربت الحليب ورفضت الدواء.

قالت هامسة:

: تناول الدواء أرجوك. لم يعد هناك مشكلة، تدبرت مع هذا الرجل الشهم مسألة الأوراق والأقلام التي تريدها، خبأها في مكان أمين في غرفتك. بالمناسبة ستجد الكتاب الذي ابتدأنا كتابته في بيروت مع الأوراق. انس من كنا نكتبه من أجله وتذكر فقط أنه يدون أحداث عمرنا وقضيتنا.

قال الممرض ممازحاً:

: انبسط يا عم أخيراً وصلت الأوراق والأقلام كما طلبت. صدق من قال" يا بخت من كان الوزير خاله"

لا شعورياً وضعت يدي على قلبي، أحسست به يقفز هلعاً. غالبت شعوري بالمهانة، إنه يقصد ذاك الذي صار صاحب حظوة وسلطة، وتحيطه علامات الاستفهام والتعجب.

نحيت الفكرة من رأسي، يجب ألا أغضبها فهي تكره شكوكي. استعدت ابتسامتي، وجّهت تفكيري إلى وجودها بجانبي، ورغبتها في إنجاز الكتاب.

الرجل الجالس بالقرب من مكاني نظر نحوي بتمعن ثم انحنى وأخذ يكتب في دفتره بانهماك، قفزت نحوه وصحت غاضباً:

: أرني ماذا تدون في أوراقك.

: لا شيء، أسلي نفسي بالرسم.

انتزعت الأوراق من بين يديه المتشبثة بهم، ألقيت نظرة فاحصة فلم أجد رسوماً ولا ما يحزنون، كانت خربشة إنسان عقله في واد وهو في واد آخر. ناولت الأوراق لعائدة التي كانت متبرمة مما أفعل، قلت:

: أنه كاذب، مجرد عميل مكلف بمراقبتي. لا شيء في الأوراق كما ترين، خطوط بلا معنى. إنها رموز متفق عليها.

صاحت غاضبة:

: أعوذ بالله. أرجوك تخلص من هذه المشاعر.

صمتت بحزن، ضغطت على كتفها متأسفاً على خرقي ما عاهدتها عليه مراراً. ابتسمت لها ببسالة فردت ابتسامتي. تشجعت وحاولت إسعادها فقلت:

: ولا يهمك. أنا واحد من شعب لا يموت ولا يخون. بكل إيمان أؤكد لك انتصار الحق. صدقي نبوءة رجل يتحدى الموت.

عادت لها بشاشتها واحتوتني من جديد وهي تقول بمرح:

: أشهد بإنني في حضرة فيلسوف.

لامست شعرها فلم تنفر مني كعادتها، أعدت خصلة شعرها المتمردة أبداً فوق جبينها. قلت بحب:

: مرحباً بالمحنة تبلوني إذا..

ابتسمت ولم تجب، زحفت نحوي، ألقت برأسها فوق كتفي، أحسست بسخونة أنفاسها ودمعها. شعرت برغبة قوية بتقبيلها، أول مرة منذ عرفتها أشعر بهذا الشعور. مسست شفتيها المرتجفتين بقبلة كقبلتها. وهمست بحب:

: سيخرج كتابنا للنور، أعدك.

استعددت لجلسة طويلة بعد ذهابها. تصفحت الأوراق التي أحضرتها. عاد الطنين لرأسي من جديد، حاداً يتحدى الشفاء الذي شعرت به صباح اليوم. نفضت رأسي، لا شيء يمكنه زعزعة يقيني بقدرتي على استعادة مكانتي. سأتعافى وأعود كما كنت..ستنتهي محنتي، سأجد تفسيراً وتعليلاً لما حدث في ذاك اللقاء اللعين بيني وبينه، سيلاشى العذاب الذي نهشني، سيصدق قلبي وعقلي ما حصل. سألغي المنطق الذي يتحكم بعالمي ويشقيني، سأشفى. قلبّت الأوراق فعاد الوجع والتساؤل.

هاني..

أ أنت حقاً هذا الذي وقف أمامي هادئاً قاسياً متجهماً، ضاحكاً هازئاً شامتاً، لأن فرحة ملأت وجهي حالما وقعت عيناي على وجهك الحبيب؟ هل تعرف كم انتظرت هذا اللقاء وحلمت به وتخيلته؟ جمدني برودك، ملأني بحزن مؤلم، انتشر في كل خلية من خلايا جسدي، دمر كل فاصلة من فواصل حياتي، قتلني.

ألم تعد تحس بي كأخ توأم؟ أ تذكر تندر أمنا بمشاركة كل منا للآخر بكائه وضحكاته ونحن طفلان؟ وبعد أن كبرنا، صرنا نتندر بأنفسنا أمام الأصحاب والأقارب، بأننا روح واحدة في جسدين.

كنا نقول الحقيقة، فقد تعلمنا الحياة سوياً، خطونا خطواتنا الأولى في دروبها معاً. خضنا تجاربنا لأول مرة معاً. امتلأنا بدهشة ضبطت إيقاع خطواتنا معاً. حزنا معاً، فرحنا معاً، فخرنا معاً، خجلنا معاً. الآن ألقيت بي في المتاهات، وتركتني أتجرع مرارتها وحدي.

قلمي ينقش أوجاعي على الورق الأبيض. لا شيء يعيد صلتي بالأيام سواهما، ليس من شيء يخفف عن نفسي ألمها سوى ممارسة لعنة الكتابة. أقول لعنة تجاوزاً، فطالما اعتبرتها نعمة ومنحة لا تقدر.

ما زلت أحب تدوين يومياتي، دائما وأبداً كانت تعني يومياتنا. ذات يوم رائع من أيام أمجادك الغابرة، يوم عدت بعد أن أنجزت عملية رائعة في الأرض المحتلة، قدم لك الأصدقاء أشياء يعتزون بها، فقدمتها لك بدوري بكل حب. عرفت أمس كيف استغللتها بنذالة.

مع ذلك سأظل ألجأ للكتابة كلما افتقدك، وما أحوجني لك الآن. حالة إدمان لا فكاك منه. الظلم إدماناً أحياناً، قد لا يعرف الظالم كيف يـتخلص منـه، حتـى وإن أراد، وإن رأى بعينـه الأذى يلحقـه بالآخرين، وإن كانوا أحب الناس إلى قلبه.

مـا زالـت أوراقـي بحـوزتي، مـا زالـت وقائعهـا محفـورة بالوجدان. ما زلت أنا، سامي ولست بهاني، ولـن أكـون غيـري أبـداً، ولن أهادن حتى آخر رمق.

سنوات مرت على يوم افترقنا لأول مرة. أتذكرها تلك الليلة الأخيرة؟ قضيناها ساهرين، نخادع الصبح لعله يتأخر أو لا يأتي. لكنه جاء. شهدت ساعاته الأولى الباردة وداعاً حميماً لا ينسى. كنت مسافراً إلى أقاصي الأرض كما كانت أمي تقول، من أجل الحصول على الشهادة الكبيرة كما كان يرد عليها أبي.

كنت تقف أمام باب البيت بمنامتك القطنية الكالحة اللون، حافي القدمين، وأنا كنت أرتدي أحسن ما نملكه أنا وأنت. نرتجف من البرد، من لوعة الوداع. دامعة عيوننا، مشعثة شعورنا، والأسى يفترش أرضنا وسماءنا. اقتربت أكثر وضممتني إلى صدرك بقوة. انتزعت نفسي منك وابتعدت، تقدمت والتحمت بي من جديد. عدت ألوذ بصدرك، أتداخل بك، أستشعر حرارة جسدك، أمتلئ بها، أنفصل عنك. أشعر بقشعريرة تغمر جسدي، وأراها بوضوح على شعيرات صدرك المفتوح، أعود إليه من جديد، أزرعه بمواجع الخوف من غربة تنتظرني دونك.

رفعت وجهي الغارق فوق كتفك، محاولاً كبت دموعي، وابتلاع غصتي، لئلا تزيد من عذابك. في تلك اللحظة واجهتني عيون أمي وأبي، دامعة مفطورة. أمي متكئة على الباب وأبي المشلول معلقاً بكتفها. ابتسما بوهن ولوحا مودعان.

سحب أبي يده السليمة ولامس كتفك، ينبهك بأنه هنا، بجانبك رغم عجزه. تحركت ببطء للخلف، ربما مشفقاً. أحطت خصره بساعدك وأحاطك بذراعه الواهية، فألقت الأم إليك بالعبء كله، ووقفت طويلاً ترمقني بنظرات أخيرة، عميقة ولهى، ثم استدارت لتنضم للموكب الصغير الحزين. بضع خطوات ودخلتم البيت بينما ألقيت بنفسي في سيارة الأجرة لتقلني إلى المطار.

أغلق باب بيتنا لأول مرة دوني، أدرت عيني بعيداً محدقاً بإسفلت الشارع الذي كانت السيارة تنهبه نهباً لتبعدني عن أحب الناس إلى قلبي. التفت للخلف..يا الله..كم صار البيت بعيداً. ساءلتكم بصمتي البائس إلى أين؟ كيف سأعيش دونكم؟

غبطك وقد تخيلتك عائداً إلى غرفتنا، أشياء كثيرة فيها تواسيك عن غيابي، فراشنا، كتبنا، بقايا ثياب. ستجد الأم تحضنك والأب يواسيك. ستجد البيت والشارع والأصدقاء. وأنا وحيد بعيد.

السنوات كانت طوال قساة، غلفنا يأسنا بحلاوة الأمل. اختلفت أو ربما تقاطعت دروبنا، أهواؤنا، وتوجهاتنا لكن جمع قلوبنا مصير واحد، وحب وتقدير تناما بشكل آسر.

مفاجأة الأخيرة مرعبة. يبدو بأنك حسبت حساب كل شيء. لكن لا تفرح، ليس هناك من جريمة كاملة. سواء أخفيتني تحت سابع أرض أو بعثت بي إلى السماء أنا هو أنا، بكل ما يعني هذا الضمير المنفصل العائد على سامي شرف الدين.

خلافاتنا جاءت مع بداية وقوفي لجانب السلام رغم علمي بأنك ترفضه. هل تتذكر ما قلته لي آنذاك؟ لا أظن، فمن كان في مثل موقفك الحالي لا بد له من التناسي. دعني إذن أذكرك بصرختك في وجهي آنذاك:

: من أنت لتغامر بمصير شعب ووطن.

لم أحاول أن أبرر وأشرح. أعرف أكثر من غيري بأن مفاوضات السلام القائمة، ليس لها من السلام إلا اسمها. حبكة روائية تعرض على مسرح لامعقول. كوميديا سوداء، تبكينا وتضحكنا في آن. سمعتك تتهكم:

: ليس لديك ما تقوله. للأسف رجل قانون مثلك تركهم يستغلونه ليصيغ لهم بهدوء مبررات، تطمس الحقائق لتستقيم الأكاذيب. ماذا هل بعت القضية؟

لم أكن خائناً أو مستغلاً أو جاهلاً كما اتهمتني حينها، كنت أتألم من بنودها من نبرة خطابها. لكنني حقيقة كنت آمل وأحلم بمستقبل للجميع، أساهم بطي صفحة الصراع في المنطقة، والبدء من جديد. حين لم أرد عليك بجواب كنت تريده قلت بثقة:

: إذا توفرت لديك نية خالصة لكشف المستور بورقة توت، ما عليك سوى أن تسمع وترى بجدية، حين تقرأ مراجعك، أوراق عملك، صحفهم، مسارحهم أغانيهم، ستجد مليون سبب لرفضي.

كان معك كل الحق.

من مكانتي العلمية والعملية هناك رأيت الحق ميتاً في ملفات رسمية. تاريخ وجغرافية، أصول وفروع شعب بأكمله مشطوبة بجرة قلم. سنوات وسنوات وأنا شيطان أخرس. ذات لحظة، لا أعرف إن كانت لحظة غضب، أو كانت لحظة كشف ورقة التوت، تبادر لذهني إعادة كل شيء إلى نصابه، إلى الحقيقة، إلى الحق والباطل، كأنني أنت، بعجز المثقف تراجعت، وبعقلانية تامة تجاهلت، وعدت لما كنت عليه من جديد.

في داخلي كانت تتبدل أموري. هويتي صارت همي، جزئي الفلسطيني الأضعف، الهاجع في عمقي، ينزف بصمت. جزئي

الأميركي الأقوى، كان هو الوسيط الذي فتت مقولة أن القوة ما وجدت إلا لإحقاق العدل. وعزز شريعة عدل إرادة القوي.

أعترف، تجاهلت يقيني بعفونة أفكارهم نحونا، وعولت على ديمقراطيتهم كشعوب متحضرة. قيم كثيرة مجرد عبارات محشوة في الكتب، انتقلت بسرعة إلى عقولنا العطشى والمخنوقة منذ الوعي بل ربما قبله.

وسط كل هذا الألم والضياع فاجأني نبأ مرض أمنا، لم يسعفني عقلي بحل غير إحضارها إلى هنا للعلاج.

مـا سـأكتبه مـذهل، فـنحن فـي السـنوات الأخيـرة مـن القـرن العشرين. بالتحديد في بداية خريـف إحـدى سـنواته، لا يهـم أي سـنة. ستعرّف ب"سنة كشفت و رقة التوت" نصبوا أنفسهم بأنفسـهم أسـياداً للقرن القادم ودفعوا بنا إلى مهاوي الظلم الفادح.

كـأنني صـرت أتكلـم بلسـانك، أتصـرف بسـلوكياتك دون أن أدري. تغيرت لغـة خطـابي لطلبتـي، خفتـت لهجـة التحـدي لكـل مـن يتمثل فكرك. خاصة الدكتور عيسى، صديقك وأستاذي الـذي أشـرف على رسالتي.

كانوا يراقبونني بشراسة. عيون هؤلاء الناس لا تهـدأ، وكـذلك أدمغتهم، وكذلك رجالهم، كل فـي موقعـه. اسـتدعيت لمقابلـة رئيسـي المباشر فـي لجنـة سـلام الشـرق الأوسـط. ظننتـه سـيعلق علـى فشـل المفاوضات وطرح خطط جديدة. تأهبت لشرح سبب الفشل كمـا أراه بعينيك، إلا أنني فوجئت به يقول بلهجة فيها الكثير من التعنت:

: تم تكليفك بصياغة بيان السلام. تقدم نفسك فيـه كرجـل سـلام نظيف، محبوب ومحل ثقتهم وثقتنا.

قبل أن أرد عاد يقول بشكل باتر:

: أكد في البيان التزامك بنتائج مفاوضات السلام مهما كانت.

أجبته بصدق:

: لا أظنها ستسفر عن صيغ، لقد فشلت.

استطرد كأنه لم يسمعني:

: لتكن لهجتك واثقة ومتعالية، أنت تفهم عقول هؤلاء العرب.

توقف لحظات ثم استأنف بعنجهية:

: هذا كل شيء شكراً. أطّلعني على بيانك بعد إعداده.

رفعت رأسي وحدقت بعينية بصلابة وقلت بحنق أدهشني:

: آسف يا سيدي. أنا آخر من يصلح لمثل هذه المهمة.

كان الرد صفيقاً:

: لماذا؟ هل أنت سام الأمريكي أم هاني الشقيق الإرهابي؟

صمت.. ليس في رأسي إجابة شافية. ماذا أقول؟ هل أعتـرف لهم قبـل أن أعتـرف لنفسـي بإحساسـي الطـاغي بطعـم الخيانـة، وأنـا واحد منهم لسنوات طويلة قد تكون أكثر من نصف عمري؟

نظرت إلى الورق الرسمي المسجى أمامي بانتظار توقيعي لأصبح جديراً بالمنصب. خرج أبي من عمق ذكرياتي، متجسداً واضحاً مكوماً بالقرب من تلك الأوراق، أكاد ألمسه بمجرد مد يدي. بدا لي بصورته الوحيدة التي ما عرفنا غيرها قط، حزيناً مكسوراً عاجزاً لاجئا. الصورة ذاتها التي عايشتها كل عمري، تخيلت يده الواهنة وهي تسحب مرة تلو المرة، بلا ملل أو كلل، حتى يوم وفاته، مفتاحاً حديدياً طويلاً كالح السواد من تحت وسادته وتلوح به. سمعت صوته المخنوق المنفعل "هذا مفتاح بيتكم القديم، في الوطن السليب، عودوا إليه. ارتمت يده فوق الأوراق التي أمامي وبيده الأخرى أمسك يدي وقال:

: لا يا سامي.. لن توقع على حكم الإعدام الصادر بحق بلادك نهائياً عن خريطة العالم القادم.

خرجت دون الرد المنتظر. أعاد سؤاله من وراء ظهري فأجبت: لا أستطيع. ضحك ضحكة غريبة، همست لنفسي مرحى. لم أستطع أن أكون أميركياً وأفعل ما يفعله زملائي ببرود أعصاب، ولكن أيمكنني العودة لأصلي وجذوري؟

هكذا كانت بداية طوفاني الداخلي.

صباح اليوم التالي فوجئت بقرار ترقيتي إلى درجة مستشار قانوني في الإدارة الاستشارية الخاصة برئاسة الدولة. وبالطبع طلب مني التخلي عن التدريس. اعترضت بشدة، قلب مديري شفتيه مستغرباً نافضاً يديه من مسئولية ذاك النقل لأنه من اختصاص جهات عليا.

تركت الجامعة مهموماً، كان علي حسم الموقف قبل الذهاب إلى البيت. لا أريد فتح مجال الحوار مع دلال، سترى الأمور من نافذة لا أطل منها أبداً، ستعتبر ترفعي عن قبولها رغم ما ستتيح لي من توفير جهد ووقت وزيادة في الدخل ضرباً من الجنون.

وجدت نفسي على باب مقهى آرارات، مكاني المفضل، حيث كنت التقي بالدكتور عيسى بشكل يومي تقريباً. اليوم أتيت في غير موعدنا. استقبلني صاحب المقهى خريستو بترحاب وكأنه كان بانتظاري، قادني إلى مكاننا المعهود، جلس معي صامتاً يتأمل وجهي المحتقن. منذ زمن أصبح صديقاً لي وللدكتور عيسى. حين يسمعنا نناقش أمر يخص قضيتنا كان يتدخل. كان أرمنياً ووطنياً، دائماً يردد بأن الشعب الأرمني والفلسطيني أكثر شعوب الأرض تعرضاً للأذى، ولأكبر قرصنة عرفها التاريخ.

جاء النادل بقهوتي، قدمها لي بنفسه وهو يقول:

: أنت ليش شايله طاجن خالك على رأسك؟

لم يسعني سوى الابتسام من لهجته العربية وقد خاطبني بصيغة المؤنث. ربت على كتفي وهو يجلسني:

: هيا نفسّي عن غضبك حرام عليك أعصابك.

حين قرأ كتاب الترقية، ابتسم قائلاً:

: لماذا كل هذا الغضب دكتور؟ مستشار قانوني في مقر الرئاسة شيء مهم لقضيتك.

: لكنه سيقصيني عن التدريس وعن طلبتي.

: رب ضارة نافعة من يدري.

همست متأففاً:

: ليس الأمر كما تظن، إنهم يعاقبونني. الحرية والديمقراطية كلام في كلام. كل يوم تتضح أمور كانت غائبة عن بالي. كفرت بالعلم وبالحضارة وبالديمقراطية، كفرت بلوائح حقوق الإنسان.

جاءني صوت آخر مخترقاً صمودي البادي:

: ما هذا؟ هل أفقدتك الترقية اتزانك لتتحدث مع نفسك؟

: أهلاً عيسى..كنت أكلم خريستو. أين ذهب؟ متى وصلت؟

: منذ علقت على العقاب والثواب.

: من أخبرك بأنني هنا؟

: هل هذه أحجية؟ سألت عنك في كل مكان وحين لم أعثر عليك تأكدت بأنني سأجدك هنا. أعرف أن حالتك لا تسر. فيبدو أن حبلك السري موصول بالجامعات وقاعات محاضراتها. لكن هل تعتقد حقاً أنه عقاب؟

مر بخيالي لثوان معدودة بأن عيسى يرحب بكل أذى يأتيني من مراكز السلطة. يتمنى أن أتحقق بأنه على حق في عدم الثقة بهم. نفضت رأسي لأنفي عنه هذه الشبهة التي لا تليق بمثل هذه الإنسان العظيم. قلت:

: رفضت الاستمرار في لجان مفاوضات السلام. لم أوافق على صياغة بيان أقدم رؤية الرجل المتحضر للسلام، الشعب ينتظر الأمل وغد موعود.

: حقاً ؟

سألت متعباً:

: ما ظنك بي؟

: أنا من يسأل وليس أنت؟

: لماذا.. هل تشك بوطنيتي؟

: ما هذه المناورة يا سامي؟ هل تنتظر مني مجاملتك فأقول مثلاً: لم أشك ولن أشك بوطنيتك؟ آسف لصراحتي، اعتقدت لزمن طويل، ونظراً لموقفك المتحمس من المفاوضات طوال سنوات، بأنك قررت الوقوف في الظل، وترك لهاني وصحبة النضال.

: لا ألومك، كان عندي الاعتقاد ذاته. تصور..لن أفعل.

: الحمد لله.

: إذا كان هذا رأيك فلماذا رفضت مناقشتي حين سألتك؟
: لأنه قرارك وحدك. إذا كنت تريد رأيي في العقاب الذي تتعرض له فأعتقد بأنه كتابك الأخير"عالم حر! لا فيتو بعد الآن".
ضحك بتهكم:
: أ هذا عنوان يا رجل.
: استرح، لم توافق أي دار نشر على طباعته.
: لكن كثيرون كتبوا عنه، أشادوا بفكرته ومنطقه في معالجته العميقة لضرورة إعادة الاعتبار لدور الأمم المتحدة.
: أجاء الرفض من سلطات أعلى؟
: بالتأكيد.
: سلوك معيب في دولة ديمقراطية.
: في مثل الظروف التي تمر بالعالم ليس معيباً، يعتبرونه دفاعاً عن النفس. سمعت من مصدر موثوق تعليق أحد السياسيين" سيسبب متاعب جمة في الداخل والخارج".
: من سيجرؤ على نشره.
: سينشر، دار نشر عربية في باريس وافقت على نشره وستعمد إلى ترجمته أيضاً. كتب لك صاحب الدار مع العرض كلمات ممازحة، بأنك بعد نشره ستكون بحاجة ماسة لمحام بارع، لذلك سيحول كل عائداته المالية إليك لتحولها بدورك لي بصفتي محاميك.
غرق بضحكة صافية وصادقة، بدل أن تطفئ غضبي أثارت من جديد شكوكي، فعلقت:
: أقسم بأن لجمعيات الرفق بالحيوان مصداقية أكثر من كل الجمعيات التي تعنى بشؤون الإنسان.
: سامي لا تبتئس شعورك بالمرارة والإهانة شيء طبيعي لمن يؤمن بقيمة الإنسان.
هتفت بحزن بائس:
: هل بإمكان إنسان حقيقي الشعور بقيمة وجوده ومعناه في عالم مفكك كهذا العالم الذي نعيش فيه!

عيسى المتيقظ كعادته لامتصاص غضبي فرد جناحيه ليحلق بي من جديد بعيداً عن ثورتي. أصبحت مهمته صعبة بعدما أصبح الغضب سمة حياتي. كان يتكلم، صوته يأتي من بعيد، متهادياً آخذاً في الخفوت، وبدوري أسقط منه ومن نفسي نحو الأبعد.. فالأبعد، الأمر أخطر مما أظن. قال:

: أ رأيت؟ لقد صح كل ما توقعته.

صرت حاضراً وغائباً، ثقل طاغ أطبق على رأسي، عيناي تجمع صور الوجوه متداخلة، أذناي تلتقطان أصواتاً مهزوزة، ضحكات خافتة. لغط وهمس يذكرني بالعاشقين أو المتآمرين. كلام يعلو ثم يتكسر مع ارتطام الأشواك والسكاكين والصحون. صوت ارتشاف خافت يأتي بنعومة، فأحاول التركيز على الوجوه.

يد النادل تمتد أمامي مجدداً بفنجان قهوة آخر هامساً"قهوتك سيدي، سادة وساخنة". نظر نحو عيسى مبتسماً كأنما يشهده على تفانيه في خدمتنا. عيسى ما زال يتكلم، استمر يخلط كلامة بسلاسة ابتسامته الحيرى. لا أظنه خرج عن موضوع الجلسة، فقد صار هاجسنا. هزني من ذراعي صائحاً:

: هيه..أين أنت؟

نظرت نحوه برأس مثقلة، كان عنقه مائلاً للخلف، بعينيه فزع. لا لم يكن فزعاً، ربما تشككاً بإنني فقدت توازني. هززت رأسي بوهن، شددت شفتي لتتسع ابتسامتي، رغم أنها أتت مسكينة غمرت وجهي بالعذاب لكنها أكدت بأنني أسمعه.

: سامي ما ماذا جرى لك؟ عيناك محمرتان كأنك لم تنم منذ سنة. دع أمر الكتاب وشكوكك حول ترقيتك. تكلم بجدية رجاء.

وقفت ولم أرد، أمسك يدي فسحبتها بعنف وقلت:

: ما جدوى الجدية..أجمل ما نفعله إطلاق عقولنا من إسارها ومنحها فرصة للجنون. أليس "المجانين في نعيم".

انصرفت غير مبال. لم أكن أعرف أن كنت أهذي أم كنت جاداً. عدت وحيداً، بصحبة شخصي المرتبك المركب من توأمين. سامي شرف الدين، الأستاذ الدكتور لمادة القانون الدولي في واحدة من أرقى جامعات العالم، وهاني شرف الدين المناضل المفقود.

همت على وجهي في شوارع المدينة العظيمة، ساعات كثيرة مرت وأنا تائه كأنني جديد على المدينة وشوارعها. فكري يحصي المآسي كأنه يعاقبني. الحظر على منشوراتي ومقالاتي اليومية، طلبهم خداع شعب متعب منهك، كان آخر نقطة رفض تنزل فوق كأسي المترع. ما أرخص الإنسان، تذكرت روحي المعذبة، هذياني وشعوري بوحدة قاتلة. لا أحد يتفهم معاناتي. لا أحد يراني على حقيقتي أبداً. في بيتي امرأة تتفهم أحاجي العالم إلا أنا، زوجها، تعتبرني معضلة، من يدري ربما كانت على حق، أعني الحق السائد هذه الأيام. احزن يا قلبي ما شاء لك الحزن وابك إن استطعت واندب إن قويت على ذلك.

أين الحقيقة؟ لا شيء سواها يخضع عقلي المتمرد للاستكانة، لا شيء غيرها يعيده إلى جادة المنطق والصواب. لكن ما هي الحقيقة التي أطالب بها؟ وهل الحقائق المفروضة الآن في كل مجال هي ذاتها التي أبحث عنها؟ أ صار لها مفهوم آخر في غفلة مني؟ هل ما يزال واحد زائد واحد يساويان اثنين أم يبقيان واحداً شأنهما حين نضرب أحدهما بالآخر؟

آه.. الآخر، إنه سري. شيء تلبس فكري، يعذبني، أنا لم أعد أنا. أعرف بأن ما أقوله شيئاً مضحكاً. آخ.. ما أوجع اختلاط ماضي الإنسان بالحاضر بالآتي، وزمان بمكان. أعيش خارج تاريخي الشخصي، خارج تاريخ الكرة الأرضية بأسرها.

إلا فقدك يا هاني. لم يهن، لم يصغر، ولم يصبح حقيقة بعد. كم هتفت وتساءلت: أين أنت؟

في اللحظة التي كان عيسى يخاطبني فيها بلسانك وفكرك، بتأنيبه المحبب ألا أحبط، ألا أسقط في وهدت اليأس، أنت من كان حاضراً في ذهني. لله يا أخي كم تتشابه أيام الأحزان، تأتينا مثقلة بدموع وألم، تجرعنا لؤمها، حزنها ومرارتها. وكلما توصلنا لصيغة جديدة للتعايش معها تعربد، تصبح أكثر سوءاً وتعنتاً. أليس هذا الحال الذي تتعامل به الناس أيضاً؟

كنت اسير في طريق الجامعة، مقر عملي السابق ومكتبي للمرة الأخيرة. فوق كتفي رأساً منتفخة مثل بالون، بانتظار وخزه وتنفجر. بحزن أعبر الطريق الضيق المتفرع من الشارع الرئيسي، طريقي اليومي، سنوات وسنوات، إلى عالم أحبه.

دخلت الزقاق القديم المرصوف بالأحجار المختلفة الأشكال والأحجام، أطلقت عليه منذ زمن الزقاق الروماني. كنت أشعر بمتعة حقيقية حين أخطو فوق نتوءات بحصاته. إيقاع خطواتي الجادة، تشتبك بهدير مياه النهر المحاذي، مع رائحته المميزة، في عناق يحملني إلى عبق تاريخ الإنسان القديم، أقارنه بهذا التاريخ الحديث الذي انبثق فجأة، صار يرقى، لكنه مازال مصراً- رغم ناطحات سحابه- على ملامسة العراقة الأوروبية بأقل القليل.

لم أطرب اليوم لذلك الوقر، لم تعبق الرائحة بأنفي. إيقاع جنائزي يحكم خطوات الوداع. ترددت، هممت بالرجوع، لكن الصمت الحزين من حولي ذكرني بأن عليّ جمع حاجياتي، للانتقال إلى مقر عملي الجديد ابتداء من الغد.

لست متأكداً من شيء، عتم يلف المكان، رفعت يدي أبحلق في ساعتي لمعرفة الوقت لم أوفق، ماذا يعني الوقت؟ هكذا صارت أيامي، يأتني ليلها ويشرق صبحها، تتعاقب لياليها وأصباحها، وأنا أعيش الساعات بخمود، أحصيها بلا حماس. تعبر بي أو لي، لا تتوقف لتلحظ انطفاء ذاك الوهج الجميل الذي كان يتدفق مع نجاحي وإخفاقي، يضبط إيقاع خطواتي.

هاني..أنت تعرفني أكثر مما أعرف نفسي.

لم أكن في أي وقت من الأوقات من أولئك الناس الذين يعيشون أيام حياتهم بمثل هذه الشفافية الموجعة. لم أرها -ولو لمرة واحدة- بعيون قلبي المتعب كما أراها الآن. لم يخالجني قط إحساس المضطهد كما الآن، اختلف كل شي، لست كالسابق، لم أجد عزماً على تحديها.

لم يكن عدد من صادفتهم كثيراً أثناء دخول لمكتبي، حمدت الله، لن أقف موقف المودع من أشخاص محببين إلى نفسي، يكفيني وداع الأشياء التي غالباً ما نرتبط بها ارتباطنا بعاداتنا وسلوكياتنا.

جلست وراء مكتبي لآخر مرة. كنت دائماً أتساءل: ترى متى ستكون المرة الأخيرة؟ كنت وقتها أعني الموت، حين كان يسرق من حولنا أناس أقوياء ومعافين. للأسف، لم يخطر ببالي، بأن أنتزع منه انتزاعاً، وألقى بمكان ما، كشيء فقد صلاحيته.

دون رغبة في الدفاع عن حقي رحت أجمع أشيائي. مملوء بكم من القهر يمزقني. أرفض الثورة على التغيير وعلى طعم الأيام الغريب، شأن كل من تصل ثقته بنفسه وبقدراته حد الافتتان.

أول ما حرصت على جمعه كانت دفاتري الشخصية، رصصتها فوق بعضها البعض. في بطن هذه الأغلفة السوداء اللامعة صفحات جميلة ملونة بلون قزح، موشاة بنقوش من مواجعي. نتاج عشقي للكتابة، ملاذي القديم، قدم الظلم السائد، قدم الوعي الملغي.

توقفت عن ربطها، فتحتها وقلبت بعض صفحاتها، قرأت نتفاً مما دونته بداخلها. رأيت بعض أيام عمري تتبختر فوق أسطرها، رأيت بوضوح كم كنت جاداً في سيري، كم كانت طرقي ملغمة بمصاعب ووجع وفشل. هنا وهناك إشارات لمشاوير حياتي. يكفي أن تمر فوقها عيناي، حتى تمتلئ نفسي بتفاصيلها المنقوشة فوق جدران القلب.

كم كنت أهرع إليها كلما مسني ضر. رحبة كصدر أمي أسترخي في مواجهتها، أنكب فوقها فتمتص حرائقي، كما يمتص ورق النشاف الحبر الفائض عن الحروف. أعود من خلوتي معافى، أستأنف الحياة، مخلوقاً جديداً، مشحوذاً كنصل، منتصباً كرمح.

أقلب بين يدي ذاك الأسود اللامع، فيه الكثير عنك..عن حضورك وغيابك. حضورك كان يشبه الغياب وغيابك قريب من الحضور. أشرع بالكتابة فوق الأوراق المفتوحة، على وجه صفحاتها الملون أدون حالتي الفريدة التي أعيش. حالة ملل أو اكتئاب وقتي مثل غيرها. أحجمت..لن أتجاهل، لست كغيرها، طعم الفشل مرير، انهمر كالسيل في نفسي، فاندفعت مجدداً للكتابة.

من يهمه غيرك يا هاني أن أمر بتجربة ميلاد جديد لي، من يقدر صراعي لئلا ينهزم ذاك الذي كنته. من يعنيه شعوري بازدواجية شخصيتي، بيني وبين توأمي؟

أمام الجميع كنت أنا هو أنا، من يعرفونه ويتعاملون معه، وبدوري أقوم بكافة الالتزامات المنوطة بي بكفاءة عالية كعادتي. ماذا يعني هذا غير بداية طريق الجنون أو الجنوح؟

اليوم.. كدت اكشف المستور أمام الدكتور عيسى، شجعني إحساسي الكبير برهافة مشاعره تجاهي. أو لتشابه أفكاره بأفكارك يا هاني. وأنا على مشارف البوح بهذا التغيير بداخلي، هربت. دارت روحي في الفراغ ذاته التي تدور به حين أقرر تجاوز الخط الرقيق الفاصل بيني وبين الآخر الذي يسكنني.

ليتك تأتي يا هاني، إنني بحاجة للبوح لك بكل ما يقلقني، بهذا الإعصار الذي يعايشني. نعم بداخلي إنسان آخر، ربما كان أنت، يستطيل ويتكور ويقصر ويعرض. تعترينـي في معظم الأحيان دهشة، كيف يسعني جسدي، وكيف يفكر عقلي، وكيف آخ ..قلبي.

في بداية غربتي كنت في قمة الحماسة والإعجاب للعالم الذي بهرني، كان من وجهة نظري كشاب يحلم ويأمل مكاناً عبقرياً. بلاد جميلة وحضارية. غبطت نفسي ان أتيح لي فرصة إكمال تعليمي العالي هناك، كنت على يقين بأن كل يوم من أيام الحياة فيها يحمل بذور خير وحق وجمال.

لا لم يكن كذلك. أعترف ألان أنه عالم مجنون ومغرور. الخير والحق والجمال قيم قديمة، أحيلت إلى الأرشيف. واستبدلوها بقيم مرعبة، تأتي منها ضيق البيوت والصدور، بغاء رابض على النواصي، عند كل منعطف، فجيعة بأخلاقيات الناس.

كلما مرت سنة، كنت أكبر سنوات، وأتعلم بنهم. تغيرت نظرتي، رؤيتي، حكمي على الأمور. لم تتغير مبادئي، كنت أظن ما أراه وأسمعه مجرد سلوكيات فردية، فمن يصل إلى هذه الذروة من العلم والتكنولوجيا لا بد وإن يكون ذا أسس وقواعد وقيم.

سنوات من العمل في التدريس وأنا أزين الحياة لأجيال قادمة، أننا قادمون إلى عالم أفضل، عالم واحد في خدمة الكل. فجأة وجدت نفسي عاجزاً على الاستمرار في ذلك، اكتشفت أنني أزوّر وأدّعي، أتبنى نظرية بلا روح مخالفة للطبيعة، وحدي في ذاك الواد والكل في واد آخر.

كل شيء مختلف، إنه الرخاء، رخاء فكري واقتصادي وسياسي. ترف كهذا يكون عادة مفسدة لإنسانية الإنسان. الناس هنا تعيش هذا اللون من الترف فكان لزاماً أن تصل حد المفسدة. لم يعد يتذكر الفرد هناك أي شيء سوى أنه فرد ضمن منظومة ابتدعتها له قوة مذهلة، وحيدة ومتفردة، تخترق الوجود مثل نصل حاد يغوص في قالب زبده طري، تحلق نحو عالم يخصها وحدها. شعاراته كثيرة، لكنها حبر على ورق، زيف وبهتان، ضربة حظ، وحبال بهلوان، هذا كل شيء. من يحالفه الحظ يفرد نفسه مثل طائر الرخ الخرافي. يسير بصفاقة، بخطوات قوية وثابتة، كأنها له وحده. بعدها لا يرى ولا يسمع ولا يتكلم، بالمقابل تبتلع من يقع أو يتلكأ أو يتوقف.

غير مسموح التساؤل بأية صيغة من صيغ الاستفهام، أين وكيف ولماذا ومتى، كلها صارت تهماً، لم تعد كما تعلمنا مفاتيح آفاق المعرفة. رغماً عني تفجر بداخلي إحساس طاغ، ملأني كمارد القمم. صرت كياناً خرج على نواميسه. أصير مداً، فأغرق كل المساحات من حولي، ثم انحسر وأنحسر، فأكشف عن أعمق نقطة في محيط ذاتي. هذه طبيعتي، أعيش بكليتي همي وفرحي، قبولي ورفضي حيثما وجدت.

ضاقت الدنيا علي بما رحبت، لم يبق ما أحن إليه وعالق في مخيلتي وأحبه غير بيتنا القديم. حيث عشنا وانطلقنا إلى الحياة منه.

هل ما زلت تذكره؟ هل تذكر الغرفة الصغيرة التي كنا ننام فيها على سرير واحد؟ هل تتذكر كيف تتحول إلى غرفة ضيوف بعد أن نغادر البيت كل صباح، ويتحول سريرنا المشترك إلى كنبة يجلس عليها ضيوف أبي المريض.

هذا المكان الذي جمعنا سوياً يا هاني ونحن طفلان صغيران، يسكنني الآن. أطل عليه هذه الأيام وكلي شوق إليه، أتمنى مقايضته بكل شيء. لعلك تدهش مما أقول. لعلك تتساءل ماذا زعزع ذاك الجبل فجأة؟ لا ليس فجأة، إنها تراكمات أوجاع السنين، همومي مثل كل الهموم، لكنها تضافرت واستقوت عليّ. ربما أضعفني مرض أمي، ربما عدم رجوعك بعدما أبلغت نبأ مرضها لكل معارفنا، فانقلبت شكوكي إلى مخاوف، ثم إلى يقين بأن غيابك قسري. أو لعلها المفاوضات الجارية التي تقودنا ببطء إلى بحور رمال متحركة.

ليت الأمر اختصر على تغير الأيام والظروف والأشخاص أو المسؤوليات. ما حصل هو تغيير جليّ بداخلي، بمواقفي، بمبادئي وبأفكاري. حين خاطبوني على أنني أنت، هاني، ظننته عرضاً، فوضحت الخطأ، ونسيت الأمر. لكنه تكرر، ولم أعد أبالي.

هذه الأيام تضعني على مفترق طرق، تمر بطيئة وقاسية، تحمل القلق والخوف. طفت بالتقارير التي وصلتني من أمينة عن حالة أمي على كل أقسام المستشفى، أستجدي أملاً، ولا يشفي أحد غليلي. ينصحونني بالصبر والانتظار ريثما تأتي وتعاد لها الأشعة والتحاليل. من ينتظر؟ يقولون هذا الكلام عن مريضة، لكنها أمي.

يرتجف داخلي فأنسى بأنني رجل، أعود طفلاً يريد صدر أمه ليحتمي به من مخاوفه. آه صدرها.. أي مصيبة ينتظر. أهرب في رحلات طويلة أسبح فيها بأحلام جميلة، أفرج بها عن نفسي كربتها. أزعم بأنه مجرد كابوس مرعب وسينتهي.

في أحلام يقظتي أمتلك قدرة خارقة، أتحدى بها كل هذا. أطفو فوق أحزاني وأسبح ضد التيار، بالاتجاه المعاكس، فأعود إلى بيت صغير تحيله الأم بحبها وشغفها بأسرتها إلى جنة. أشعر بنفسي مكبل اليدين، أحس بيديها تحررني من أصفادي. تمس موضع الألم بشفتيها، ثم بإصبعها المبللة بريقها، فتبرأ. أسمعك يا هاني تعاتبها وأنت تعانقها، بأنك من يحبها أكثر، لكنها كالعادة تحابيني عليك. أسمعها تصرخ متضاحكة وهي تتملص من عناقك وتسعل بشدة، تقول بحب لا مزيد عليه" أي حب هذا، إنه يشبه حب الدبة التي قتلت حبيبها لتبعد عنه إزعاج ذبابة".

أتشبث بضحكتها وبضجيجك يا هاني، فيأتيني صوت أبي الواهن، ينادي من داخل غرفته ومن فوق سرير عجزه متسائلاً عما يجري خارج غرفته.

أجلس في سريري، تنفتح الملفات في عقلي، أعود للحزن وللخوف، ألامس رسغي وقدمي، أحس بملامسة يد أمي. آه يا أمي، لا شيء هنا أو هناك، الجرح هنا في صدري في قلبي وفي عقلي أيضاً، أقوى من المنطق ومن الاقتناع.

فكرة السواد مجللة نفسي، ربما تعيش أمي آخر أيامها، ربما كان غياب هاني أبدياً. أعود برحلتي حيث ابتدأت، قرب أمي وبعيداً عنها. أرمي ورائي سنوات عمري، يغمرني شعور بمرارة اليتم، بمرارة الفقد، أبكي، يهتز سريري، يبكي معي.

تتقلب دلال النائمة بجانبي ضجرة، تعطيني ظهرها، كأن الأمر لا يستحق حتى مواساتها بكلمة. وأمضي ليلي كما يمضيه كل أرق معذب. يرحل أخيراً بعتمته ويترك عتمة نفسي بقية النهار.

اليوم موعد وصول أمي..

صباح خريفي متقلب بدت تباشيره منذ ليلة أمس. لم أستطع تذوق شي، فنجان قهوتي بلا رائحة بلا طعم، تبدل أكثر من مرة ليكون ساخناً حين احتسيه، لم أمسه.

لملمت ياقة معطفي فوق رقبتي وخرجت مسرعاً متحدياً البرد والأمطار المتواصلة منذ الليل. رياح جامحة من حولي تطوحني، تخترق عظامي. تصفر وتزمجر كصوت النعي وهي تخترق الأشجار على جانبي الطريق. تتساقط أوراقها المتبقية فوق الرؤوس، تسبح في الفضاء ثم ترقد على الأرض تحت الأقدام ميتة. يجفل قلبي، أبعد الخاطر المرعب عن رأسي.

واصلت المسير إلى مستشفى الجامعة لأتأكد بأن كل شيء معداً لاستقبالها بعد رحلتها الطويلة المتعبة. في ذهابي وإيابي لم أستطع فصل نفسي رغم كل ما بها من أسى عما يحيط بالجامعة. السيارات تعبر الطريق اللزج الضيق، ترص في الممرات الطويلة المخصصة بتؤدة، يقفز منها الأساتذة والطلبة بسرعة ليتفادوا المطر. الطلبة يتوافدون إلى قاعات المحاضرات، وجوههم مستبشرة للفصل الجديد. ازدحاماً طالما أحببته.

وصلت مقر عملي الجديد، زملاء العمل في الإدارة مشغولون بإعداد أوراق الاحتفال النهائي لتوقيع اتفاقية السلام. كانوا يتندرون بسخرية مريرة عن المأساة التي ستتم، رغم الاغتصاب والقتل والذبح، رغم التشريد والقهر. اشمأزت نفسي مني، كنت أساهم بكل هذا، كان عذري بأنني ناديت بإنهاء الصراع لا بتكريسه لينهي شعباً برمته.

لماذا يغزوني هذا الإحساس؟

أسئلة كثيرة تراودني، تركتها معلقة وانتبهت للحوار الجاري من حولي، الحوار يحمل الرفض ذاته الذي أحسه، رفضي إذن، لا علاقة له بالقومية والوطنية، بل بالظلم الفادح الذي يفوق الاحتمال.

ثمة مشهد تمثيلي يثير الفضول يؤدى أمامي. هب أحدهم واقفاً، أحنى رأسه بذل، تهدّلت كتفاه، رفع عينيه بأدب جم نحو رئيس

مكتبنا. قال: " سيدي الرئيس إنني رهن إشارتك، لكن عدني أن تبعد عني ذاك الإرهابي اللعين، لا تدعه يقبلني ويصافحني"

تلقى رئيسنا الإشارة، تقمص الدور بسرعة مذهلة. شد قامته، شمخ برأسه الأشقر، تبسم بكلفة بادية مبدياً لطفاً مصطنعاً وقال:

:" تحمل يا صديقي! ما بالك؟ كأنك غير مقدر ما أقوم به تجاهكم، لقد أتحت لكم فرصة نادرة فعليك أن تبتسم وتصافح و.."

يقاطعه:

:"عفواً سيدي الرئيس، اغفر لي صراحتي، أتمنى الموت على أن أقف مع ذاك الأفّاق موقف الأنداد أمامك. كنت أتمنى لو تقطع يدي قبل أن تصافح يده، لكنها أوامرك، ولا بد أن أطيع"

قال رئيس المكتب، منهياً المشهد، مطوحاً بملف كان بيده:

: ترى من هو الأقوى، الذي يرفع رأسه بعنفوان أم ذاك الواهن المتخاذل المطيع للأوامر؟

كان تعليق الجميع ضحكة خافتة مبتورة. خرجت بعدها للذهاب إلى المطار.

منذ وصول أمي وهي راقدة في المستشفى، حالتها بين مد وجزر. تارة تكون بكامل عافيتها، تحدثنا وتضاحكنا، حتى سؤالها عن هاني يأتي عادياً، كأنها على موعد معه لن يخلفه. تارة أخرى تنهار، تصبح مثل ورقة خريف جافة ستسقط بين لحظة وأخرى. تبدي شجاعة وقوة، وبالوقت نفسه، تستدرجنا لمعرفة حقيقة حالتها التي استدعت نقلها إلى "آخر ما عمّر الله" كما تقول. قالت ببساطة.

: سامي أريد هاني، صدقني حالما أراه سأشفى.

قلت أطمئنها:

: أصحابه يبحثون عنه. سيكلمني بين ساعة وأخرى.

أفزعتني وهي تقول بجدية:

: ما رأيك أن تخبره بكذبة بيضاء حين يكلمك، أخبره بأنني مريضة بالسرطان، كن قاسياً معه مهما كان بعيداً أو مشغولاً. صدقني سيأتي فوراً، أريد أن أراه قبل.. قبل.. يعني الأمر لا يخلو، لا أحد يعرف المقدر.

بهت..لكن حين نظرت في عينيها وجدتهما كعهدي بهما صافيتين صادقتين محبتين، تلمعان بثقتها بمدى خوفنا وحبنا لها. تعتقد بأنها بتلك الأكذوبة سوف تجبره على المجيء زاحفاً. تجرأت على الابتسام وامتداح الفكرة وأنا أقول لها سلامتك يا أم سامي. فترد وأم هاني أيضاً. أليس كذلك؟.

تابعت بتحببها المعهود:

: يا ليت تركتني انتظره هناك، لا داعي للسفر وتكاليفه، الأمر لا يحتاج كل هذا.

: اعتبريها زيارة لبيت ابنك ورؤية حفيديك ألا يستحقان.

: بل يستحقان روحي لكن عليّ انتظار عودة هاني

قاطعتها ممازحاً:

: هنا أيضاً يوجد هاني الصغير وهالة.

أيام تمر، بانتظار الانتهاء من الإجراءات اللازمة والتحاليل. أمارس حياتي بشكل روتيني قاتل، أساعد نفسي لتحمل أيام الانتظار، ولا أستطيع التغلب على شعوري الطاغي بأن حدثاً جلل سيغير حياتي. بتباطؤ التقطت سماعة الهاتف حين تنبهت لرنينه المتواصل. إنه عيسى، ما زال متابعاً مهمته في رعايتي والتخفيف عني. جاءني صوته على الهاتف متسائلاً أين أنت؟. حاولت أن أخرج من ذاك المزاج المظلم فقلت محاولاً التظرف:

: لم أزل أعيش.

: كيف أحوالها؟

وجدت نفسي وأنا أحادثه أخلط الحابل وبالنابل. أحدثه عن عملي وعن أمي وعني وعن هاني، أعود أحدثه عن الجريمة التي سترتكب بحق قضيتنا. أبتلع غصتي، أحبس دموعي، أكرر ما قلته. تركني أتكلم، خمنت بأنه يحتسي قهوته ويمج البايب ويهز رأسه كعادته. أدرك بأنني لست على استعداد لمناقشة أي شي. قال:

: سامي تماسك حتى تجتاز أزمة مرض أمك، لا تفكر بشيء آخر الآن، دع عنك هذا التعذيب النفسي، لا مبرر له. موقفك المؤيد في السابق مهم، كان لا بد من أن يقوم به شخص مؤمن ومخلص، نشكر الظروف أن كنت أنت هذا الشخص.

بعد كل المحاولات، لم يبق لنا سوى طريق الآلام. دع هذه الأمور لنا، سيأتي دورك صدقني وستبدع. المهم، لا أريدك أن تكون وحدك أثناء إجراء العملية يجب أن نكون معك، هذا أمر، هل فهمتني؟ متى ستجرى؟

: لا أعرف لكن ربما يكون غداً.

: هون عليك، سيكون كل شيء على ما يرام. بانتظار مكالمة منك، إلى لقاء.

المطر الخريفي مستمر، صار مصحوباً ببرق ورعد. قضيت معظم ليلتي بالقرب من ابنتي التي تخافه، حين هدأت نفسها ونامت، تسرب الخوف إلى نفسي، كأن العاصفة الهوجاء اقتلعت الأمل مني.

مع بزوغ الصباح كنت في طريقي إلى المستشفى لزيارة أمي، كانت جالسة في سريرها بانتظار انتهاء أمينة من تجهز الحمام. ما أن رأتني حتى قالت بفرحة:

: صباح الخير يا حبيبي. لقد صحوت كعادتي مع أول خيوط الفجر رغم فرق التوقيت. لكن ما زال الوقت مبكراً على حضورك.

مدت يدي لتستند عليها، قالت:

: ساعدني أريد أن أصلي كعادتي وليس في هذا السرير.

: قريباً يا أمي سيعود كل شيء إلى حاله.

: إلى حاله؟ هيهات..الذي يذهب لا يعود، الأيام والصحة والأولاد و...

لم أعد أحتمل اللعبة، تعرف بأنني أكذب عليها، وأعرف بأنها تستدرجني لتعرف مدى صحة شكوكها. انفلت من جلسة العقاب التي أصلب بها، انحنيت فوق رأسها أقبله ثم انكببت فوق يديها خاشعاً ومودعاً. همست لأمينة وأنا أضمها:

: لن أقوى على الصمود أكثر سأذهب. اتصلي بي.

على باب الغرفة كنت وجهاً لوجه مع الطبيب الجراح. تراجعت للخلف وجلاً، أفسحت له الطريق. التقط يدي الممدودة للسلام، تراجع قليلاً للخلف وسحبني إلى خارج الغرفة وهو يقول:

: كيف استعدادكم؟ سنجري العملية اليوم.

: اليوم؟

لم يرد ولكن ابتسامة مشجعة ارتسمت على شفتيه. قلت:

: أرجوك دعني أبلغها بنفسي.

: كلمة عملية لها رهبة حاول أن تطمئنها.

: أنا من يحتاج للاطمئنان أكثر منها. هل الأمر خطير؟

: لن نستبق الأمور.

تركني باتجاه غرفة أخرى. دهشت للبساطة التي تحدث بها عن أمر يكاد يقضي علي. يا الله.. كيف تصبح مثل هذه الحالات

المروعة عادية في أذهان الأطباء. رجعت إلى غرفة أمي، متكلفاً المرح. ما تزال على جلستها، ساقاها متدليان نحو الأرض. رأتني ففرحت كمن وجد ضالته، صاحت لهفة:

: لماذا عدت يا حبيبي ؟ هل نسيت شيئاً؟

هممت بمساعدتها لكن يد أمينة التي كانت بانتظارها تلقتها، مشتا سوياً باتجاه الحمام. فقلت أمازحها:

: أريد أن أقوم بخدمتك اليوم ما رأيك؟.

تساءلت أمينة هامسة "هل من جديد؟". هززت رأسي ففهمت وتراخت يدها، أسرعت أسند أمي، حين أحست بذراعي تحتضنها أسندت رأسها إلى كتفي. شعرت بها طفلة خائفة تلوذ بساعدها القوي. ملأت كفي بالرغوة ووضعتها فوق وجهها. لأول مرة في حياتي أمازحها على طريقتك يا هاني، أردت التسرية عنها قبل أخبارها. دفعتني برفق وأخذت تفركه بأصابعها وهي تقول:

: ما هذا يا دكتور أهو تسديد حساب؟ ليس بعد.

تصنعت الغضب وأنا أقول:

: لا بأس.. أمينة ساعدي أمك سأقوم ببعض الاتصالات.

استدارت نحوي والصابون ما زال طافياً فوق وجهها وقالت:

: ليس من العدل أن تصاحبني أنت وأمينة في رحلة مرضي المزعومة هذه ولا يتاح هذا لهاني.

استدارت نحو المغسلة وأخذت ترشق وجهها بالماء كأنها تضرب عالمها الظالم. لم أرد. أخبرت عيسى ودلال، كانت سميحة في زيارتها، أخذت السماعة وقالت على عجل:

: لا تقلق! إن شاء الله سليمة، مسافة الطريق وأكون معك. لقد وقفت بجانبي في أحلك أيام حياتي.

أحسست بأن هذه الجملة تعني دلال أكثر مما تعنيني. لا أنكر بأنني تمنيت أن تكون دلال هي التي تريد أن تكون معي.

دبت حركة نشطة في الغرفة، طلبوا منا المغادرة ريثما يعدون المريضة للجراحة. كانت عيناها الخاشعتان في الصلاة مبللتان بدموع رقيقة. أدارتهما حولها تحاول أن تفهم ما يجري، لم أكن قد أخبرتها بعد، رأيتها تزوم بشفتيها وتقول معاتبة:

: قلت انك عدت لمساعدتي، منذ متى تعرف أن تخادع؟.

حمدت أنها فهمت فقلت:

: نصف ساعة وينتهي كل شيء، عملية صغيرة جداً لن تشعري بشيء قبلها ولا بعدها.

جاء أحد الممرضين يدفع أمامه بسرير متحرك. دخلت الممرضة خلفه، اقتربت منها تداعبها وهي تحقن وريدها. قالت:

: ارتاحي تماماً، أنت ملكتنا اليوم وكلنا في خدمتك.

كنت أقوم بالترجمة بين أمي والممرضة، محاولاً أن أستمد المرح من وجه تلك الشابة المريح. الغريب أن ما علقت به أمي كان يحمل الشعور بالتفاؤل ذاته. قالت:

: قل لها أنني استبشرت خيراً بوجهها الجميل.

تضاحكنا جميعاً. نقلوها من سريرها للسرير الآخر وانطلقوا في رحلة طويلة بين غرف المنامة والقسم المخصص لغرف العمليات. شعرت كأن الأمر سار بأسرع مما تخيلت. الخوف الذي سكنني طوال ليلة أمس عاد من جديد وحط فوق كتفيّ. هرولت بمحاذاة سريرها المنطلق عبر الممر الطويل، والمستقر بمصعد المرضى. كأنني أركض في اللانهاية.

أمي مغمضة العينين، تتمتم بسور القرآن، تجاهد لتخفي قلقها. حين اقتربنا من غرفة العمليات أمسكت بقميصي بقبضتها وجذبتني كأنها تحتمي بصدري. انحنيت وحضنتها وأنا أقول:

: لا تخافي، جراحة بسيطة من أجل الاطمئنان فقط.

: لست خائفة ما شاء الله فعل، لكنني أشعر بالبرد. تذكر يا سامي، إنك تعذب نفسك وتعذبني دون سبب. أنا بخير، لماذا لا تصدق بأنها وعكة وسأقوم منها؟ أؤكد لك أنني بأحسن حال.

: لا يضر أن نقوم بكل ما يطلبه الأطباء.

مسحت دمعة سخية سالت فوق خدها وهي تقول:

: أحسن شيء في هذه العملية أنها ستخيف هاني على أمه ويهرع إليها. أليس كذلك؟ ألا تفعل ذلك لو كنت مكانه؟

دفع الممرض السرير من أمامي بعيداً بينما هي ممسكة بيدي، مع بداية تأثير المخدر همست:

: أمينة حبيبتي. مع السلامة، خذي بالك من أخويك، فأنت الأم الصغيرة.

غصت بدموعها فسكتت، صرخت أمينة. همست أمي:

: الله يحميك يا حبيبي من كل سوء. كنت أتمنى أن أرى هاني قبل أن أموت. انتم أجمل من في الدنيا.

لم تسمع تمنياتنا، ولا أحست بغصتي. لم تسمع نحيب أمينة، ولم تر الفزع الساكن في عيني وعيني أختي. أغلق الباب، وحيل بيننا، سمعت آخر آهاتها مستجيرة "يا رب".

قادتنا الممرضة عبر ممرات كثيرة إلى غرف الانتظار، وجدنا هناك الدكتور عيسى وزوجته، الدكتور اسماعيل وزوجته، وسميحة وزوجها. ولم تحضر دلال. تبادلنا تحيات هامسة، عاد كل إلى مقعده، جلست بجانب أختي ممسكاً بيديها، وساد صمت..

مر أكثر من ساعة ولم يأت من يطمئننا، لقد أخبرونا بأنها عملية بسيطة، مجرد أخذ عينه من ورم الثدي، لا تستغرق كل هذا الوقت. ما الذي جرى؟ كنت وأمينة ندور حول أنفسنا، نكتشف بأننا ما زلنا في أماكننا، كل منا يستجدي الآخر كلمة تشجيع أو اطمئنان فلم يفلح أحدنا أن يقولها للآخر.

قام الدكتور عيسى بفتح التلفزيون، انشغل ضيوفنا تماماً بمتابعة ما يعرض على شاشة السي إن إن الفضائية نقلاً مباشراً لوقائع الاحتفال بتوقيع اتفاقية السلام. لم أتابع ما يجري لكنني كنت اسمع تعليقات عيسى، حزينة وحارقة. أشار اسماعيل إلى أعضاء الوفد الذي كنا أنا وهو ضمنه. قال:

: لم يعينوا أحداً مكان سامي.

قالت سميحة:

: بالمناسبة لماذا أنت الآن هنا وليس هناك؟

لم يرد اسماعيل، بل نظر نحوي، يرجوا أن أجيب على التساؤل حتى الذي لم يقل بعد. لم يعرف كم كنت بعيداً، لم يعرف بأنني لم أعد أرجو شيئاً سوى عودة أمي إليّ وانتهاء الكابوس.
صرخ الدكتور عيسى:
: أي مهزلة هذه. أ هكذا حولت القضية العظيمة من قضية وجود إلى خلاف بسيط على حدود، لن ترسم ولن تكون آمنة في يوم من الأيام.
فجأة وقفت أمينة صارخة:
: سامي اذهب واستفسر ماذا يجري هناك.
تحركت لا شعورياً مع صرختها ثم تسمرت في مكاني. كنت خائفاً من الذهاب ومعرفة الحقيقة. أمسكت بيد أختي، ضممتها إلى صدري، أجلستها بقربي، أحطت كتفيها بذراعي، نشيجها يقطع قلبي، أهمس لها لأشغلها. سأل عيسى إن كان التلفاز يزعجنا، قلت بألمي الآخذ في التمدد:
: لماذا هذه التمثيلية، يا أخي صحيح المثل الذي كثيراً ما ترده أمي"موت وأمر الله، كمان خراب الديار" لماذا يصرّ الختيار على اصطياد قبلة من ذلك العجوز المتعجرف؟.
قال عيسى:
: قبلة تملق لا أكثر.
: يرخص نفسه وقضيته..
: وضع طبيعي بين ضعيف وقوي.
قفزت واقفاً:
: أوف.. لم أعد أحتمل..
أكثر من صوت سأل" لم تعد تحتمل ماذا"
في تلك اللحظة حصلت المعجزة وظهرت الممرضة. وقفت أمامنا مسندة كتفها على الباب. أشارت لعيسى أن يخفض صوت التلفاز، ولي أن أتبعها، لحقت بي أمينة فرجوتها أن تبقى وتنتظر.
تبعت الممرضة عبر ممرات طويلة خيل إلي أنها بلا نهاية متسائلاً مع كل خطوة، ماذا جرى؟ سراديب طويلة، دهليز إثر آخر، أكرر سؤالي، الممرضة تنفي معرفتها بشيء. دخلنا أبواباً وخرجنا

من أبواب، كانت تفتح أمامنا تلقائياً، تستقبلنا أو تبتلعنا ثم تغلق حالما تحتوينا. ملأني إحساس بأنني قائد بائس مندفع بلا خيار، الفاجعة خلفه، والفاجعة بانتظاره. أتصدى لعواطفي مع كل خطوة، أصبحت هيكلاً عظمياً فارغاً يصفر بين جنبيه الألم المكبوت. أقود نفسي المعذبة ببرود لإيقاف زحف عالمي نحو خراب أكيد.

كلما توغلنا كانت درجات الحرارة تنخفض، كلما اقتربنا من الهدف أرتجف برداً وقلقاً. أخيراً وصلنا، هنا كنت مع أمي قبل قليل، أشارت لي الممرضة بالبقاء حيث أنا. قلت متوسلاً:

: أرجوك أخبريني ماذا جرى؟

: لا أعرف شيئاً، سيأتي الطبيب للتحدث معك.

دقائق الانتظار تمر كأنها دهر بكاملة، قضيتها متنقلاً يقظاً مثل ديدبان نشط، مشنف أذنيه، كأن حاسة السمع وحدها الباقية تعمل بأهلية كاملة.

خرج طبيب من إحدى غرف العمليات، مرتديا ملابس خضراء، منتعلاً حذاء مطاطياً يصل إلى ما قبل الركبة بقليل. أي رهبة، هوى قلبي من مكانه وهو متقدم نحوي ، خلع قفازيه ورفع الكمامة عن فمه وأنفه، عرفته. قال على عجل:

: طاب يومك..لا وقت لدينا، يجب أن تبت بالأمر سريعاً..

صمت قليلاً، ربما كان يبحث عن كلام، قدرت بأنه سيبلغني بأن أمي انتهت. تنبهت حواسي، هززت رأسي مشجعاً.

: آسف..الحالة متأخرة والورم ليس سليماً، أريد موافقتك على استئصال الثدي بكامله وكذلك الغدد اللمفاوية المحيطة به.

حاولت النطق لم أجد صوتي ولا لساني. نظرات الطبيب المترقبة تدفعني لتصرف سريع. كل ما استطعته أن مددت يدي بشكل آلي وتناولت الأوراق التي قدمتها لي الممرضة، ووقعت بإمضائي. انتظر الطبيب إشارة البدء قلت باستسلام:

: أرجوك اعمل ما تراه مناسباً لإنقاذها.

هز رأسه وانصرف. بدأت رحلة عودتي إلى غرفة الانتظار، ترافقني الممرضة ذاتها. لم تكن رحلة العودة كرحلة الذهاب، كانت أمرّ وأقسى. عرفت بأننا قد دخلنا النفق المرعب. أسمع صوت

الممرضة، أقدر محاولاتها لتخفف عني لكنني كنت في عالم آخر. أندب وأنوح. آه.. يا للقسوة ، ثدي أمي الذي سقانا الحب والحنان، هكذا بجرة قلم يبتر ويلقى بعيداً، أي وجع. توقفت عن المسير وأطلقت العنان لدموعي المحبوسة، بكائي صار نشيجاً، صار عبقاً يمتلئ به الصدر، يجأر لماذا أمي؟ أصرخ وأضرب رأسي بالجدار فيرتد من قوة الضربة ويعود للارتطام به من جديد. يد الممرضة تسحبني للبعيد فأقاوم وأعود.

أخيراً استسلمت ليد الممرضة التي كانت تسحبني نحو غرفة الانتظار. لا أذكر إن مشيت كل تلك الدهاليز أم سقطت فجأة من كوة ما أمام أختي أمينة المسمرة مثل تمثال شمعي. اندفعت نحوي تشبثت برقبتي، بنظرات صامتة حزينة تسألني. ألجمها صمتي ووجومي وحزني المفترش وجهي أن تسأل. كان الجواب مرسوماً بدقة على كل قسمات وجهي.

صرخت وتداعت على مقعدها. دموعها تتدفق فجمدت دموعي في مقلتيّ، مثل حصاة أحس بها تعذبني تجرحني ولا تنزل. قفزت نحوي مرة أخرى، انقضت علي تهزني ملتاعة، ثم ارتمت فوق صدري صارخة:

: ماذا يا سامي، هل أمنا في خطر.

قلت بوهن:

: ستكون على ما يرام.

كان صمتاً جنائزياً ينشر أجنحته في غرفة الانتظار، اختتمت للتو مشاهد مسرحية درامية متقنة الأداء، فقدنا بعدها القدرة حتى على التعليق على ما جرى ويجري. عيناي مصوبة على التلفزيون، كان يبث صوراً بلا صوت. عقلي ممتلئ بأصداء صراخ ابن على وشك أن يفقد أمه.

كل منا تشاغل بشيء محتمياً بصمت خانق. أدرت ظهري للجميع، صرت في مواجهة النافذة المطلة على الحديقة. الخريف مرة أخرى، أمامي وبداخلي، بقدر ما أحببته فيما مضى خفته. الأشجار تتهاوى أوراقها بامتثال تام. لا بد من سقوط من فقد صلاحية أداء دوره في الحياة.

عشنا أياماً عصيبة، أنا وأختي ننتظر نتيجة عملية البتر، وأنا والعالم بانتظار نتيجة التوقيع على اتفاق هزيل. هلل الأطباء بنجاح العملية فاسترحنا، وهلل العالم لاجتماع تم رغم استحالته، استراحوا على الرغم من علمهم بأنه لن يجدي شيئا. تجاوز الأصدقاء وجع الاتفاق، شاركوني فرحة أبديتها رغم الوجل الساكن في قلبي.

أمي في حالة سكون وذهول أخافتني. كلما تلاقت عيوننا ترفع كفها لا شعورياً وتلامس صدرها الفارغ. تحني رأسها كأنها خجلة من هذا النقص، كأنها فقدت الحق في أمومتها. قالت بهمس:

: حين كنتما تبكيان سوياً كان الحليب يتدفق من صدري حتى وإن كنت بعيدة عنكما.

تشاغلت بترتيب حوائجها وأنا أقول بمرح مصطنع:

: ستقضين فترة النقاهة في بيتي مع هاني وهالة.

: لن نخبر هاني.

: غداً سنعود، الولدان بانتظارك بلهفة.

: ما يدريك لعلي لم أعد قادرة على العطاء أبداً.

قلت بهمس:

: ستكونين الخير كله كما كنت دائماً.

يوم بعد يوم، بدأت تسترد السلام مع نفسها. وجود الصغيرين ساعدها على استعادت ثقتها وقوتها. أراها سعيدة حين تلعب معهما كأنها نسيت. تحكي لهما قصصها القديمة، تخبرهما عن البلاد، عن جدهما بطلها القديم، عن عمهما هاني، بطلها الجديد.

دلال كعادتها، لم تكن لتتساهل وتتركها تقوم بما يحيي رغبة الحياة في أوصالها. كثيراً ما تقاطعها، فتخمد الحماسة المنطلقة من عينيها. ودون مبرر تطلب من الولدين الذهاب إلى غرفتهما.

تمر أيام أراها تتألق صحة وعافية وقوة. حركاتها وكلماتها تكون مثل مؤشر عن عبور الأزمة فيبعث الأمان في نفسي. أنها بخير، وستعود إلى بيتها قريباً جداً لانتظار هاني. لكنها حين تصمت وتعتكف بعيداً عنا في عالم يخصها، أحترم رغبتها، أبتعد بدوري، وإن كنت أقضي ليلي أجول حول بابها الموصد على الألم.

الليلة سهرت مع أمي وأمينة إلى ما بعد منتصف الليل، نتسامر ونتضاحك ونتبارى في إطلاق الذكريات من أسرها ونعيشها مرة أخرى. ذكر هاني أضفى على جلستنا الكثير من المرح والحب. فضت السهرة، تبادلنا القبلات والتمنيات بليلة سعيدة.

مزق هدوء الفجر المتسلل إلى غرفة منامي استغاثة ألم، هرعت إلى أمي، كانت ممتقعة تتقلب من الألم، كانت أمينة تهزها وتضرع إليها أن ترد عليها، رأيتها تجهد نفسها لتبقى مفتحة العينين لتطمئنها لكن ما رأتني حتى استسلمت وأغمضت عينيها.

هرعنا للأطباء، على الرغم أنها لم تستطع تحديد موضع الألم أو نوعه أكدوا بأنها بخير وعلينا المواظبة على العلاج. عاد لها هدوءها بضعة أسابيع أخرى، فاستراحت نفوسنا، اعتبرنا ما مر مجرد وعكة. لكن الألم هاجمها بشكل أعنف. نوبات قيء شديد، ارتفاع في الحرارة، عطش شديد، جوفها يحترق، فتطلب بين فينة وأخرى ماء بارداً يطفئ حرائقها الداخلية.

أعدتها إلى المستشفى، أجريت لها فحوص كثيرة، قرر الأطباء استبقائها تحت الملاحظة. ها قد عدنا لدوامة المرض اللعين. الأطباء الذين كانوا يؤكدون تجاوزها المحنة، تراجعوا مجمعين على ضرورة إخضاعها للعلاج الكيماوي.

بنود الاتفاقات والوعود سقطت واحدة إثر أخرى، بينما بقي التزامنا ثابتاً كما وعدنا. صارت القضية عرجاء بعد بتر نصوص ميثاقها الوطني، ظل يرعبهم حتى وهو مبتور. لم نصدق أن كلاماً على ورق يخيف إلى هذه الدرجة. لم نتعلم بعد بأن الكلام في كل مواثيق العالم له وزنه، ونحن أصحاب لغة الضاد، يبقى مثل دواوين أشعارنا، أجمله أكذبه.

في مكتب رئاسة الجامعة التقيت السير دونالد. كان موعدنا مؤجلاً إلى ما بعد أعياد رأس السنة الجديدة، لكن فجأة استدعيت لمقابلته. كنت أرتجف من شدة البرد وبالوقت ذاته من الغضب.

أتى الرئيس على كافة التفاصيل، لم يعطني تفسيراً واحداً، لتقديم الموعد، ولعدم أخذه مرض أمي بعين الاعتبار. انتظرت انتهاء حديثه الهادئ المشوب بتحدي أثار دهشتي. كان واقفاً وراء مكتبه، ينظر إليّ بتودد مراوغ محترف. بدا لي أقصر وأضخم مما أعرف. وجهه مزرق، عيناه منتفختان أثر سهرة عيد الميلاد، بدا الحول الذي كان بهما أكثر وضوحاً مع ترنح الجفنين المثقلين من السكر. لحيته الرمادية المشذبة الطويلة ترتفع وتنخفض مع حركات وجهه وشفتيه. حاول تلطيف لهجته بهدوء جليدي مريب، ذكرني بثعالب المناطق الثلجية الرمادية اللون بالغة الخبث والدهاء.

حذوت حذوه في ضبط نفسي والتظاهر بالهدوء منتظراً سكوته لأعيد بدوري شرح موقفي. فجأة حدق بي مستطلعاً. قلت:

: نعم سيدي إنني بالانتظار.

اقترب بوجهه مني، فاحت رائحة المشروبات الروحية البائتة تحت أنفي مباشرة، تراجعت لا شعورياً للخلف بتقزز. ابتسم قائلاً:

: ماذا تنتظر؟ هيا لا شيء جديد، تعرف أكثر من غيرك ماهية تلك المهمات، أم هل تريدني أن أشرح لك البديهيات؟

عيناه ترقباننني بتلك النظرة الغريبة. استطرد جاداً:

: حسناً! دكتور سام، لنشرح الأمر من جديد: مثل هذه المهمات يكون السبب غير المباشر هو الهدف بينما..

: عفواً سيدي ما يحيرني أنك تعلمني بوجوب قيامي بمهمة مبهمة، كأنك تحاول للوصول إلى شيء بعينه. هلا تفضلت بالمزيد من الشرح. رجاء لا تتجاهل ظروفي التي شرحتها سابقاً.

نفخ ساخراً. فاستطردت:

: حتى وإن كانت المهمة تتعلق بالغليان الذي تعيشه المنطقة هذه الأيام، لا أستطيع الابتعاد عن أمي المريضة..

قاطعني:

: هذه مهمة جدية، سرية وعاجلة. ستقوم بها مع مجموعة تضم بعض رجال مخابراتنا وبعض الأكاديميين.

بدا الاستياء واضحاً على وجهي. استأنف:

: يجب ألا تغيب إرادتنا عن الأحداث والأذهان.

: لماذا تخصني بالخبر؟

: لأنك أحياناً تنسى نفسك. فجأة قفزت للوراء عشرات السنين، نصبت نفسك محامياً عن شعوب أنت نفسك نبذتها بعد أن تبينت تخلفها. نحن الغد، هم لا أقول الأمس، بل ولى زمانهم.

: ماذا تعني.

: ألم تشهر إيمانك بضرورة التعايش، وناديت بنبذ العنف والجنوح للسلام؟

: ومازلت..

: إذن؟

نظر نحوي طويلاً ثم قال بتؤدة:

: أنت فرد من هذا العالم المتحضر، فرد فعّال في نشر قيمه الفكرية والثقافية والعقلانية. اعتقدنا- وربما خطأً- بأنك غيرت مفاهيمك، آمنت بالإنسان وأهمية موقعه في المجتمع ومنظومة الكون. إذا لم تنفذ المطلوب منك فنحن..

: لم أفهم .. أعد من فضلك ما قلته آنفاً.

: التصاقك بالدكتور عيسى بعد الآن ليس في مصلحتك. لقد تغاضينا لعلمنا بمدى إيمانك بفكرنا الحضاري والقوى التي نمثلها. تأملنا أن تجره إلى معسكرك فحصل العكس.

: حتى الآن لم أفهم سر تحاملكم عليه، أعتقد بأن الحريات مكفولة للأفراد.

: لكنه تمادى.. لم يكتشف حتى الآن عدم جدوى استمراره في تحدي ما تمثله حضارتنا. له حق رفضها طبعاً، لكن غير مسموح لصوت مثل صوته التشهير بها. وصفها بواجهة جميلة تخفي شراً مستطيراً. أستاذ قانون كبير مثله يعرف الجهود والتكلفة التي قدمناها لتصل حضارتنا إلى شعوب متخلفة تعيش على نتاجها.

: الموقف باختصار: ليس من حق أحد خيار القبول أو الرفض؟.

: حقيقة الموقف هو ما كنت عليه قبل هذا التحول. كنت ترفع شعار "الحضارة ميراث للجميع" وعملت جاهداً من أجله.

صمت وصمت بدوري، كنت أحاول فك هذه الطلاسم، هو يريد أن يوصل لي شيئاً بعينه لكنه يتردد لسبب لا أفهمه. لعله عبقري بطريقة أو بأخرى وأكتشف هذا البركان الثائر في أعماقي، لكن أن يعالجه قبلي فهذا من أغرب ما مر بحياتي. قطع صمته بنقلة أغرب قال:

: ستسهر ليلة رأس السنة في بيته، أنصحك ألا تفعل.

جلس وتشاغل بترتيب بعض الأوراق فوق مكتبه. ودون أن يرفع عينيه عنها استأنف:

: الفت نظرك بأن ما تقوم به مع طلبتك - بتحريض منه - يعتبر نشاطاً معادياً لسياستنا. إمساك العصا من منتصفها شيء لا يليق بمثقف مثلك.

: ما هذا الخلط؟ أنصحك ألا تفعل! والفت نظرك! ولا خيار لماذا لا تحدثني بشكل مباشر؟ رأيي كما هو، السلام ونبذ العنف.

: لا ليس صحيحاً. لتؤكد هذه الحقيقة لطلبتك عليك بالسفر مترئساً الوفد، والعمل بجدية لدفع مسار الأحداث إلى جادتنا مهما كلف الأمر، تنبه! إنه أمر بالغ الأهمية.

: ما علاقة ذلك بطلبتي؟

: تفقد مصداقيتك بينهم..

: كيف؟

: ستناقض كل آراءك وخاصة كتابك الأخير.

: هذه مهزلة.

: ما كتبته مهزلة. أهنئك من كل قلبي على عناوينك المبهرة لكنها لن تقدم ولن تؤخر وأنت تعلم هذا أكثر مني ومن أي مسئول.

فتح ملفاً أمامه أخذ يجول بنظره بين السطور دون أن يرفعه بين يديه. قرأ كلماتي:

: اسمع عناوين مقالاتك الأخيرة: اختراق الغرب للشرق وإعادة تأهيله. انتزاع شعوب الشرق الأوسط من أصولها. الهيمنة تغيير الهوية، إعادة البناء بما يناسب الغرب..أليس هذا هراء إن صدر عن أمريكي.

: فهمت.. أ تريدني أن أكذب نفسي بنفسي؟

: تماماً.

: لماذا..ألسنا قادمين نحو عالم واحد؟

: وهل تتخيله عالماً نزيهاً؟ سيكون العالم كما نريد له أن يكون. نحن أولاً ومن بعدنا الآخرين.

: ظننتك ستقول نحن ومن بعدنا الطوفان!

: لم لا..

لم أعد أسمع، شعرت بعبثية الحياة. كنت وما زلت نقطة مختلفة، تأبى التجانس مع شعب روافده متعددة، ملوثة ومجنونة. شيء في صدري تمرد، رفض هذا الوضع. اعترف بأنني كتبت وحاضرت وناديت بالسلام، بإقامة حوار، بمد جسور. كنت جازماً بأن كل التوجهات ستنتهي عاجلاً أم آجلاً حيث أقف أنا. لم يخطر لي، أن ما آمنت به، من ديمقراطية، وحريات سياسية، وحقوق إنسان، مجرد شعارات لفرض الهيمنة.

في لحظة انهيار عالمي الأمثل، تمزقت نفسي، ألم عظيم غمرني، فعجزت تماماً على الإجابة. الشخص الناظر نحوي بشراسة يدفعني إلى خيار لم يرد بذهني مطلقاً. فها أنا ذا، محكوم بخيانتي لوطني الأصلي، أمام نفسي، إن تجاهلت ما يجري به وله، أو خيانة الوطن البديل الذي انتميت إليه إن أبديت اهتماماً. أي مرارة وأي غضب؟

: هل لي بالاضطلاع على نصوص المشروع من فضلك؟.

أبدى الرئيس استياءه، هز رأسه يمنة ويسرى بالرفض مع ابتسامة قميئة دون أي توضيح. قلت من أعماقي الثائرة وإن بدا صوتي هادئاً:

: بالإضافة إلى الأسباب التي أبديتها حول مرض أمي، أرفض القيام بدور مهرج.

صرخ محتداً نافد الصبر:
: ما الذي جرى دكتور سام؟
: إنه السؤال ذاته الذي أود معرفة جوابه.
: من جهتي سأجيبك دون مراوغة، إما أنك أصبحت تنسى أي قوة تمثل، أو أنك غيرك، شخص يشبهك مثلاً.
: هل تعني بأنني
: لا أعني أكثر من أنك مكلف من قبل سلطات أعلى بكثير مني ومنك. ثم لا تنس بأنك اعتذرت قبل شهور وقبل رفضك.
: لقد اعتذرت، هناك فرق يا سيدي بين الاعتذار والرفض. أردت معرفة المواضيع التي ستبحث، والأفكار التي ستطرح بصفتي رجل قانون.
: آسف دكتور سام، ليس قبل السفر. لقد وافق جميع أفراد الوفد دون مشاكل.
: أنا سامي وليس لي شأن بأحد غيري.
: إذن فأنت ترفض الذهاب.
: دون أدنى تردد.
: لأن المهمة لا تتناسب وأفكارك الجديدة؟
: بل لأنها لا تتناسب وأفكاري وأخلاقي ومبادئي الثابتة.
: إذن مرض والدتك حجة.
: بل حقيقة. أرفض هذه الطريقة التي تخاطبني بها.
تقدم نحوي بتؤدة واستخفاف منهياً اللقاء، وضع يده على كتفي لتهدئتي بطريقة لزجة. قال:
: العام الجديد على الأبواب لعله يكون الأفضل.
لم أرد التحية، ظللت على جمودي. ابتسم وكرر" أتمناه عاماً جديداً سعيداً لك".
ناولني الملف الذي كان بين يديه وهو يتظاهر بالاندهاش لموقفي. تركته وأنا مندهش أكثر منه من نفسي. اعتذاري بسبب مرض أمي صحيحاً لكنه ليس كل شيء.
ثمة شيء أتحسسه بداخلي، لم أتقبله لم أناقشه. اعتقدت بأن تقمصي لدورك يا أخي حين تصر أمي على وجودك بجانبها هو

سبب هذه الظلال الجديدة على شخصيتي. لكنني الآن.. عرفت أن السبب أنني تنبهت وبوضوح كما نصحتني ذات يوم لكل ما أقرأ وأشاهد، تبين لي زيف الديمقراطية. ليسوا سوى قوة وحيدة في العالم تتبجح، نبراتهم أعلى، تعنتهم جورهم، تفردهم تفوقهم، كل ذلك مغلف بكريمة طازجة دائماً، توحي بالعدل والحق والديمقراطية.

كان الملف يحفل بفقرات من كتابي انتزعت بشكل متعمد لتبدو وكأنني أحرض عبيداً على ثورة. بعض صفحاتها تحمل نقاشي مع عيسى وجماعته، مع أعضاء مجلس شؤون الشرق الأوسط الذي كنت عضواً بارزاً فيها. معظمها دار حول علاقاتنا بالدولة الأقل تحضراً إذا استعلمنا الكلمة بدلاً عن كلمة المتخلفة. أثرت النقاش كمواطن أميركي غيور في جلسة عمل.

هذه الصفحة خطط فوق سطورها بلون أصفر مضيء للأهمية. كانت وجهة نظر أقول فيها" يتوجب علينا كدولة عظمى ألا ننظر لشعوب العالم الثالث كموضوع يجب معالجته، بل نعترف بحضارتهم وإن اختلفت عنا".

حين سئلت " كيف وهم يرون محاولة تحضرهم مشروع يهدد عقيدتهم وثقافتهم"

أجبت" بإبداء الكثير من حسن النوايا ليقتنعوا بضرورة قيام حوار بيننا وبينهم. حوار أساسه الاعتراف المتبادل. استمرارنا على هذا الحال سيحول العالم إلى مسوخ. هل سيحلو لنا حكم وبطش وظلم مجرد مسوخ؟

نفث بسخرية وأخذ يقرأ فقرات من كتابي القابع في درج مكتبي لأنه لم يجد طريقه للنشر بعد.

"بركان ثائر في داخلي. عذابي يكبر يوماً عن يوم، صرت غيري، صرت شرقي عربي فلسطيني. الكذبة تفتت ولم نتعلم. خداع وقلب حقائق وحقد مزمن تقشعر له الأبدان، ولم نتعلم. ظلم يفوق الاحتمال. مكائد ومخططات، تشطب أسماء أشخاص ودول كاملة، بوضع علامة الجمجمة وعظمتين فوق وجوه حكام ومسئولين كبضاعة انتهت مدة صلاحياتهم. عقوبات ودسائس..ما أجرأها وما أكثرها.

يصدر إيعاز بثورة هنا وإرهاب هناك، إفزاع هنا وتفريغ هناك، تدمير، قتل، نفي، تنكر لوعود. يتم كل ذلك بدم بارد. وتشتد القبضة الحديدية فوق أعناق علموها جيداً كيف تستغيث بهم منهم".

انسحبت دون استئذان. انطلقت عبر شوارع المدينة هائماً ناسياً كل شيء سوى هذا الخراب الزاحف على الجميع. بجواري على مقعد سيارتي، ملف كرفات ميت يأبى أولي الأمر دفنه والتخلص نهائياً من عفونته. صورة مستند مكتوب بخط أزرق على خلفية بيضاء، خطة السلام رقم 31. يا إلهي..فالمشوار طويل، ما زلنا نتباحث بخطة السلام رقم 10.

أحقيقة "أن قتل شعب كامل مسألة فيها نظر".

هاني..لا بد وأن تظهر، إنني بحاجة ماسة إلى وجودك لتتلقى ميلادي الجديد.

كأن المصائب لا تأتي فرادا كما يقولون. أمام باب غرفة أمي بالمستشفى وقفت أتملى وجهها من وراء الزجاج. تداعت نفسي، شعرت باحتياج شديد إليها معافاة. أحسست بمعنى وجودها، بقيمته، بلهفتي لتضمني. صدرها الذي ينهشه السرطان أكثر أماناً من كل بقاع الأرض، فوقه يورق وجهي وأعود إلى حقيقتي، إلى حيث يجب أن أكون.

قبل أن تنفرج أساريري رأيت طبيبها خارجاً من غرفتها مسرعاً متجهماً، أمينة في إثره تتوسل دون كلام. قبل أن يرد عليها رآني أمامه، هز رأسه أسفاً، فسقط قلبي بين ضلوعي.

هتفت بخوف:

: ماذا هناك؟

: نتائج التحاليل تؤكد عدم تجاوبها مع العلاج..

صمت برهة ثم همس "تأخرتم".

آخ.. صرخة وجع طويلة انطلقت مني دون وعي، انتزعت من أدق شريان ووريد. ماذا أقول، لن ألوم أختي، ولن ألوم أخي، أعرف عناد أمي وقوة إرادتها حين تصر على شيء. قلت بأسى:

: ماذا يعني ذلك يا دكتور؟ هل انتهت؟

: ستكمل العلاج طبعاً، محاولة لا بد من القيام بها.

: ستموت.؟

: تفاءل يا رجل، سنة جديدة قادمة لا أحد يعلم ماذا تخبئ لنا.

: هل عرفت بحالتها؟

: بعد انتهاء العلاج الكيماوي لا حاجة لوجودها هنا.

تركني في قمة الألم، واقفاً على حد سكين. لوعة الحرقة من فقدان الأمل قفزت من قلبي، إلى عيني، إلى وجهي. تمنياته بالعام الجديد تقبلتها بسخرية مريرة، ليس من الموت بل من الحياة ذاتها.

أحجمت عن الدخول إليها. كتمت احتياجي لصدرها، ريقي جف، في فمي كم من المرار لم أتجرعه في حياتي كلها ولا أظنني سأتذوقه ثانية. نكصت راجعاً، لن أجرؤ على النظر في عينيها دون أن تفضحني عيناي الباكية دون بكاء. بحاستها الرقيقة ستقرأ يأسي.

في نهاية الدهليز المؤدي إلى باب الخروج توقفت، أمسكت بسماعة هاتف المستشفى الداخلي وقلت لها على عجل:

: أمي سامحيني.. لن أستطع الحضور اليوم، إلى الغد.

لا أنسى ما حييت وهن صوتها المسكون برهبة الموت:

: سامي حاول أن تصل قبل بدء العلاج أو أرسل لي هاني، لا أطيقه وأنا وحدي.

هربت من مواجهتها، لكن أنّى لي الهروب من أنين كلماتها، تطن في رأسي كجرس إنذار. حشرت جسدي المثقل بعذاب روحي في سيارتي كيفما اتفق، وانطلقت أقودها عبر طريق سريع متجهاً إلى بيتي دون وعي مني.

أراني ومخاوفي السوداء، وسيارتي البيضاء التي كانت تقفز بي مثل أرنب فزع، نقطة تائهة بين سواد الليل وإسفلت الشوارع المحيط بي وسواد نفسي. اخترقت رتل سيارات مختلفة الأحجام والألوان، زاحفة على الطريق السريع، متوجهة بأصحابها إلى حيث يبتهجون بأعياد ينتظرونها بفارغ صبر.

أتنبه على سرعتي بأنها أكثر مما يجب فأتراخى كأنني على وشك الشلل. أسمع صراخ من خلفي ومن بجانبي، وتلعب غمازات السيارات دورها في تنبيهي فأسرع من جديد.

هذه هي الدنيا..صراع بين اليأس والأمل والموت والحياة والجد واللعب. ينتظر الناس مناسبة ما مثل نهاية عام وبداية آخر، لتبدأ حفلات التحدي. استعدادات في كل مكان. في البيوت، بيتي، وبيت الأصدقاء، والجيران، الشوارع، المحلات التجارية. ضجيج في كل مكان، في كل وقت.

طعم كل شيء مختلف، جمود قاهر، وذهول مخيف. لأول مرة أرى الحياة الواسعة الشاسعة ضيقة. سأراها ومنذ الآن من أضيق زواياها، ألمها وحزنها.

غيابك هاني همي الكبير. أين أجدك؟ يكاد يموت حلمنا بعودتك. أين أنت؟. أمنا تصارع المرض الخطير، ألم تسمع؟ ألم تحس بها وهي تلح على رؤيتك قبل النهاية، لتودعك قبل رحيلها؟.

آه يا أخي.. موصولة أحزني ببعضها، موصولة أيامها مع نهاية عام وبداية عام جديد يا هاني، أتاني كغيره يجر معه هموم سنين عمري الهاربة.

الصقيع يخترق عظامي، ما أشد برودة هذه الليلة الثلجية. كل يتحدى البرد على طريقته. الأشجار على جانبي الطرق تتلألأ بنور مؤقت أعرف أكثر من غيري مدى زيفه. أتنهد..ليس لقلبي الحزين شيئاً من هذا الكرنفال سوى الصقيع.

"غداً يوم آخر"

"بعد غد عام آخر"

عام جديد وسعيد.

تمنيات سمعتها من كل من قابلته طوال اليوم ولا أجد صدى لها في نفسي سوى أن أضحك في سري ساخراً. كيف يقولونها بفرحة كبيرة كأنها البشارة، كأنها التعويذة التي ستنجينا من مآسي العام السابق والعام الذي سيليه. أليس من الأجدى أن يدلونا على طريق علمي أو عملي للخلاص مما نعاني دون انتظار عام يرحل وعام يأتي؟. لكن أي علم ومنطق سيجعلني أتقبل رحيل أمي؟

وهذا الانكسار في صوتها؟

ترى هل تعرف حقيقة مرضها؟ هل تعرف بأن أيامها باتت معدودة آخ..يا ربي؟

أغمضت عينيّ لتمسح طوفان دموعي لأتبين طريقي. ماسحات المطر في السيارات تعمل بلا كلل لتزيح ماء المطر المنهمر فلا تفلح إذ سرعان ما تنسكب فوق الزجاج من جديد.

عقلي يدور بسرعة وبحيرة ودهشة من تعاقب الأمور وترتيباتها. عاد لفكري الموقف الرسمي مني. تناسى الجميع كل المواقف الملتزمة منذ أصبحت أميركياً، أثبت ولائي وإخلاصي للقسم الذي أديته، لم أكن بأقل من أي مواطن عادي حرصاً على مصلحة وطن انتميت إليه بإرادتي.

الحقيقة أنني لم أكن أفكر بشكل درامي بقضية الشعب الذي أنتمي إليه أصلاً، بأنه أهين وسرق وطنه وشرد كما كان يفعل هاني، كان الأمر أسهل من ذلك بكثير. هنا وفي كل مكان في العالم كثير

من المهاجرين من موطنهم الأصلي، من أقطار مختلفة. عاش أغلبهم حياة عادية، بعضهم ظلوا يحملون لأوطانهم الأولى الولاء والحب، وبعض آخر تناسوه واندمجوا تماماً بالوسط الجديد. وهناك من لم يغادروا بلادهم قط ومع ذلك لم يكن ليعني لهم شيئاً.

بعد ممارسة الحياة على الطريقة الأمريكية، آمنت بأن تعقيدات العالم المزمنة بدأت تتفكك، ولن يتسنى الانخراط في التشكيل الجديد إلا بمزيد من المرونة في تقبل الحضارة الحديثة ككل. فالعالم آت إلى مرحلة اللا قومية، سيصبح في القريب العاجل مكاناً لكل الناس، يتكاتفون للعمل من أجل حياة أفضل للجميع.

دقت الساعة السادسة مساء. ما زالت في الطريق، سيزيده الازدحام طولاً. ينهبني قلقي، عازفة نفسي عن كل شيء. رفقاء الطريق يتمايلون على أنغام تراتيل الميلاد التي تمجد اليوم العظيم. يخرجون أيديهم ملوحين لبعضهم بعضاً بكثير من الود والتمني ثم يقلبونها لتمتلئ بماء المطر المنهمر.

عقلي يتنقل بين مشاكلي مثل نحلة نشطة. فوضى عجيبة في رأسي، أعجز عن التركيز. أ ثمة غشاوة كانت فوق العينين؟ الحرية والديمقراطية التي حشونا بها رؤوسنا مجرد شعارات نفترشها، نلتحفها، وفي الليالي المثلجة مثل هذه، نجد أنفسنا أضيع من أيتام على موائد لئام.

في هذا الصباح، كنت في مكتبي أسوي بعض الأمور العالقة بنهاية عام وبداية عام جديد. تسلل الطفلان إلى مكتبي بهدوء، وضع كل منهما أمامي قائمة بمشترياته وانتظرا. تساءلت:

: ما هذا؟

: نريد ملابس جديدة وهدايا وحلويات و..

: لكن ماما هي المسئولة عن هذه الأشياء.

قالت هالة:

: لن توافق على كل ما بها.

: لكنني أعرف بأنها تلبي كافة طلباتكما رغم اعتراضي.

قال هاني:

: ما تقوله صحيحاً لكنها تشتري لنا ما تريده هي.

ابتسمت وأنا أتناول القائمتين لأرى ما الذي يمكن أن ترفض دلال شراؤه لهما. كعادتي قررت التهرب من المهمة المملة المضيعة للوقت وترك دلال تقوم بها نيابة عني.

: سأكلم ماما لتشتري لكما ما تريدانه.

قالت هالة:

: من فضلك بابا أعطيها كثيراً من المال.

هززت رأسي موافقاً فانطلقا خارجاً والفرحة تنطلق من الوجهين الحبيبين. يعيشان فرحة عمرهما بانتظار مساء الغد ليقيما حفلهما السنوي في البيت كعادتهما مع أصحابهما.

حين وصلت إلى هنا، كنت راشداً، عرفت كيف ومتى أقترب وأبتعد بحذر من الأشياء المستحدثة في حياتي. لكن كان صعباً فرض هذا الأسلوب على الطفلين، أردت لهما حياة لا تختلف عن حياة الأقران والجيران. حرصت على تنمية شعورهما بالمواطنة ليتجنبا قسوة الشعور بالمنفى والاغتراب.

انتزعني من شرودي صوت دلال متطوعة للقيام بعملية الشراء دوني، ظننتها تفهمت موقفي وأقنعتهما بالخروج معها لقضاء حاجاتهم بأنفسهم وترك بابا لأعماله. قالت وهي خارجة بصحبتهم"سامي اتصل بسميحة، تريدك لأمر هام "

: سميحة؟

: كلمتني ليلة أمس. أظنها كانت تبكي.
قلت وأنا أقلب شفتي بحيرة:
: ما الأمر الهام الذي يشغل سميحة وهي من أشد الناس نشاطاً في تحضير حفلات رأس السنة؟ لا بد وأن مصيبة ما حلت عليها أنستها احتفالات هذا العام".
قالت بلؤم غير خاف:
: لعلها تعاضدك في مرض أمك، من يدري؟
حين رأت امتعاضي تراجعت بمرح متكلف:
: لا تتساءل كثيراً "يا خبر بفلوس".
: لكن لماذا لم تخبريني من قبل.
: لقد نمت قبل عودتك.. إلى اللقاء.

سميحة.. صديقة قديمة لي ولأسرتي، كانت زوجة أعز صديق. بعد موته تزوجت مرة أخرى من الرشيدي، رجل أعمال، ناجح وثري وذكي. يعرف كيف يلعب بأوراق العصر، يصرف بسخاء على كل ما يمكّنه ارتياد مجالات ليس له بها ناقة ولا جمل، لا فرق، ثقافية، سياسية، أو اجتماعية، بأسلوب التاجر الشاطر، فاخترق الكثير من الأبواب التي كانت تغلق دونه.

لم يحظ بثقتنا طوال سنوات مرت على معرفتنا به. رغم ما قام به أخيراً من دعم مالي لأنشطتنا مع الطلبة العرب في معظم الجامعات هنا. لم يتخل أو يتراجع حين اكتشف أهدافنا الأساسية.

تركت غرفة مكتبي غارقة بالفوضى، وتوجهت إلى أريكتي العتيدة لأغرق بجوها المريح، لقد فقدت الرغبة في الاستمرار فيما كنت أقوم به. سخرت من نفسي على قدرتي الاستمرار بحسن ظني بزوجتي، لقد حمدت لها إعفائي من مهمة التسوق دون أن أطالبها بذلك، فإذ بها تعرف أي مأزق ينتظرني.

مشاكل سميحة لا تنتهي، ودائماً لا أقوى على التقاعس عن نجدتها مهما كانت الظروف. كنت في السابق، أقدم لها مساعدتي وفاء لزوجها الراحل صديقي، ثم جدّ سبب آخر، ربما كان الأهم دون أن الاعتراف لنفسي بذلك.

أدرت رقم هاتف سميحة، آملاً أن يقتصر الأمر على الاتصال بها. ما أن سمعت صوتي حتى أجهشت ببكاء متقطع لم أفهم من كلامها سوى أسم عائدة. قلت بهدوء:

: سميحة أرجوك، اهدئي قليلاً لأفهم ما المشكلة؟

: ابنتي عائدة هنا، في المشفى الكبير. تصور أنها في المدينة ذاتها منذ سنة ولم تعلمني.

: ما بها؟

: أقول لك إنها في مركز الأمراض العصبية والنفسية؟

: آه.. آسف لم انتبه.

: أمس حين علمت بالخبر اتصلت بالمستشفى. قلت لهم بأنني أمها. رحبوا بي وأخبروني بأنها بأمس الحاجة للتواصل مع أشخاص تحبهم وتثق بهم. تركتني محدثتي بضع دقائق، ثم عادت لتخبرني بأن الطبيب يعتقد أن وجودي سيضر بها.

قلت أقطع استرسالها في نقل ما حصل:

: كيف يمكنني مساعدتك.

: لقد وقفت معي ومع والدها مراراً. لا تخذلني أرجوك، أريدك أن ترافقني لزيارتها.

: لماذا تذهبين وتخالفين أوامر الطبيب؟

لم تجب، عادت تشنج بحرقة، كدت أفقد أعصابي. قالت:

: الحقيقة أنني ذهبت أمس...

: ورأيتها؟

: استقبلتني بالصراخ والعويل، هرع الأطباء والممرضات لنجدتها، بعضهم يعلق مصلاً والبعض الآخر يحاول تهدئتها ورجل أمن يسحبني وزوجي إلى الخارج.

: إذن سأزورها وحدي.

: سأذهب معك، وستمهد لي الدخول. إنها بنتي.

: إذن نتلاقى في المستشفى في الساعة السابعة.

عائدة. الفتاة، المرأة، العالم المتكامل. كم كان القدر سخياً حين وضعها في طريقي. ظهورها في حياتي كان بمثابة جرس إنذار أطلق بداخلي، نبهني إلى نظام حياتي القاسي الذي فرضته على نفسي. أعادتني إلى الحياة بكل معانيها بعد أن عشتها بشكل وظيفي.

رأيتها بضع مرات في حياتي، كانت كافية لأن تقلب تاريخي على كافة الأصعدة. المرة الأولى حين كانت صبية في السابعة عشر من عمرها، تلميذة مستجدة في الجامعة الأميركية في بيروت، كنت بدوري أستاذاً مستجداً بها.

كنت أعرفها طفلة مدللة بين أبوين صديقين. أتذكرها الآن كأنه الأمس وهي واقفة خجلة ومرتبكة بانتظاري، ملامحها ما زالت تحمل الكثير من طفولتها. حين رأتني تهلل وجهها وتقدمت نحوي مادة يدها نحوي بالسلام.

: دكتور سامي..أنا عائدة سالم العمر.

: أهلاً بك.. لقد عرفتني؟

: لم تتغير كثيراً عما كنته، وجهك مألوف لدي منذ أن كنت تزورنا. لم أكن أريد إزعاجك لكن أبي أصرّ أن أطلب مساعدتك.

: أتنوين دراسة القانون لتنافس مستقبلاً على الزبائن؟

: **في الحقيقة هذه رغبتي، لكن ماما تريد كلية الطب.**

: مازالت دراسة الطب والهندسة متفوقة على كل العلوم في رءوس الآباء؟ ما رأي والدك؟

لم ترد، فقلت:

: على كل حال أنا أؤيد رأي الطالب، وحده من يعرف ميوله واستعداده الشخصي. ماذا أستطيع أن أقدم لك؟

: لا أعرف من أين أبدأ التسجيل لكلية الطب.

: حسناً إلى كلية الطب إذن. أعطني أوراقك وانتظريني في مكتبي، سأنجز كل شيء بسرعة وأعود لاصطحابك إلى البيت، ستتناولين الغذاء من يديّ أم سامي، ثم تتصلين بوالدتك.

: كما تشاء.

بعد الغداء، أصرت والدتي على استضافة عائدة عندنا حتى تتدبر أمورها وتستقر في سكن الجامعة. ترددت الفتاة فاستطردت:

: لماذا تتعبين نفسك يا ابنتي وسامي موجود، سيدبر لك كل شيء، ولن تتركينا إلا إلى سكنك ودراستك. أنت ابنة سالم وهو بمثابة ابن ثالث لي، فقد كانوا ثلاث أخوة زمناً طويلاً.

بعد أيام تركتنا إلى سكنها الجديد، تركت وراءها ثورة دلال على أشدها. كنا لم نزل حديثي الزواج. كانت ترى أنه لا يليق بأستاذ جامعي أن يهتم بطالبة مستجدة لا تعني له شيئاً. عبثاً أقنعها بأنها ابنة صديقين لي، لهما مكانتهما في نفسي، وإنني أقدم لهما شيئاً بسيطاً أمام عمر صداقتنا.

كنت أقول الحقيقة آنذاك. لكن صورتها لم تمح من مخيلتي في لقائي الثاني بها والذي حدث بعد ذلك بسنتين أو أكثر.

في المستشفى وجدت سميحة بانتظاري مع زوجها، أشارت إلى غرفتها في آخر الرواق على اليمين. تقدمت حيث أشارت، بينما بقيت واقفة بمكانها تنتظر.

أوقفني رجل الأمن أمام باب الغرفة قائلاً بأدب:

: من فضلك يا أستاذ أحضر لي إذناً من الطبيب هرنان.

قبل أن أتحرك جاء الطبيب مهرولاً ناحيتي، يبدو أنه رأى سميحة فخف لنجدة مريضته قبل إلحاق أي أذى بها. قلت:

: أنا الدكتور سامي صديق والدها، فهل تسمح لي بالدخول إليها لبضع دقائق وسأخرج حالما أشعر بأنني غير مرغوب بي.

قال الطبيب بود:

: أتمنى أن تتقبل زيارتك فهي بأمس الحاجة لمن تثق به.

: أعتقد بأنني الشخص المناسب، فهي تكن لي الكثير من المحبة كوالد لها؟

همم " انتظرني هنا من فضلك سأحاول"

عاد الطبيب وأشار لي أن أتبعه. قلت:
: هل أخبرتها باسمي.
: الحقيقة ما أن قلت لها بأن ضيفها صديق قديم لوالدها حتى جلست في سريرها وأخذت ترقب الباب بلهفة ظاهرة.
دخلنا معاً إلى غرفتها. كانت غائصة في سريرها بمفارشه الخضراء، مرتدية قميص المشفى الأخضر. ما زالت محتفظة بقصة شعرها القصير كما رأيتها في المرة الأخيرة في بيروت. ركزت نظراتها على وجهي، كان الطبيب يراقبها بحذر، حين رآها ما زالت على هدوئها بعد رؤيتي قال:
: مس عائدة ها هو ضيفك.
مدت يدها بالسلام وبصوت هامس تخنقه الدموع قالت:
: هاني.. أخيراً عرفت ما حصل لي؟
قلت موضحاً بظرف مفتعل:
: بل أنا سامي. ها أنت تخلطين بيننا.
لم ترد بل عقدت حاجبيها محاولة التجلد. قلت لها متبسطاً:
: هل تذكرين، يوم حضورك إلى الجامعة أول مرة. حين زرتنا في بيتنا، قلت لك بأنني سأعرفك قريباً على هاني توأمي، أريتك صورته قلت:"أنتما متشابهان تماماً".
قالت بوهن:
: لكن حين التقينا بعد سنوات قلت لك "لا أرى أي تشابه".
: قلتها بعصبية كأنك تحميه من تهمة.
ضحكت فانفرجت أسارير الطبيب وغادرنا وهو مطمئن.
: من أخبرك بوجودي؟
: شخص لا ترغبين في رؤيته.
: إنها هي.
: عائدة لا تتكلمي بمثل هذه اللهجة عن أمك. الأم إنسانة رائعة ومتميزة مهما أساءت. أمي تموت، رغم أنني كبير وأب لطفلين، أحترق كلما خطر على بالي فكرة حرماني منها.
: أرجوك..كلما رأيتها أتذكر أبي وما فعلته به وبنا.
: كما تشائين..لكن دعيها تراك عن بعد ما رأيك.

هزت رأسها، وبأصابعها مسحت دمعة نزلت على وجهها. فتحت باب الغرفة كانت سميحة تنتظر، همست لها أن تراها فقط دون أن تكلمها. ولحقت بطبيبها.

عدت إليها، لم تزل على جلستها الهادئة. قلت:

: منذ متى وأنت هنا؟

: أكثر من سنة.

: الطبيب أخبرني بأنك بخير، طلب اصطحابك خلال عطلة الأعياد ليرى مدى التحسن الذي توصلت إليه. اقترح عليك قضاء هذه الأيام القليلة في بيتي مع أسرتي ما رأيك؟

: لكن ماذا عن زوجتك إنها لا تحبني.

: كان ذلك منذ سنوات طويلة.

ابتسمت فقلت:

: اتفقنا، سأعود مساء الغد، ليلة سعيدة.

وجدت سميحة ما زالت واقفة قريبة من غرفتها وقد انتفخت عيناها من البكاء، شرحت لها الأمر وتركتها لتعود مع زوجها.

انطلقت عائداً إلى بيتي، حالماً باللحظة التي سأصل فيها إلى أريكتي. سنوات طويلة لعلها مرت على لقائي بهذه الشابة التي رأيتها الآن بقايا إنسان. مريضة يكتنفها غموض عجيب، وحزن كبير كسا وجهها الجميل فأفقده نضارته.

قبل لقائي الأخير بها كنت أركب موجتي العاتية التي راهنت عليها. بعد لقائي بها تغير كل شيء. أتذكره ذاك التاريخ. عدت حاملاً مقترحات الدكتور عيسى وجماعته حول مؤتمر السلام المعقود في ذلك الوقت.

رحلتي للقاء هاني كانت من الأهمية بحيث أنني عشتها بكليتي، كأنني أقوم بعملية غسل عقلي وقلبي دون أن أدري. أخذ هاني مستندات الدكتور عيسى دون تردد وانطلق إلى المفاوضين. طلب مني انتظار عودته وإن أقضي الوقت مع أصدقائنا القدامى الذين ما زالوا في الجامعة.

كان الشخص الذي برز للذاكرة الدكتور خالد. كان من الملتزمين بالقضية، كانت أفكاره أقرب لأفكار هاني مني رغم تأييده لفكرة السلام. اعتقدت بأن ما سيقوم به سيسعده.

لم يفرح كما قدرت، فاجأني بثورة عارمة على كل الأوضاع، على السلام والمتفاوضين والراعيين له. خيل إلي بأن ثورته ستجتاح العالم.

: خالد هل تبدل موقفك من السلام.

قال بيأس:

: أي سلام! إنها مهزلة. ألم تسمع مثلنا الشعبي الذي يقول "رضينا بالهم والهم ما رضي فينا". يا أخي موات عجيب في النفوس وبكل ما حولنا. تميد الأرض تحت أقدامنا ونستنشق هواء ملوثاً. ولا حياة لمن تنادي. ماذا بقي؟.

: ظننتك ستفرح بأخباري. ألم تعد من دعاة التفرغ للتطور واللحاق بالعالم المتحضر؟.

: لم يعد الأمر كما نعرفه، صار لزاماً إيجاد وسائل أخرى للتعامل مع هؤلاء الناس، نحن بحاجة لتغيير خطابنا للدفاع عن حقنا في الوجود. اختلطت كل الأوراق، عالم

ثالث، تقدمية، تحرر من الرأسمالية العالمية، قوة اقتصادية، انتصار سياسي. ما هذا يا سامي، شعارات ترفع، مزامير وطبول تدق، ولا شيء.

أعترف بأنني حتى ذلك الوقت لم أزل تحت تأثير الحضارة التي تنفستها، أحلم بعالم أفضل. لذا قلت مبرراً:

: إنها طفرة الانتقال إلى العالم الجديد، كل شيء يبدو الآن عائماً لكن القادم هو ما نهفو إليه.

: لا تصدق.. كل هذا تدليس في تدليس. أراهنك لن يكون فيه فرصة واحدة لتكافؤ أو عدالة أو حرية قول أو فعل. لا حياة سوية بعيدة عن منظور الإقصاء الذي يفرضه القوي المنفصل أصلاً عن الآخرين. لا أرى سوى زحف خراب يهدم في طريقه كل شيء.

: الخراب موجود في كل مكان، له أسماء وأشكال شتى. أليس خراباً ما تفعله حكوماتنا بشعوبها المغلوبة على أمرها؟.

: حكوماتنا، أنظمتنا، ثم ماذا؟ إلى متى هذه الشماعة التي نعلق عليها تراخينا وكسلنا. لنفرض جدلاً صحة ما تقول من أين لهذه الأنظمة قوانينها، من أين لها أدوات الاستبداد تلك، أليس نتيجة حتمية لاستبداد أقوام تدعي التحضر والرقي، هم في حقيقة الأمر مجرد أقزام.

: أتقول أقزاماً عن أقوام وصلت إلى القمر؟

: نعم هم كذلك، وإلا لماذا يغلقون منافذ الحوار الجدي المنطقي، بالقوة مرة، وبالتجاهل مرة، وبالاستخفاف مرات ومرات. لنضحك أو لنبك، لا شيء يستحق الاهتمام.

هدأت حماسته قليلاً وقال:

: عندك حق، الخراب هنا كما هو هناك، لكنه يتجلى بأبشع صوره في العلاقة التي تجمعنا بهؤلاء الأقوياء. خراب تحرص عليه وتعززه ثقافة لا تمت لنا بصلة. لن تعترف بوجودنا ما لم ندين بسياستها وأدبياتها وأفكارها.

: اعتقدت دائماً بأن هذه مهمتنا، مسئولية الفئة المثقفة، بناء الأفكار الجديدة وهدم القديمة.

: نحن بشر يا سامي، كيف لهذه الفئة، أن تستوعب زمن الخراب المعمم، دون أن تكفر بالفكر وبالعقل وبكل شيء خاضع لمنطق ما؟

شعرت بألم شديد في صدري يوخزني، تفصد العرق من جسمي. صرت أستنجد بقواي لاستمر معه ولا اسقط على الأرض.

لاحظ خالد ما ألم بي ربت على كتفي قائلاً:

: آسف..لقد فقدت أعصابي فنقلت لك تلك الصورة المحبطة. لا عليك يا صديقي، إن كنت ما زلت تؤمن بشيء فتمسك به، لا تستمع مرة أخرى لأمثالي.

ارتميت على مقعدي ولم أبح بما اعتراني. مشى في الغرفة جيئة وذهاباً وهو ينظر إلى ساعة يده بقلق باد قائلاً:

: سامي علي الذهاب الآن، إذا كان عندك ما تود عمله فبإمكانك استعمال مكتبي.

تذكرت أنني أحمل رسالة شفوية من سميحة لابنتها.

: أريد مقابلة طالبة هنا، اعتقد أنها في السنة الثالثة أو الثانية في كلية السياسة والاقتصاد. أحمل لها رسالة شفوية.

:ما اسمها؟

: عائدة سالم العمر.

: هل تعرفها من قبل؟

: نعم لقد قمت بتسجيلها هنا في الجامعة في كلية الطب قبل سنوات، الآن هي طالبة في كلية سياسة واقتصاد. هذا كل شيء.

: حسناً سأخبر الأستاذ المساعد ليطلبها، انتظرها هنا.

خرج دون تحيته المعتادة، فقد كان يكره كلمة الوداع، كان دائماً يستبدلها بجملة رائعة يراها أوقع في النفس، كان يقول عند كل فراق "إلى لقاء".

قلتها بصوت خائف بعد أن أغلق الباب خلفه. لكن أطل برأسه من فرجة الباب الضيقة، عيناه مليئتين بالدموع، ورأسه الأشيب يهتز بشكل يائس. همس:

: إلى لقاء.

مضى وقت وأنا أحاول أن أسترجع عافيتي، كانت همومي أنا الآخر كثيرة وكبيرة، لكنني على الأقل، لم أكن فاقد الأمل بعد. تنبهت، شخص على الباب يستأذن بالدخول، قبل أن أتكلم، فتح الباب بتؤدة، وطل وجه فتاة شابة، كان جميلاً رغم جديته، محاطاً بشعر أسود قصير ثائر. رفعت رأسي ونظرت حولي كأنني أحاول أن أعود إلى المكان والزمان، وآذن لهذا الوجه المتأمل والآمل بالدخول. لم تنتظر ذاكرتي لتمتلئ بها، دخلت وهي تتساءل:

: عفواً.. أليس هذا مكتب الدكتور خالد؟

هززت رأسي موافقاً، قالت:

: أنا عائدة العمر.. لقد استدعيت إلى هنا.

استوقفتني لهجتها التي تشبه لهجة هاني، قمت من فوري ماداً لها يدي وبابتسامة ودودة أرحب بها قائلاً:

: أهلاً عائدة.. دكتور سامي شرف الدين..ألم تعرفيني.

: وجدتك تتظاهر بأنك لا تعرفني فوافقتك.

: الحقيقة أنني لم أعرفك، تغيرت في السنوات الماضية لا أعرف إن كانت ثلاثاً أو أربع لم أعد أذكر، لقد كبرت فعلاً.

سحبت يدها وأزاحت رأسها بعيداً عن يدي الأخرى التي لامست شعرها القصير كما كنت أفعل وهي طفلة. جفلت وقلت:

: في البداية شعرك القصير هو الذي ضللني، لكن في هذه الدقائق كل ما فيك يضللني، لست أنت من عرفتها، تفضلي.

قالت بخشونة:

: كل صغير يكبر يا دكتور، كلما كبرنا ألزمتنا الحياة بأمور تحتاج جهداً ووقتاً، فلا وقت لتدليل الشعر وتطويله، هناك أمور بالفعل أهم. خير يا دكتور تفضل، أهي أمي؟

: دائماً تتحدثين عن أمك بشكل يفجعني. لقد رجتني أن أراك وأحاول إقناعك بزيارتها فهل هذا كثير؟ أنت هنا وحيدة وصغيرة، الحياة دون من يهمهم أمرنا لا تؤتمن.

: أرجوك أن تبلغها بأنني لست وحيدة فقد تزوجت حسن، الرجل رفضت حتى مقابلته بكل تعنت.

صرخت دون تدبر:
: تزوجت دون رغبتها وعلمها..كيف؟
: هكذا ..كما تزوجت هي دون رغبتي.
: أعتقد أنك من بحاجة لوصاية لا هي. والدك توفى.
: أبي لم يمت بل استشهد. ثم إنها تزوجت من شخص غير مرغوب فيه. سبب الكثير من الألم لنا قبل موت أبي وبعد موته.
: على كل حال سأخبرها. مع أي تنظيم زوجك. بالمناسبة كل هذه التنظيمات ستحل بعد اتفاقات السلام النهائية. أمور خطيرة تحدث، لا يمكن التكهن بنهايتها، ربما كنتم كبش الفداء.
: نحن من سيكتب النهاية.
: نحن!..من تعنين؟
: نحن أصحاب القضية.
تأملت هذه الثورية الواقعة تحت تأثير شعارات أشك كثيراً في إنها تفهمها أو تقدر عليها. لم أرها شابة تعدت العشرين بقليل، بل إنسانة مهمومة بهموم أكبر من عمرها، تحمل عبء سنوات الضنك التي مرت على شعبها ووطنها.
مدت يدها مودعة قبل أن ينتهي حوارنا، كانت يدها قوية كمن تلقت تدريباً جدياً على حمل السلاح واستعماله. تلاقت نظراتنا فسرت رعدة غريبة في بدني. ظننتها من المقارنة السريعة التي جرت في رأسي بيني وبينها، أو بين هاني وبينها. قلت لأستبقيها:
: أرجو ألا تكوني في الجانب الخطأ.
: كلنا على صواب. القضية لها رؤى جديدة في أعين الشباب في كل الجبهات، قد تصلح ما أفسده الكبار أمثالك مثلاً.
: ماذا تعنين بأمثالي يا صغيرتي؟
: أعني المتأمركين الذين يرون حياتهم بما يكتنفها من نجاح أكاديمي، وبيت سعيد، وقضاء عطل الأسبوع في بلاد العجائب، وعطلة سنوية ربما على يخوت في إحدى الجزر، تستحق أن يمدوا أيديهم طلباً للأمان.
: كنت أظن أنك تعرفينني أكثر من ذلك، هل من الممكن أن تجمعني صداقة متينة بأبيك وأكون فاقد الحس الوطني كلياً؟

: التخلي عن واجبات أساسية لا يعني لي سوى فقدان الحس الوطني، سواء أكان كليا أو جزئياً.

: هذا جزاء سنمار، وافقت على حمل رسالة أمك إليك لمحاولة إنقاذك، أردت أن أشجعك على اختيار بلد ما لتكملي دراستك وتكونين في أمان.

: هذا رأي أمي. ما رأيك أنت؟

: أؤيد رأيها، حياة المرء مراحل، عليه القيام بها على أكمل وجه. في هذه المرحلة عليك الحافظة على سلامتك وإتمام دراستك، بعدها تصبحين أقدر وأنفع.

تبسمت ساخرة:

: هل سلامة فرد مهمة إلى هذا الحد؟ ماذا عن شعب حكم عليه بالقتل الجماعي؟

: من زرع هذه الأفكار المسعورة في رأسك؟ يبدو أن عليّ إخراجك من هنا بالقوة.

رأيتها تنظر إليّ بفم فاغر وعينين جاحظتين تكادان تقفزان من محجريهما. صاحت:

: كيف ستقدر على ذلك؟ هل أنت أبي مثلاً؟

رأيت نفسي مساقاً لغضب لم يكن في حسباني فقلت:

: هل تريدين الحق؟ الآن وفي هذه اللحظة أشكر الله على أنك لست ابنتي.

استدارت بعنف وكبرياء فتحت الباب وقالت قبل أن تخرج:

: هل من أوامر أخرى منها؟ إذا رأيتها بلغها أن تنسى وتتفرغ لحياتها، لعلها تصيب النجاح الذي لم تستطعه مع أبي.

: بالمناسبة لقد وصلت منذ أيام وما زلت أقضي معظم وقتي ملاصقاً لأمي يا صغيرتي وأنا في هذا العمر، فتعلمي..

: بلغ أمي بأنني أرفض عروضها وأموالها ومحبتها أيضاً.

في هذه المرة لم تغب عن مخيلتي كالمرات السابقة. وقعت في نفسي موقعاً غريباً، موقعاً لم أعرف بأنه شاغر. لم أنس انفعالها، غضبها، إحساسها بنفسها وبقضيتها، لم يغب عن بالي شكلها المميز المعتد. كانت طفلة كبيرة أو امرأة صغيرة، كانت في كل أحوالها مناضلة ملتزمة. اندفاعها، تلقائيتها، صراحتها، الطريقة غير المتكلفة التي تتكلم بها، كل ذلك يجبرك على احترامها.

سنوات مرت وأنا بعيد لكنها قريبة مني، ملتصقة بأفكاري، ساكن طيفها فيّ، غزالة برية شاردة، كلما سهوت أيقظتني. منحني حيوية غريبة فأحسست بقيمة الوجود. صرت أهفو لعنفوان الحياة الذي كان يتألق بعينيها، أتوسل له أن يدب من جديد في جسدي وإحساسي بعد أن جنحت منحنى آخر. عمر طويل مضى وأحاسيسي بعيدة جداً عني، تنمو وتعرش حول قضايا عامة مهمة، لم تعد تعطيني بقدر ما تأخذ مني.

أزاحت غيوماً كثيفة ومزمنة من تاريخي، لعلها ذكرتني بهاني. رأيت في عينيه الشعلة ذاتها مذ كنا صغاراً. عنفوان كبير بقدر ما يسعد صاحبه يشقي كل من حوله، نزعة اعتبرها أهلها كما اعتبرها أهلي وقتها أمراً مهلكاً، وسبباً للقضاء على المستقبل.

اكتشفت بعد فوات الأوان روعتها، نزعة خاصة جداً، تحفز صاحبها على التمسك بإنسانيته مهما كانت الظروف. الإنسان الحقيقي وحده يرى بوضوح نخر النفوس والحقد الأسود.

مرت عليّ أيام وليال طويلة أستعيد بها تاريخي كله، بصدق وبأمانة، فأحس بمدى احتياجي لمشاركة فعلية في حياتي. أحس بعائدة، وكأنها النصف الآخر الذي عشت محروماً منه. كنت أبعدها عن تفكيري ساخراً مستكثراً مثل هذا الشعور على كهل مثلي.

كم تمنيت بين حين وحين محادثتها، سماع صوتها، فأردع نفسي بقسوة. حين ألتقي أمها وزوجها، أتجاهل حديثهما عنها، كأنني أنفي عن نفسي تهمة الاهتمام بها. خشيت الاعتراف، حتى بيني وبين نفسي بأنها من فتحت أبواباً أغلقت حتى صدأت.

لعله حب خريفي غير مجاز. لكن من يدري السر الكامن وراء نظرة واحدة من عين امرأة، توجه مباشرة إلى عقل رجل

يراها لأول مرة، كم هي كافيـة لأن يقـول هـذه امرأتـي، هـذه المـرأة سيكون لي معها شأن؟

كأن ما حصل منذ سنوات قد حصل بالأمس، عـادت لـذاكرتي الطريقة القاسية التي قذفت بها حرائق قلبها فـي وجهـي. وقتهـا كنـت مذهولاً، مترنحاً من اشتداد الألم في صدري. مع ذلك أدركـت أهميـة ظهورها، فلم تبرح مخيلتي. إلى الآن هي في عقلي وقلبي.

وصلت بيتي أخيراً بعد يوم مضن، توجهت من فوري إلى ركني المفضل، أريكتي العتيدة. كانت ثورة عقلي على أشدها بينما كان جسدي متداعياً متراخياً أمام فيضاني الداخلي، لا سيطرة لي عليه كأنه لغيري. هذه حالي، كلما انصرفت للتفكير أهمد تماماً، أنتظر بفتور أمام غليانه، لا أبدي تعجلاً أو نفاذ صبر.

لا أدري كم مر من الوقت وأنا متكوم فوق الأريكة، طاوياً نفسي كزاوية حادة، أضيقها أكثر فأكثر كلما احتدم العراك بين عقلي والبدائل، لا أفرج عن جسدي حتى تنجلي الأمور في ذهني.

هذه الأريكة الغارقة في سوادها المخملي الناعم عالمي الواسع. حد فاصل بين الصالة الرئيسة في البيت وغرفة مكتبي، العرين كما تسميه دلال، أرقب ما حولي بنصف انتباه، أوهم عائلتي بأنني بينهم وحقيقة الأمر أنني بعيد.

تنتظرني مهما غبت، حضنها يتضاحك، يغريني أن القي نفسي إليه، أداعب وسائدها المتحدية بخطوطها المتنمرة، تتشاكس خطوطها السوداء مع الخطوط البنية فتحفزني على التحدي.

جالت عيناي في أرجاء البيت. سنوات طويلة مضت وأنا أسكن البيت ذاته، تجدد الكثير من الأثاث، تبدلت أمكنته، إلا أريكتي الحبيبة، رفضت وبشدة أي محاولة لتحريكها أو زحزحتها أو تغيير قماشها. الغريب أنني أحس بأي تغيير يطرأ على وضعها حال دخولي إلى البيت، فأعدلها، ربما قبل إلقاء التحية.

إنها شيء خاص، إحساسي بها يشبه حالة الوقوف على الحياد، ففي حالة التفكير كالتي تستولي علي الآن تكون خط تماس مهيب، وعند دخولي مكتبي والشروع في العمل تكون خط دفاع منيع، على الرغم من أن غرفة مكتبي لا باب لها.

مددت جسدي على قدر استطاعتي، تشبثت بحضنها، بصمتي وبجلستي المواربة أرصد المكان. أزفر ألمي وحزني وخوفي فتحتويني أريكتي. عيناي ترصدان غرفة المكتب، تصولان وتجولان بسأم. أشعر بكراهية لكل ما أراه، تستقران فوق أرفف المكتبة المثقلة بحصاد سنين طويلة من الدراسة والتخصصات والمؤلفات والترجمة خاصتي. أتنهد وأتساءل بعجز: أين الحقيقة؟

سمعت دلال تلقي عليّ تحية المساء ثم تجلس في مكانها الدائم وتغوص في مقعدها الأثير، يهزها ويهدهدها، تشاهد التلفاز. صافية الذهن، ألمح ذلك من صفاء بشرتها البيضاء المغرقة في هدوء يلازمها وهي وحيدة. بين حين وآخر تلملم شعرها المتهدل فوق رأسها وتقذفه للخلف فيعود مثل شلال يتدفق بعناد فلا تستسلم له ولا يهادنها.

لا شيء يعكر صفوها، لا قلق، لا قضية، لا هموم، اللهمّ إلا وجودي في حياتها. حين تراني تتذكر مصيبتها في زواج فاشل. لم نعد نتعارك مثل الديوك كما كانت أمي تقول، تهادنا منذ فترة طويلة، منذ مات الحب. إثر كل مشادة كان وجهها يصطبغ بحمرة الغضب، أكاد أجزم بأنني أرى أوردتها وشراييها تنبض تحت البشرة الصافية، وأحس بقرب انفجار شريان في دماغها أو قلبها.

كنت في السابق أخاف عليها فأتراجع بسرعة لأهدئ من روعها مؤجلاً عملية الحوار والإقناع إلى فرصة أخرى، لم أحظ بها قط. مرت السنوات وكرت، لم تعتد على نمط حياتي، ولم أقتنع بدوري، بأن أكون كما تريدني أن أكون، رجلاً عادياً يقوم بمهمة ما في النهار، وما أن يحل الليل حتى يحملها وينطلق بها إلى الملاهي والمطاعم والسهرات الراقصة.

كنت أنظر إليها بعمق، يداها تعملان بأشغال تحبها، كثيراً ما تفخر بأنها قد أتقنتها في مدرسة الراهبات التي تلقت تعليمها فيها. توجه بين حين وآخر تنبيهات بلغة إنكليزية متقنة إلى الصغيرين هالة وهاني، لكن سرعان ما تدللهما بالفرنسية الرقيقة الناعمة، تساعدهما فيما يلهوان به، أوراق ملونه أشكالاً متعددة، يقصونها ويلصقونها فوق قطعة ورق مقوى.

الحظ لهفتها على أي إشارة تبدر مني تنبئ عن خروجي عن صمتي وهدوئي لتستجوبني. التقت عيناي عينيها سألتني:

: أين أنت؟ أهو كتاب جديد؟

هززت رأسي نافياً.

: ما رأيك بفنجان قهوة يعدل مزاجك؟

ابتسمت موافقاً. سألت:

: دون سكر أو حليب؟
نظرت دهشاً، تضاحكت قائلة:
: طبعاً أعرف بأنه سؤال سخيف، أردت كسر صمتك، لم افلح كما ترى.
قلت محاولاً الاستظراف بدوري:
: كالعادة، ملتهبة وسوداء كأيامنا التي نعيشها.
لم تعلق، خفت إلى المطبخ وهي ترمقني بنظرة تشهدني على مدى صبرها وتفهمها لانشغالي.
تأليف كتاب جديد، تحضير مقالة أو محاضرة مهمات اعتدت عليها بصفتها أساس عملي لكن ما بي أمرّ وأصعب. مرض أمي يؤلمني، الخوف عليها يزداد كل يوم. آه أمي، لا أعرف كيف سأصمد أمام هذا الابتلاء العظيم، توقع الفقد أمر جلل. دائماً أتخيلها أكبر من المرض، بل أكبر من الموت ذاته.
قفزت المشكلة الأخرى إلى ذهني، اختلطت الأمور ببعضها، تطرح من جديد، بأسلوب جديد، ورأي جديد. وسؤال ملح: ماذا يريدون مني؟ أمي غريبة على فراش الموت فلا يقدرون عذري؟
أحاول فهم ما يدور برؤية جديدة. عالم مجنون، تروج له دولة عشت في كنفها سنوات طويلة، تجنست بجنسيتها وتكلمت كثيراً بمنطقها وبلسانها. قفز لخيالي الدكتور عيسى، لا أحد يساعدني غيره، فهو أستاذي وصديقي. تذكرت مصيبة أخرى، لقد استقال من كل مناصبه قبل بداية العطلة، أراد التفرغ التام للتأليف البقية الباقية من أيام عمره ...
فجأة تذكرت تحذير سير دونالد لي من زيارته، راودني سؤال مذهل: هل الرغبة في التفرغ للتأليف هي السبب الحقيقي أم هناك شيء آخر؟
يا إلهي! كيف غاب عني ذلك؟ الشيء الآخر! إن كان الآن بدأ يغزو رأسي ويهدم أفكاري فهو قد عاش عمره كله مؤمناً به ويعمل من أجله. فهل تنحى عن كل مهماته باختياره؟
أغمضت عيني إجلالاً وإكباراً له، لقد علّمنا الكثير. حين فتحتهما كانت قهوتي أمامي ودلال واقفة تنظر إليّ بفضول.

: تريدين معرفة السبب وراء طلب سميحة رؤيتي؟
: صحيح ماذا تريد؟ هل من مشكلة؟
لم أكن أعرف الكثير، لخصت لها ما أعرفه، أردت إخبارها رغبة الطبيب، باصطحاب الفتاة بعيداً عن المستشفى خلال عطلة رأس السنة. توثبت.. ومع ذلك أكملت الحكاية. قلت:
: بما أنها لا تريد أن ترى أمها، من المنطقي ألا ترغب بقضاء العطلة معها. سنستضيفها بضعة أيام...
قاطعتني صارخة:
: لم تأخذ رأيي كان لا بد..
: لقد انتهى الأمر لا بد من حضورها بضعة أيام.
صباح آخر مثقل بالبرد والخوف. أنهى الطبيب حقن العلاج الكيماوي في وريد أمي. كنت بجانبها ممسكاً بيدها أشجعها بينما أتمزق لمعاناتها. شدّت على يدي بقوة، كفها رطب مرتجف، عيناها تغربان نحو البعيد رغماً عنها، أحسست بتشبثها بوجودها بيننا. نظرت نحو الطبيب هلعاً مما اعتراها من تعرق واصفرار، هز رأسه بأنه أمر عادي. ربت على يديّها لأشعرها بالاطمئنان، لم تفتح عينيها. همست:
: لا تتركني فأنا خائفة.
ضممتها إلى صدري فلاذت بي كطفلة تستجير. انفطر قلبي، ليس في الدنيا شيء أقسى من المرض، يذل الإنسان يفقده اعتزازه بنفسه. دموع تدفقت رغماً عني فوق رأسها المتشبث بصدري. كنت أبكي ضعفها، والذعر الساكن مقلتيها، وقلة حيلتي أمام هذا كله.
طالما كانت قوية صامدة، تحتوي أي مشكلة مهما عظمت بصبر وأناة. سنوات طويلة رعت فيها أبي المشلول إثر إصابة عموده الفقري برصاص قناص أيام النكبة. لم أسمع منها تذمراً أو كللاً ولم اسمع منه شكوى من أي تقصير.
ها هي أمامي الآن، واهنة تتحطم يوماً بعد يوم. تصارع الموت، لعله لا يقدر على انتزاعها مني. لكن ثوان وعاد المنطق، الموت آت، تموت ببطء، لكن في النهاية سيغلبنا.

ضممتها بقوة أكبر، كنت أنا المتشبث بوجودها هذه المرة وليست هي. لن يخطر على بال مخلوق غير الأم، كيف ردت على خوفي وهلعي حين أحست بما يعتريني، فتحت عينيها، ابتسمت مكابرة وقالت:

: أنا الآن بخير يا حبيبي يمكنك الذهاب، أمينة معي.

قلت كأنني بالفعل هادئ البال مطمئن على حالها:

: سأذهب لإحضار ضيفة تحبينها كثيراً. خمني من هي؟

اكتفت بهز رأسها متسائلة. قلت:

: ابنة سالم صديقنا.

: الله يرحمه.

لحقت بي أمينة متسائلة:

: سامي ماذا عن هاني إنها تطلبه كل الوقت.

: سيصلنا الجواب خلال أيام.

: حسناً.. هل ستسافر أم قبلوا عذرك.

: لن أسافر مهما حصل.

: حتى وإن ظهر هاني.

: وإن ظهر هاني، لا يمكنني تركها وهي على هذه الحال.

حين وصلت إلى المستشفى كانت عائدة تقوم بإجراءات الخروج من المستشفى، ابتسمت مرحبة وناولتني الأوراق للتوقيع عليها تضاحكت قائلة:

: استلم العهدة.

أجبت بآلية:

: ستكونين بعيوننا.

انطلقنا في طريق العودة صامتين، نفسي مضطربة من الحالة التي تركت أمي عليها فلم أجد الرغبة في الحديث. قالت تبدد الصمت:

: هل حصل مشاكل في البيت بسبب حضوري.

: أبداً، ستتعرفين اليوم على صديقين جديدين هاني وهالة.

: أرى أنك سميت ابنك على اسم أخيك، الحقيقة إنه كان..

: لماذا تقولين كان؟ هل تعرفين شيئاً عنه لا أعرفه أنا؟ أرجوك أخبريني، أمي لا تكف عن طلبه، ولا أكف عن وعدها بأنها ستراه في أقرب وقت.

هزت رأسها نافية. قلت:

: أمي حالتها تزداد سوءاً وأنا أقف مكتوف اليدين أنتظر.

خيم صمت حزين بيننا، ربما كان لكل منا سبب يخصه، لكنه بدا معيباً وأنا أصطحبها لتكون في ضيافتي. حين وصلنا إلى البيت قلت لها ممازحاً:

: الآن أنت في ضيافتنا، يقولون الضيف أسير المضيف. يعني لن يتم الإفراج عنك إلا حين أريد أنا.

: لكنني لست صديقة لزوجتك، ألا يضايقها أن تدخل عليها بضيفة لا تستلطفها؟

فتحت الباب ودخلت قبلها لأفسح لها الطريق. كانت دلال جالسة في الصالة تشاهد التلفزيون، التفتت نحونا وهزت رأسها بسلام فاتر، لم تتحرك من مكانها، لم توجه تحية خاصة لضيفتها. ارتبك الجو قليلاً، كل منا يحدق في الآخر. تداركت عائدة الموقف وقال بمرح متكلف:

: آسفة للإزعاج، الدكتور سامي يغمرني بكرمه دائماً ويستضيفني حين أكون غريبة.

قاطعتها دلال دون حماسة:

: هاني وهالة يستعدان للنوم، ستنامين في غرفتي.

سبقتها نحو غرفة نومنا، عائدة وراءها تبتسم لتبدد المشهد العسكري الصارم، ولا تخفي دهشتها من برودة اللقاء. قالت:

: إذا كنت ذاهباً إلى المستشفى انتظرني سأرافقك.

وجدت نفسي أرد عليها بابتسامة ودودة، فقد خيل إليّ أنني المح في عينيها نظرة خاصة، شيء من حنان أمّ أو أخت أو حبيبة تدرك مقدار شقاء إنسان يخصها.

كان لتلك النظرة في النفس المتعبة من كل شيء فعل عجيب، أرضتني، وجعلتني أتقبل الموقف ببساطة. ألقيت بجسدي المنهك فوق الأريكة الكبيرة. شيئاً فشيئاً فردت جسدي وتمددت فوقها.

شعرت بنبض كل عضلة وكل مفصل في جسمي. أرخيت عضلات جسدي المشدودة طوال النهار فلم استرح، كأنني غريب في بيتي.

كنت بانتظار عودة دلال، لا بد أن تعود، فهي لا تمرر أي أمر بسهولة دون أن تسأل أو تشاكل. اعتدلت وخففت بعض ملابسي وخلعت حذائي وعدت للاستلقاء من جديد. قررت عدم الذهاب للمستشفى هذه الليلة، فقد كان يومي طويلاً مجهداً. شعرت بالألم الذي ينتابني كلما توترت، كان يدور في أنحاء جسدي، ويستقر في رأسي عند الصدغين وفي صدري، مطارق من حديد تدق بعنف لا يرحم.

هذا الألم لا يعودني إلا في هذا البيت مع هذه المرأة، رغم الأحداث المروعة التي أعيشها بعيداً عنها لم يصل إلى هذه الدرجة من القسوة. تناولت حبوباً مسكنة وبعدها مهدئة وهجعت في هدوء بانتظار أن تخف حدته.

خدر تسلل إلى رأسي استسلمت له. صوت دلال يلاحقني، يطاردني، وأنا أهرب، أهرب للبعيد، من متاهة إلى أخرى. أتعذب، أحس به أقرب، ينغص عليّ هدوء نفسي، يزيد من صداعي، حاولت الهروب بجدية أكثر، لم أستطع، كأن قدميّ سمرتا في أرض إسمنتية ساخنة. في اللاوعي أتمنى أن أختفي عن هذا العالم، أن لا تجدني فتنكد عليّ حياتي كما تفعل.

يد تهزني بعنف وصوت يعلو ويزداد حدة، فتحت عينيّ كانت بجانبي فعلاً، ترتجف والغضب يملأ وجهها ويسيطر على حركاتها. جلست استعداداً لسماع موشحها الرسمي.

: تعرف أنني لا أحبها.

: نعم أعرف. وأعرف أنه ليس شعورا شخصياً تجاهها.

: كيف ذلك؟ هل تعتبرها مثلاً جزء منك لتتأكد بأنها في المكان ذاته حيث أنت؟

: لا..لكنني على يقين بأنك لا تحبين أحداً، لا تعرفين كيف تحبين ولديك.

: توصلت لهذه النتيجة لتريح نفسك؟

: يجوز.. أحياناً نعيش الكثير من ظروف حياتنا رغماً عنا كشر لا بد منه.

صمتت فترة، أحسست بها تحاول تهدئة نفسها، كأنها لاحظت لهجتها العدائية تجاهي دون سبب، دون تقدير لظروفي. لم أصدق صمتها، أعرف أنها ستعاود الهجوم.

لم تكن لتصدق بأنها انتهت من نفسي وقلبي، وإن ما قلته لها منذ قليل، بأن حياتنا معاً شر لابد منه، كان التعبير الأمثل لشعوري تجاهها، رغم أنني قلته بشكل عفوي وتلقائي.

: أهذا كل ما تقوله لي بعد كل هذه العمر؟

: هذا أقل ما يقال لما تبدينه تجاه أي ألم يصيبني، حتى مرض أمي لم تقومي بزيارة أو سؤال.

: يبدو أنه لا فائدة ترجى من علاقة منتهية. أنت مشغول عنا بأي شيء، على كل، أنت منذ زمن أب لهالة ولهاني فقط.

: إذا كان هذا بقي لنا، فلم لا ننفصل ونخلص من العذاب؟

: ليس الآن. لم تنته مهمتنا بعد، مصلحة الصغيرين أهم.

شعرت بسخرية مريرة من القدر، لقد سخّر هذه المرأة لتلعب دور الجلاد في حياتي، تلوح بسوطها في وجهي كلما أقبلت على الحياة، تؤكد لي بأنني لا شيء، أو أنني شيء لزوم شيء. دون قصد فتح ملفات سابقة قلت:

: يبدو أنني ليس أكثر من وسيلة لديك. ذات يوم خاب ظنك فيّ، وفي ذروة اعتقادي أن مصير علاقتنا إلى الفراق فاجأتني برغبتك في الإنجاب. هل تذكرين؟

: لماذا فاجأتك. أليس الزواج يعني أسرة، يعني أطفال؟..

: لم أكن أظن أنك تريدين أطفالاً من زوج لا تحبينه ولا تحترمينه. كان علينا أن نتفاهم على أمور كثيرة قبل الإنجاب.

: لماذا تعيد الماضي؟ ما حصل قد حصل.

: لأنك تحملينني وزر أخطائك. تلزمينني الآن بأن أتناسى نفسي واحتياجاتي، كرجل وكإنسان، وأكون أباً فقط، ألزمتني بأن أكون ممولاً. يومها أخبرتك أن الإنجاب لن يغير شيء، أنا بحاجة إلى حبيبة قبل الزوجة.

: ستبقى مراهقاً مهما كبرت وتعلمت. تريد الحب والمشاعر، هذه أشياء لا تنشئ بيتاً وتربي أطفالاً. مستقبل هاني وهالة أهم من كل هذه التفاهات.

: هل هذا يعني بأنه من حقي أن..

: لا تكمل.. حياتك الخاصة لا تهمني أبداً.

قامت من مجلسها بعنف، التفت نحوي قبل أن تدخل غرفتها وصرخت:

: إذا كنت راغباً بالذهاب إلى المستشفى فافعل ولا تنتظر ضيفتك فقد نامت.

تمليتها عن بعد، امرأة جميلة بكل المقاييس، وزوجة فاشلة بكل المقاييس أيضاً. منذ متى لم تعد تحرك قلبي ولا روحي؟ تمثال متقن الصنع بلا روح.

في غرفة هاني، ابني سمي أخي، رقدت على الأريكة مقابل سريره، كنت أنظر إلى وجهه الجميل النائم بسعادة تامة، أردد اسمه في سري مرات ومرات، فقد كان يعني الكثير. يعني أنا الغد، كما يعني أخي هاني الأمس الغائب الحاضر أبداً. كنت أرجو أن يكون شبيهاً به فعلاً وليس بالشكل كما يبدو الآن. هو وأخته كانا التعويض عن زواج فاشل، دون سعادة دون راحة.

إنه اليوم الأخير من سنة هاربة منا أو ربما نحن الهاربون. صحوت من نومي المتقطع المزعج باكراً كعادتي، تركت سريري وأنا أشعر بثقل قاتل في رأسي وضيق في صدري. توجهت نحو المطبخ لأعد فنجان قهوتي الصباحي. كانت عائدة هناك تحتسي قهوتها. بدا وجهها شاحباً كأنها لم تنم، تبسمت قائلة:

: صباح الخير..هل تردون التحية بأحسن منها.

رددت تحيتها دون تعليق، سألت:

: أتريد قهوة، ها هو فنجان نظيف بقربك.

: لا أطيق معها سكر أو أي إضافات. سأحضرها بنفسي.

: هي كذلك، فأنا أعرف تماماً طعم الغربة والوحدة و..الشقاء.

ملأت فنجاني ببطء، عيناها مباشرة في عينيّ، أمسكت بيدها أوقفها عن الاستمرار في دلق السائل الساخن خارج الفنجان.

جلست أحتسي قهوتي بصمت. أتأمل الصدف التي تجمعني بهذه المرأة كلما نضبت روحي، وفقدت الرغبة بالاستمرار.

: ألا تقول شيئاً؟

: آسف. أرتب أفكاري، عليّ إنجاز الكثير من الأعمال اليوم.

: لم تنم ليلة أمس جيداً، بدا ذلك بوضوح في الفوضى التي تعم مكتبك، الكراسات الملونة منثورة هنا وهناك أغرتني بتصفحها. لا بد وأنك لعنت الضيفة الثقيلة التي شغلت مكانك.

تفحصتها بنظراتي، أين يكمن سرك يا فتاة؟ قالت:

: أقصد أن تغيير مكان النوم صعب على بعض الناس.

: لا عليك فمنذ زمن طويل لم أعد أنام بشكل اعتيادي ومنتظم. لم يعد الأمر يزعجني.

: هل تعني منذ مرض الوالدة؟

: لا قبل ذلك، لعل الأمر يتعلق غالباً براحة الضمير.

: ماذا اسمع.. فأنت الضمير بعينه، هذا على ذمة هاني.

: لم يعد شيء كهذا بيدنا، فإن أطعنا ما تمليه علينا ضمائرنا نبذنا ممن حولنا، ربما اتهمنا بالمرض النفسي أو التخلف أو عدم القدرة على التواؤم. وإن تماشينا مع السائد تعبت نفوسنا. كما ترين سيدتي..لا مفر.

: يا إلهي.. هذا هو الإحساس الذي يغمرني ويعذبني. كيف لنا الهروب من مثل تلك الأحاسيس التي أصبحت برخص التراب؟.

طفحت عيناها بدموع غزيرة فجأة، دفعت رأسها للخلف لتتراجع دموعها المتجمعة في المقلتين. لا أعرف متى دخلت دلال، لكن لهاثها المتقطع نبهني لوجودها. دهشت لتركها الفراش في هذا الوقت المبكر على غير عادتها. قالت بسرعة:

: ما بها عائدة..سبحان الله لا تقول كلمة طيبة تفرح القلب.

التفتت نحو عائدة قائلة:

: هذا الرجل خلق نكدياً، لا تقربيه فحزنه معدي.

رددت بيأس:

: يا فتاح يا عليم..حتى الآن لم أصدق بأنك استطعت ترك فراشك بمثل هذا الوقت المبكر، فكيف لي ألا أفجع بأنك بكامل قدرتك على الانتقاد اللاذع؟.

وجهت كلامي لعائدة قائلاً:

: على كل حال سأذهب للمستشفى لزيارة أمي وبعد ذهاب أمينة للمطار سأعود وأصطحبك لزيارة أمي.

قالت عائدة:

: كنت أتمنى رؤية أمينة قبل السفر.

ردت دلال:

: أمامها رحلة سفر طويلة فمن الضروري أن تكون بين عائلتها لتحتفل معهم ببداية السنة. كما تعلمين، زوجها مسيحي.

قالت عائدة:

: لم يعد مثل هذه الاحتفالات خاصة بفئة دون غيرها، ها أنتم محتفلون أيضاً. شجرة وأضواء وهدايا. إذا قدر لهاني رؤية هذه الاستعدادات في بيتكم سيضرب كفاً بكف قائلاً ألم أقل لكم؟ وضحت الرؤية وتأمرك عالمنا.

قالت دلال:

: لسنا من عالمه. ثم أنني معتادة على هذا الاحتفال منذ صغري، لقد تلقيت تعليمي بمدارس الفرير؟

قالت عائدة بأسى:

: هذا ما كان يعنيه تماماً، بداية القشور والنهاية سقوط الجوهر.
أدرك معنى غزو هذه الظواهر لمجتمعنا، في الصحف والكتب، الإذاعات والتلفزيونات، في لهجاتنا الهجين.
: كثيرا ما رأيته في بيت أخته يحتفل معهم بالأعياد، كان على يقين بأن زوج أمينة على الرغم من إشهاره الإسلام بقي مسيحياً حتى العظم، حتى ولديهما لم..
تركتهما في المطبخ وأنا أرجو من أعماقي لعائدة ألا تطولها شذرات تؤذيها.

وصلت إلى المستشفى، كانت أمينة بانتظار وصولي لتغادر إلى المطار. أمي جالسة فوق السرير متجهمة، تحاول إحدى الممرضات مساعدتها على تناول فطورها. دسست راسي في فتحة الباب الضيقة وألقيت تحية الصباح، انفجرت أمي بالبكاء. ومن نشيجها قالت:

: أريد العودة مع أمينة، لا أطيق البقاء هنا بعد سفرها. لا أفهم لغتهم ولا أتحمل العلاج وحدي. سامي دعني أذهب معها.

قلت مواسياً:

: أمينة مسافرة من أجل إعداد البيت لعودتك، لن تكوني وحدك أعدك.

: أعرف بأني أتعبك كثيراً، لو كان هاني هنا لساعدك ولكنك لا تريده أن يحضر إليّ.

: كم أنا فرح بهذا الحماس للعودة. أعدك، عشرة أيام أو ربما أسبوعين ونلحق بها. سيكون هاني بانتظارك في البيت.

بكت كثيراً ومجدداً بعد مغادرة أمينة إلى المطار، خفت الممرضة لمساعدتي في تهدئتها وهي تقول هامسة "إنها مكتئبة وهذا طبيعي أثناء فترة العلاج" غابت قليلاً وعادت وقد أحضرت لها حقنة مهدئة فنامت على الفور.

أنجزت بعض الأعمال، ثم عدت إلى البيت لإحضار عائدة. ما أن سمعت صوت سيارتي حتى اندفعت نحوي وحقيبتها بكتفها. ردت على دهشتي:

: سأبقى في المستشفى بدل أمينة. هل تمانع؟

هززت رأسي نافياً وقد أشرقت ابتسامة كبيرة على وجهي. ربما ظنت دلال أنها بسبب مرافقتي لعائدة، ربما ظنت عائدة أنها مجرد مجاملة وتشجيع، وحدي أعرف سببها الحقيقي. فظهور إنسان حقيقي يتحدى التغيرات، نبتة خضراء تطل برأسها رغم التصحر، شيء لا يستهان به.

دخلت غرفة أمي وحدي، كانت هادئة، زحفت ابتسامتها الضعيفة إلى شفتيها، احتضنتها وقبلتها.. التفت نحو باب الغرفة فتابعت نظرتي، في تلك اللحظة دخلت عائدة. وقفت حائرة في

منتصف الغرفة تنظر حولها. لم يبدو على أمي أنها عرفت القادمة لزيارتها. قلت بحركة تمثيلية للتعارف بينهما:

: عائدة ابنة سالم يا أمي، وهذا الملاك أمي.

سمعت أمي تهلل فرحة:

: أهلاً يا ابنتي.. مرّ زمن طويل منذ رأيتك آخر مرة.

قالت عائدة وهي تتقدم وتحتضنها:

: آسفة للمرض الذي ألم بك يا خالتي. إن شاء الله ستشفين، وستعودين كما كنت، تطبخين لنا أكلاتك الرائعة.

: أنا على رأي سامي مريضة وأمر الله، لكن أنت ما أصابك؟ تعالي إلى حضني ولا تنسي مناداتي كما كنت تفعلين حين تحضرين مع هاني.

: سقا الله تلك الأيام. كنت مريضة أيضاً يا ماما.

تعانقتا.. كانت أمي تبعدها وتتملى وجهها برهة ثم تعيدها إلى صدرها. في عينيها السؤال ذاته أين هاني؟ فهمت عائدة فارتبكت، شعرت بحيرتها، عذاب قاهر سيطر عليها، تحاول التغلب عليه بكل قواها. التصقت أكثر بأمي وضمتها ومازحتها، بأنهما ستقضيا الليلة تتحدثان عن هاني.

قالت عائدة قبل أن أغادرهما:

: لقد عبثت قليلاً بأوراقك فعذراً.

بقيت صامتاً، ظننتني لم أفهم فهمست:

: على الرغم من كوني إنسانة غير فضولية إلا أن دفترك الأسود آثار فضولي. عذراً مرة أخرى.

مددت يدي أربت خدها، على الرغم من مرور السنين، على الرغم من كل هذا التغيير الذي طرأ عليها وجعلها تبدو أكبر من سنها، إلا أنني أراها تلك الشابة الخجولة الخائفة.

السكون حولي كما في نفسي، لا أعرف من جلب الآخر. أسلمت نفسي له بكليتي، استرخيت كحصان هرم شد إلى عربة صدئة دهراً ثم جاءه العفو.

نبشت بين أوراقي لأرى ذاك الشيء الذي حرك فضول امرأة غير فضولية. وجدت علامات بجانب بعض قصائد شعرية بالإنكليزية عن الوطن والغربة والحنين. بعض صور فوتوغرافية قديمة لأفراد عائلتي، وواحدة لها، انتزعت من تحت زجاج طاولة المكتب وبعثرت. دفتري الأسود مطبق على علاّمة الصفحات الورقية. هل قرأت ما كتبته ذات يوم عن امرأة مرت بحياتي مثل الإعصار، اقتلعتني وزرعتني من جديد في أصص الحياة الحقيقية فبعثت فيها الروح التي انتزعتها امرأة مثلها قبل سنوات.

: الساعة التاسعة، ألن تستعد للذهاب إلى الحفل؟

جفلت من صوتها كأنني نسيت وجودها في حياتي. قلت:

: ماذا عنك؟

: لا أريد الذهاب.

: عيسى أصرّ على أن

: هو بالذات لا أحبه، لا يهمني إصراره.

: ألم تملي تلك اللعبة بعد؟ كل مرة تقولين لا أريد الذهاب ثم تستوقفينني في اللحظة الأخيرة لتستعدي، أو تفاجئينا بحضورك.

لم ترد، تركتني وابتعدت. مهمة هذه المرأة في حياتي تنغيص أيامي ولياليّ. راودتني رغبة في صرخة مدوية، كبتها فانفجرت بداخلي بشكل موجع. همست ضجراً لقد مللت. إلى متى أتحمل أنصاف الحلول؟ عقلي بحاجة لمن يفهمه، وقلبي لمن يحييه، والبيت لحب يدفئ برودة جدرانه الإسمنتية. آه.. إلى متى؟

لكن لماذا الآن؟

قفزت من مكاني، أحوم حول نفسي في أرجاء الغرفة، داخلي مشتعل، مثل قارورة مولوتوف ستنفجر وتدمر كل شيء. تذكرت ما قالته الممرضة أنها تعاني اكتئاباً من جرعات العلاج ومن الخوف من المرض. كنت مثلها، خائفاً قلقاً أنتظر الخطر الذي يهدد حياتها.

جو بيتي الخانق يزيد من صعوبة تحملي، استدعي النسمة الرقيقة التي تهفو إلي، سواء اقتربت أو ابتعدت تلوح لي بطمأنينة أحتاجها.

ألقيت بدفتري الأسود من يدي، خشيت إن عرفت الذي قرأته عائدة في أواقي أن أكتشف أن ظهورها بجانبي وقربي أكثر من أي وقت مضى السبب في نفاد صبري. شعرت بضيق في صدري، ثقل تنفسي، هرعت إلى النافذة وفتحتها فجاءني الهواء النقي صقيعاً، تراجعت وأسناني تصطك من البرد. قالت دلال:

: ليلة رأس السنة تثلج دائماً.

: البياض غمر كل شيء، جعلني أرتجف. الرياح تصفر بشكل نعي مزعج. الأشجار تحتمي من الخوف الكاسح بشرائط الأنوار الملونة لعلها تدفئها أوتسعدها.

: ما يدريك، لعلها ترتجف من الفرحة. الثلوج البيضاء في وضح النهار تنساب برشاقة مثل طرحة عروس نزقة.

معها كل الحق، فهي المتفرغة طوال فترة غيابي، مرابطة أمام نافذتها في الدور العاشر. تطل من علّ على الشارع الأهم في المدينة الكبيرة المبتهجة. اعتقد أنها تمارس الاسترخاء والكسل ريثما أعود، فتدب بها حيوية غريبة تدهش إنسان مثلي مستنزف لعدة ساعات بين قاعات المحاضرات والإدارات. اعتدت كثيراً ألا أسمع وبالتالي لا أرد فتسكت. لا أعرف إن كانت تسكت منتصرة أو مغلوبة على أمرها فقد أصبح رضاها آخر همومي. أيها العالم القادم بجنون.. كل ما عرفناه وتعلمناه بل وعشناه وهم في وهم..كالحياة ذاتها.

ما زالت بمكانها تقلب محطات التلفزيون بعصبية. قلت:

: هيا قرري، الشوارع مزدحمة والثلوج تغلق الطرقات. على كل حال لسنا في عجلة.

غصت في أريكتي من جديد. مخيلتي ممتلئة بالدكتور عيسى أستاذي وصديقي. يا لصداقتنا العميقة، لم تفصمها خلافاتنا الجدية حول قضيتنا القديمة الجديدة.

تذكرت لقاء مميزاً أزال بيننا الحدود التي فرضها وضعه كأستاذ مشرف على رسالة تخرجي، واستمرت بطابعها ذاته بعد عملنا معاً في التدريس الجامعي والاختصاص ذاته.

كنت أقوم بتقديم برنامج تلفزيوني تعده وتختار ضيوفه جهات عليا. أدير مناظرة بين الأطراف ترمي لترويج مفاوضات السلام التي بدأت سرية في ذلك الوقت. كانوا يختارون الحضور من دعاة السلام والمناهضين له، عرب ويهود، من الأكاديميين والمثقفين.

وجدت نفسي وجهاً لوجه معه، أستاذي وزميلي، الدكتور عيسى الأيوبي. تفاجأ كل منا بالآخر، كنت من المؤيدين وهو مع المعارضين. كان لزاماً علي أن أجابه الحملات التي سوف يشنها عليهم. كان يوماً مشهوداً. التلميذ يناظر أستاذه. لم تستمر الصدمة سوى دقائق، تمالكت نفسي بعدها، بأنني أقوم بعرض أفكاري الحديثه لتدحض أفكاره المتوارثة.

ماذا افعل إزاء هذه الهيبة وهذا الوقار الجالس أمامي؟ بابتسامة مشجعة صار يعطيني فرصة تلو الأخرى لشرح وجهة نظري مطولاً، لكنه يرد علي باقتضاب. اعترضت على أجوبته الباترة. ابتسم وقال:

: أجوبتي ليست باترة لكنها حاسمة، تحمل إيماناً عميقاً بما أقول. أسئلتك الطازجة بحاجة لوقت أطول للشرح والإسهاب والدخول والخروج. لذا فأنا أمنحك وقتاً كافياً لتتأكد من عدم جدوى خرق معادلة حسابية قائمة، ستبقى قائمة رغم أنف الحداثة. شيء كهذا أمر طبيعي بين جيلين، ومعانتين.

كانت المناظرة على الهواء مباشرة فوقف يهودي ملوحاً بقبضة يده مقاطعاً:

: أنتم أقوام بدوية وبدائية سمتكم الشقاق والنفاق. كلكم دمويون لا تريدون السلام. ألا ترون أيها السادة هؤلاء المفكرين كم هم حائرون وغير واقعيين إلى درجة مستحيلة؟

رددت عليه بهدوء:

: لماذا لا تصدقوا أن السلام مطلب لنا كما هو لكم؟

سمعت الدكتور عيسى يقول:

: اسمح لي بإجابة سريعة ومختصرة، يعرف أكثر منا بأن السلام في حكم المستحيل. سلامكم أيها الشاب كذبة، لأنكم دولة تقوم سياستها على القمع بلا هوادة. سلامنا هروب من واقع جائر إلى مجهول أشد جوراً.

بصفتي رجل قانون أضيف إلى قناعاتك معلومة بسيطة"مهما بلغت حماسة شعب للسلام، مهما كانت رغبته فيه، سرعان ما تفتر، أمام ذهوله من هول ما يحصل على أيديكم".

تعرضت صداقتنا لمواقف عصيبة مثل هذا الموقف وصمدت. كنت أعرف مقدار لهفته على معرفة رأيي الشخصي في قضيتنا. جاءت الفرصة في جلسة خاصة بيننا، أنهى النقاش بسعة صدر رجل كبير، بسؤال صريح:

: أريد رأيك بصراحة، اختلاف الرأي لا يفسد الود.

: قضية الوطن أصبحت عمل من لا عمل له، يستغلها الجميع كمسمار حجا. تثار بمواسم غريبة، يختلقها منتفعون مزايدون يتلاعبون بأوراقها. في ظروف- لا يعلمها إلا أصحابها الذين يسيسونها- يطلقونها بجدية، مضخمة كصورة في مرآة مقعرة، حقوق أصحابها جلية وقريبة المنال. فجأة يحجمونها، فتبدو صورتها عادية فتطوى وتخنق في أدراج السادة أنفسهم. كما ترى ينتفع الجميع ويدفع شعبنا الثمن. لذا فأنا مع السلام لإنه سيوقف هؤلاء السماسرة عند حدهم.

استمع واكتفى بهز رأسه، بينما طلت المأساة من عينيه.

الليلة.. احتفاله السنوي العادي برأس السنة الجديدة. في العادة كان يقضي النهار الأخير من السنة بصحبة أصدقاء لا أعرفهم، كان يطلق عليهم أصدقاء المنفى. مع بدء ترتيبات مفاوضات السلام سألته عن رأي جماعته في السلام. قال:

: يرفضون الفكرة جملة وتفصيلاً.

: من هم؟

: أصدقاء المنفى كما أخبرتك.

لاحظ عدم اقتناعي، كرر:

: جماعة ليست رسمية مهمومة بقضايا الوطن.

هززت رأسي دون تعليق مبدياً الاقتناع.

زارني في مكان عملي بعد بضعة أيام ليدعوني للمشاركة في الاجتماع الأسبوعي الذي سيتم بعد يومين. طلب مني إسماعهم رأيي ومناقشتهم فيه. كان ذهني خالياً تماماً عن توجهاتهم. رحبت بالفكرة ووافقت على الفور. لا أنكر بأنني حلمت بضمهم إلى معسكر السلام كجماعة من المثقفين الذين لا شأن لهم بالسياسة من قريب أو بعيد.

رافقته في ذلك اليوم إلى مقهى آرارات مقر الاجتماع، كانت جلستهم عادية كأنهم تجمعوا حول فنجان قهوة لقتل الوقت، بدأ الحديث عادياً ثم تحول إلى قضية بلادنا وشعبنا حين انضم إلى جلستنا صاحب المقهى خريستو الأرمني.

تيقنت بعد نصف ساعة من وجودي بينهم بأن توجيه الدعوة من عيسى لي ليست خالصة. قصد تعريفي على موقفهم الحقيقي مما يجري آملاً بعدولي عن توجهي. رغم خيبة أمله حثني على شرح وجهة نظري.

: في الحقيقة نحن كشعوب عربية نتجاهل الوقائع كأننا لا ندري، ننعت دولة موجودة قولاً وفعلاً على الساحة بالكيان والقراصنة والأعداء و...كلام كثير وكبير. هم حقيقة ودولة، نحن لا أحد. لا مجال هذه الأيام لثورة، أو للإدعاء الثوري.

قال عيسى وابتسامته الحزينة تحمل بعض اللوم:

: إذن نستسلم ونعلن الانهزام؟

: لماذا تسميه انهزاماً؟ هو في حقيقته واقع، ربما كان مرّاً لكنه واقع. لماذا لا نتعايش مع بعضنا في دولة واحدة؟

كان وحده المنفعل لما أقول، بينما وجوه من حولنا غارقة في هدوء ممتعض. استدركت متسائلاً:

: هل هذا تنظيم سياسي برئاستك دكتور عيسى.

: أبداً.. ليس أكثر من اجتماع للتنفيس عن الواقع المرير الذي تتحدث عنه. الفرق بيننا وبينك أننا لم نستطع قبوله بالبساطة التي قبلته بها. أتمنى أن نسمع توضيحاً لقناعتك.

: الأمر بسيط، كما نعيش هنا نتعايش هناك، الديمقراطية تساوي بين الجميع. أتخيل شيئاً مثل هذا آت لا محالة، ليس على أرض فلسطين أو إسرائيل بل على العالم ككل. الصراع ينهك القوى ويبدد الطاقات دون فائدة ترجى.

لم اسمع تعليقاً، ازددت حماسة فانطلقت أقول:

: المرير أننا الأضعف، ومع ذلك نعاند ونبدد الشيء الواهي الذي نملكه. إذا أغلقنا هذا الباب سنتفرغ لما هو أهم، إنجازات كثيرة

بانتظارنا، مشاركة فعلية في ثورة الحضارة، لننظر أبعد من النظرة الإقليمية البدوية المحدودة.

قال أحدهم بسخرية غير خافية:

: آه..أليست هذه مقولة أحد المسؤولين هنا بأننا الطرف الأضعف وعلينا قبول ما هو متاح؟

: لا تسخر، تعلم ربما أكثر مني بحكم اختصاصك بأن المشاركة في قيادة العالم إلى مستقبل عادل ستكون لمن له قدرة على رؤية المتغيرات، وتلمس الحاجة لواقع أكثر تطوراً وتقدماً.

وقف الجميع وأخذوا بالانصراف بعد تحية هامسة. رأيت في موقفهم ضيق أفق، بل وعنجهية قديمة لم يعد لها ما يبررها. وقفت بدوري قائلاً بحماسة:

: أنني والحق يقال، مع الحلول السلمية، أتابع من قريب ومن بعيد، الخطوات المتبعة في المفاوضات، مذ كانت سرية حتى وضحت للعلن. منصرف الآن بكليتي لنشر الفكرة بين طلبتي وكل من يملك بعد نظر لكسب التأييد لها.

يبدو أنه لم ييأس مني بعد، فقد زارني بعد يومين في بيتي. كنا نجلس متقابلين صامتين، انتظرت بدئه بالكلام. قام من مجلسه بهدوء، وقف ورائي محتضناً كتفيّ بحنو أب وقال:

: هل ترغب في مشاركتي فنجان قهوة أم تعتبرني خصماً ومتطفلاً وغير مرغوب فيه؟ إن كان هذا شعورك فلا ألومك. حين يتملكنا مثل هذا الشعور لا نستطيع منه فكاكا. هكذا أرى محتل أرضي، وكذلك المفاوض عني، إنه يكرس وجود متطفل دخيل على المنطقة كلها.

ارتبكت من المباشرة في الحديث، هكذا هو منذ عرفته في منتهى الوضوح والحماس. تزحزحت من مكاني متظاهرا أنني سأحضر القهوة، كنت أحاول استرداد أنفاسي. أمسك بذراعي وأعادني إلى مكاني فامتثلت. هكذا أنا أيضاً منذ قابلته أول مرة، وكنت تلميذاً له، وحتى اليوم والغد.

نشر أوراقاً أمامي قائلاً:

: لنتفق أولاً على مبدأ الحوار، ألا ترى معي ضرورة التكافؤ بين متفاوضين؟

شعرت وكأنني ذاك الطالب الذي كان يشرف على رسالته قبل سنوات خلت فقلت موافقاً:

: نعم ذاك شيء لا بد منه.

: هل ناقشتم فكرة كهذه قبل بدء المفاوضات؟

: الحقيقة أن المفاوضات بحد ذاتها خطوة إيجابية، لم نشأ أن نكبلها بشروط تعيقها. نعرف أكثر من غيرنا ضعف موقفنا.

: أولاً دعني أصحح الخطأ، المفاوضات لم تكن خطوة إيجابية، إنها فرصة ذهبية لحفنة من المنتفعين.

ثانياً لسنا مسئولين عن ضعفنا. نحن أقوياء بعدالة قضيتنا. إذا كان الصوت الأعلى ضدنا فهل نكون ضد أنفسنا؟

: هل أنت ضد التفاوض؟

: أبداً ..لكنني لا أريده عشوائياً حاملاً فشله في أحشائه. المفاوضون ذهبوا وكأنهم ذاهبون إلى نزهة. الجانب الآخر حسب معلوماتي، وأنت تعرف ثقة مصادري، تؤكد بأنهم يملكون أوراقاً رابحة. الأرض، الماء، المستوطنات والأمن. وجماعتنا دخلوا بأماني بسيطة: حكم ذاتي، انسحاب جزئي، لا شيء تحت أيديهم في مواجهة الخبراء المسلحين بالحقائق والملفات. أريد منك الاتصال بهاني ليحمل لهم هذه الوثائق والخرائط، يعتبرونها خططاً مقاومة لمخططاتهم.

: حين انتدبوني ضمن أعضاء الفريق الأمريكي قبل شهور ورفضت المشاركة، باركت هذا الرفض. فلماذا تريد من هاني أن يفرض وجود جماعته على المتفاوضين؟

: كنت ستذهب بمعية الوفد الرسمي الراعي للمفاوضات، أما جماعة هاني فستذهب بصفة عضو فعال مع المجموعة الموجودة حالياً. ما يهمنا وجود أفراد تتحلى بالإيمان، الإيمان بعدالة ما يفاوضون عليه، حتى لا يستبدل بسلام شجعان.

: ماذا يتوجب علي فعله؟

: هاني وجماعته هم المناضلون حقاً يا سامي. سيرفضون الصيغ الفضفاضة الممعنة في العمومية، أعرف أن المفاوضين يمررونها على أمل التعامل مع التفاصيل لاحقاً.

سكت أبحث في مخيلتي عمن بقي من جماعة هاني وأعرفه حقيقة إلى درجة الوثوق به ومفاتحته بأمر كهذا. سمعته يكرر:

: سامي ما بك؟ ما رأيك؟

: لا أعرف طريقة للوصول إلى هاني أو جماعته.

: سافر وأبحث عنهم، الأمر خطير ويستحق. سأزودك ببعض التفاصيل قبل سفرك.

: سامي أ ما زلت مكانك؟ أنا جاهزة.

جفلت، جاءني صوتها عالياً ورنة سعادة بادية فيه على غير العادة، تقف أمامي بكامل زينتها وأناقتها. حين رأت دهشتي قالت:

: أقنعتي سميحة وزوجها بالذهاب.

نظرت إلى ساعة الحائط كانت تمام العاشرة:

: حسناً لكن ما زال الوقت مبكراً.

: أعرف، لكن ماذا عن الزحام، استغراقك بالتفكير أنساك كيف تكون الشوارع في مثل هذه المناسبات.

: التأخير أجدى في مثل هذه المناسبة. أفكر بعيسى، كل يوم أتأكد كم كان حظي كبيراً أن أشرف على رسالتي.

لم تجب، عادت لجلستها السابقة، تبحث عن قناة تلفزيونية تسليها، استقر الريموت كنترول على الطاولة أمامها، عرفت بأنها عثرت على ضالتها، دون أن ألتفت عرفت أيضاً بأنها تشاهد عروض أزياء غريبة تعجبها، كنت أراها أزياء بلا ملامح تشبه العصر الذي نعيشه.

دخلت غرفتي، وقفت أمام المرآة أهم بتغيير ملابسي. ما زال عيسى رابضاً في مخيلتي، أول أمس وجه دعوة لنا لحفله السنوي. قائلاً:

: تعرف بأنك لا تحتاج لدعوة لكنني أتيت لأؤكد عليك ألا يعطلك مرض أمك عن الحضور،إنه حفل وداع.

أجبته بكل الحب:

: أنت تعرف تماماً مقدارك عندي، ابتداء بمكانتك العلمية وبمبادئك وأفكارك، وانتهاء بهذا الاعتداد بنفسك وبأصلك.

ألقى رأسه بين كفيه، ثم نظر نحوي ودمعة تبرق بعينيه:

: وأنت بالمقابل تعرف مكانتك عندي. أتمنى أن أكون أكثر من أستاذ، أباً روحياً مثلاً، لا يهم أن تصبح جهبذاً في القانون، بل وطنياً ملتزما بقضيته.

تكومت فوق السرير وحلقت وراءه.

11

حين ذهبت لاستلام الملف الذي سأوصله إلى هاني وصحبة وجدته مع أصحابه ذاتهم. بادرني أحدهم قائلاً:

: وصلت بالوقت المناسب. عندي تعليقاً حول مقالك الموجه لدعم المفاوضين، لا أصدق بأنه من مثقف مثلك.

: لماذا..هل فكرة نبذ حروب غير مجدية والجنوح مع العالم نحو السلام شيء خيالي. تأكد أنه بعد السلام، ستنشأ دولة ثنائية القومية يتمتع طرفاها بالعدل والمساواة.

قال الرشيدي:

: والله وجاء دور المثقفين. لا تنسوا الجدوى الاقتصادية.

عاد قارئ مقالي لمناكفتي:

: دكتور سامي هل تعتقد فعلاً أننا بتخطينا الشكليات، والتخلي عن فكرة الأبيض والأسود، نكون قد وصلنا إلى أجوبة منطقية وإلى حوار ديمقراطي بناء؟

: نعم لا مكان للمشاعر في عالم القوة.

قال عيسى:

: هذه القوة التي تفرض على العالم كله أشد خطورة من الحروب التي لا تريد منا تبذها. تعبنا من تسديد فواتير الغير.

: نحن يا أستاذي مجرد أعداد، تتحدى كل المتواليات الحسابية. دع القوة تعلمهم استعمال أدوات العصر الجديد.

رأيت ظلال ابتسامة تلوح على وجه عيسى:

: قد تكون تقبلت فكرة استمرارية المنفى، لكن السواد الأعظم من الناس متعبة، تعيش خذلاناً يومياً بلا رحمة.

أجبت بقناعة:

: الواقع هو الواقع، ولا يعني ذلك أنه الأفضل. ليس منطقياً الاستمرار في تعذيب أنفسنا. هناك عوالم أفضل بحاجة للكشف عنها، على ذمة نيتشه.

تنهد عيسى ووقف منهياً الجلسة:

: الأجـدى أن نعتـرف: بأننـا بحاجـة لتحريـر أنفسـنا مـن الافتتان بالآخر قبل التفكير بتحرير وطن وشعب.
: بكـل إصـرار أدعـو لمخاطبـة العـالم بلهجـتهم، هـذا أجـدى لنا.
قبل أن أغادر اقترب مني الرشيدي وقال:
: سـميحة تريـد أن منـك توصـيل رسـالة شـفوية لابنتهـا عائدة. ستزورك قبل سفرك.
: على الرحب والسعة، سأكون بانتظارها..
وكان هذا لقائي الثاني بعائدة سالم العمر.

دقت الساعة الحادية عشر، لقد أزف موعد مغادرة البيت والذهاب للحفل. خرجت من غرفتي كانت دلال تخرج من غرفة الطفلين، تمشي على رؤوس أصابعها نحو الباب الخارجي وتفتحه بهدوء. ردت على تساؤلي الهامس برغبتي في تقبيلهما برفع حاجبيها، وهمست بينما هي تغلق الباب بالمفتاح عدة مرات:

: لن نتأخر، مثل هذه المناسبات فرصة للصوص والتخريب. يقولون حضارة..هه. هيا بنا.

انطلقنا نحو بيت عيسى. متجاوران لكن كل منا بعيد عن الآخر بعد السماء عن الأرض. صامتان كالعادة ومتوجهان إلى المكان ذاته. أي حديث بيننا، مهما كان سهلاً وبسيطاً، يوصلنا إلى جدل بيزنطي لا جدوى منه.

التفت نحوها، كانت مسندة رأسها للخلف ومسترخية تماماً، إنها إحدى طقوسها العجيبة. لا يجب أن تتوتر لئلا يؤثر على عضلات وجهها التي ستؤثر على جمالها وجاذبيتها.

هناك طقس آخر ستمارسه كعادتها وسط الناس. تقاطع وتجادل فيما تعرف ولا تعرف لتثبت للجمع بأنها واعية ومثقفة. كنت في السابق أحاول فتح ذهنها لآفاق أبعد من ذاتها وأجمل من ملابسها وابتسامتها ومشيتها فاستعصت، فيئست.

وصل كل الضيوف متتابعين في الموعد المحدد رغم أزمة المرور الخانقة بسبب تراكم الثلوج. اختلطت التحيات مع التهاني وسط تزاحم لطيف، ضجيج محبب. النساء يتضاحكن وهن يحتمين تحت المظلات تاركين أزواجهن لرحمة المطر. قذفت دلال بنفسها من السيارة وهرعت إلى الباب المشرع لاستقبال الضيوف محتمية بمظلتها، تركتني كغيري أتدبر أمري.

في ضاحية المدينة، تربض الأحياء الراقية، ببيوتها المتميزة بطابعها الخاص، هناك كان بيت عيسى. شكل بيته الخارجي له الطراز ذاته، أما داخله فقد جعله أشبه ببيوت أغنياء بلادنا الشرقية.

حمل تناقضات الإنسان كما خلقته الطبيعة. فهو كبير وصغير، منزو عن بقية المنازل المحيطة وبالوقت ذاته بارز من فوق التلة الصغيرة التي بني عليها. بوابته الكبيرة لا تفتح إلا في المناسبات، أما في الأيام العادية فهم يدخلون ويخرجون من باب صغير جانبي.

كان عيسى مشرقاً كعادته، متحدياً شعره الأبيض وأعوام عمره التي تدور في حلقتها السابعة، جسم رياضي وروح شبابية مبهرة. كان يقف ببهاء بجانب زوجته على باب بيتهما، يستقبلان الضيوف بالابتسامة العذبة المحبة، تحتضن كل ضيف على حدى، كوالدين روحيين للجميع.

السيدة المقدسية كالعادة في مثل هذه المناسبات ترتدي فستان بلدها التقليدي. أحياناً يكون في لون الحليب ومطرز بألوان زاهية خلابة، أحياناً أخرى يكون كما هو هذا المساء أسود موشى بتطريز ملون يحمل نبض التراث ورائحة الوطن الحاضر الغائب.

بدا زوجها على عكسها أوروبي الطراز. بحلة رمادية شديدة الغموض بخطوطها السوداء الرفيعة، كنزه صوفية بلونها النبيذي المميز، تحتضن ياقة القميص الأبيض المحاط برباط عنق أسود، لا يشبه تلك التي نستعملها عادة. البايب العتيد بيده، يمسه بشفتيه بين الكلمة والأخرى، بصوته الهادئ، تستنجد بكل حواسك لتسمعه.

الجميع يتحركون بحرية في البيت الفلسطيني في كل جهاته. تمازج غريب وفريد، يجمع الأصالة الفلسطينية والطراز الأمريكي الحديث. علقت ذات يوم بأن في هذا البيت صراع بين طرازين، فيرد ضاحكاً: تلك هي الحكمة، كعبثية محاولة كل جديد في التفوق على أصالتنا المزروعة في نفوسنا المهجرة والمهاجرة.

كنت أقف ع زميل أمريكي معجباً بالتراث وخاصة الأشغال اليدوية. كان يبدي إعجابه بالوسائد الموشاة بتطريز تراثي جميل الملقاة هنا وهناك على الأرض، وأطباق القش المعلقة على الجدران، والبسط التي تتجاور مع السجاد بافتتان. ختم حديثه بقوله:

: يعتقد اليهود بأن هذا تراثهم وأنتم تدعون أنه تراثكم، أين الحقيقة؟

اصطحبته إلى سجادة عجيبة معلقة على الجدار المواجه لمدخل الصالة الرئيسة. أشرت إليها قائلاً:

: هذه خريطة فلسطين قبل القرصنة التي تعرضت لها.

رأيت دلال تقف بين عيسى وزوجته تضحك وتتبادل الحديث والتفكه. تفاءلت خيراً، لقد فقدت القدرة على التواصل منذ زمن طويل. استأذنت من مرافقي أن نلتحق بهم وينصت لما سيقوله الدكتور عيسى. أخذ يحكي قصة خريطته العريقة المنسوجة على السجادة الإيرانية التي قدمت له هدية من شخص إيراني مرموق، آمن بحقنا في أرضنا. أمسك بعصاه الطويلة الجاهزة لهذا الغرض. أخذ يشير إلى مدنها شارحاً تميز كل مدينة على الأخرى، الأحوال السياسية التي مرت بها إلى الكيفية التي تم بها تهجير أهلها منها. قاطعته دلال:

: ما فائدة الاحتفاظ بتفاصيل مدن ذهبت ولن تعود على سجادة جميلة بهذا الشكل. أهي من باب تعذيب الذات؟

بابتسامة عذبه رد:

: ثقي سيدتي لن يضيع حق وراءه مطالب.

عجلت بإطفاء الأنوار قائلاً: "منتصف الليل". هدأ الجميع ثوان ثم أشعلتها. مع التهاني بدأت طقوس العشاء.

تشاركنا كالعادة بإحضار الصواني المعدة، والصحون الممتلئة بما لذ وطاب. كنت بالمطبخ أناولهم من طاقة واسعة بين المطبخ وغرفة الطعام، فقد كنت أقرب الأشخاص إلى أصحاب البيت. قبل أن أهم بحمل الطبق التقليدي، منسف الرز المعمر باللحم والغارق في لبن الجميد. تصدى لي شاب لا أعرفه، قال بتأدب وبلكنة أمريكية بحتة:

: دكتور سام، هل أستطيع المساعدة.

استغربت وجود شاب صغير وسطنا. كانت بشرته السمراء وملامحه وشعر رأسه المجعد يوحيان بأنه ربما كان من الشرق الأوسط أو من أفريقيا. ناولته الصينية الساخنة وأنا أسأله:

: ما اسمك أيها الشاب؟

: جو..

: من أين أنت يا جو؟
: من إحدى البلاد التي كانوا يطلقون عليها العالم الثالث.
: كانوا..؟
: نعم..الآن مع التقسيم الجديد أصبح يسمى بالجنوب.
: ما الفرق..؟
ضحك واقترب مني هامساً بلغة عربية سليمة:
: الشمال هنا، هذه البلاد، نحن الجنوب. الشمال هو الرأس، هو العقل، الفكر التحضر. الجنوب الأقدام التي تتحرك بأوامر من العقل والفكر، أعني من الرأس المدبر. هل سمعت أو رأيت أقداماً تفكر وتقرر؟. بالمناسبة أسمي يوسف.
: وأنا سامي. لماذا الهمس يا يوسف، هل أنت خائف؟
: لا إنه الحرص، بعض الضيوف يبيتون أمراً.
: من هم؟ وأي أمر؟
: نحن نعرفهم، سأخبرك بالأمر بعد العشاء.
: إذن هيا يا يوسف ضع هذه الصينية على المائدة فقد حان وقت العشاء. سنجد فرصة أوسع لنتحاور، الأيام بيننا. أتمنى أن يكون اهتمامك بدراستك كاهتمامك بالتقييم. أنت من تلامذتي؟
: لا فأنا هنا منذ أسابيع قليلة، التحقت بالجامعة كطالب غير نظامي إلى أن يبدأ الفصل الدراسي الجديد. اسمح لي تطفلي فقد دعوت نفسي لأراك أريد أن أحدثك بأمر هام.
: تحدثني بأمر هام؟
: الحقيقة أحذرك من أمر هام، ربما أحميك من أمر هام. لا أعرف كيف سأساعد لكنني أتيت والسلام.
: هل تعني أن الدكتور عيسى لا يعرف بوجودك؟
وضع الصينية الساخنة على الطاولة، تلكأ بالإجابة، نفخ في كفيّه مانحاً لها بعض البرودة. تطلع حواليه وقال:
: لا.. لا يعرف.
: إذن..هيا أمامي..علينا إخباره.
مشى بجانبي بهدوء، وصلت حيث الدكتور عيسى، التفت فلم أجده. حين تحلق الضيوف حول المائدة، ظهر يوسف رافعاً يديه

طالباً الاستمتاع بالعشاء آملاً ألا يكون العشاء الأخير.. لمحت دهشة على وجه صاحب البيت انحنيت على أذنه قائلاً:

: إنه طالب عربي اسمه يوسف، دعا نفسه إلى حفلك.

قال بصوت مسموع:

: أهلاً بك يا يوسف، على الرحب والسعة.

قال يوسف:

: شكراً دكتور عيسى، لكن أرجوك أطلب من الدكتور إسماعيل الابتعاد عن مساعده روكس على الأقل أثناء العشاء.

صرخ روكس:

: لماذا؟ من أنت؟

:أنا سرك وسر الدكتور اسماعيل.

قال إسماعيل ساخراً:

: تفضل أيها السر وأعلن عن نفسك.

تحرك روكس ببطء نحو يوسف. انتبه يوسف فقال:

: يبدو أنك تريده أن يكون العشاء الأخير.

سمع همهمة احتجاج فأكمل:

: هذان الرجلان المتلازمان في كل رحلة إلى الشرق الأوسط، يعودان بمعلومات حول أشخاص صوتهم مسموع في مجتمعهم. في الغالب لهم فكر مناهض لمجريات الأحداث في العالم. بناء على تلك المعلومات يفقدون صلاحية وجودهم، فيعدون لهم طرق التخلص منهم.

وقف اسماعيل يصرخ:

: من هذا؟ ماذا تقول يا ولد؟ من أنت؟

: تذكرني جيداً.. عد للوراء قليلاً، توقف عند مؤتمر بحث إمكانية سلام الشجعان. كنت بالمطار بانتظار شخص سيصل إلى أوسلو موفداً من شخصية وطنية لطرح بدائل هذا السلام الهزيل. كنت أنت وروكس هناك حاملين أمراً بإعفائه من الحياة.

: لا أعرف عما تتكلم. أمعتوه أم ماذا؟ من هو يا عيسى؟

: أنا من سألتني حين رأيت القادم أليس هذا سامي؟ ثم سألت روكس بهمس كيف يغيرون خططاً دون إعلامك.

قلت مستوضحاً:
: أين كان ذلك؟
: في أوسلو..كنت مثله لا أعرف مدى التشابه بينكما. رأيته يهز رأسه بحيرة ويقول هذا سامي. أكيد سامي. كتب شيئاً في دفتر مفكرته، لعله بدل اسمك باسم هاني، أسماء كثيرة كانت مرصوصة بمفكرة الموت تلك عليها علامة أكس- لعلها الآن في أحد جيوبه- كل أصحابها اختفوا بطريقة أو بأخرى.
: كل يوم يختفي شخص أو أكثر في أكثر بقاع الأرض، بل كل يوم هناك في تلك المناطق من يسجن أو يبعد أو يقتل.
: لكنهم جميعاً وجد على باب كل منهم علامة اكس مكررة تماماً كما رأيتك ترسمها ذلك اليوم.
اقتربت من يوسف وقلت بقسوة:
: لا تفسد الليلة بكلام لا أساس له، اسماعيل كان هنا في تلك الفترة. لكل منا من الهموم والمشاكل ما يكفي. إذا كان عندك ما تقوله فاختر الوقت المناسب والشخص المناسب.
: لعبته الأخيرة كانت ضدك، ألا تصدق؟ أسم أخيك هاني حمل تلك العلامة. لم يكن يعرف أنكما متشابهين إلى هذا الحد، ظنه أنت، فاختفى. أوكل غيره ليقوم بالمهمة.
: ماذا تعني؟ هل تعرف شيئاً عن هاني؟ أين هو؟
: لم لا تسأله؟ هذا الرجل لم يعد منا.
سمعت اسماعيل يقول بهمود:
: لم يعد يسعدني شيء كهذا.
طفا الاستنكار على وجوه الحاضرين. استأنف متهكماً:
: ها أنتم لمستم بأنفسكم مدى تخلف منطقتنا، هذا عينة حقيقة منهم. منذ وعينا وكثيرون يزايدون على القضية -كما يفعل هذا الصبي الآن- والقضية لا تزال تراوح مكانها.
صاح يوسف:
: لا تحاول.. ستعاقب.
ارتج إسماعيل برهة، شد عزيمته قال وهو ينظر نحوي:
: ماذا أسمع؟ من سيعاقبني؟

: هيا أخبرهم قصصاً مسلية حصلت معك هناك.
كان المتكلم روكس مساعد الدكتور إسماعيل والذي يرافقه في كل أسفاره. قال يوسف للمتكلم:
: لا تتكلم يا روكس فأنت لك شأن آخر وحساب قريب. أنت خارج السرب، أنت قصة أخرى وصاحب انتماءات عدة.
: لماذا؟ لا تنسى بأنني عربي مثلك
: أنت أصل الداء المستشري فينا. الداء الذي طلبت للتو من الدكتور إسماعيل تسلينا بأعراض تطوره عاماً بعد عام. بالمناسبة هل تعرف من هو روكس يا دكتور سامي؟
هززت رأسي نافياً فأوضح:
: فلسطيني من أب مسلم وأم يهودية. قريبك.
قلت مستوضحاً:
: سمعت عنه لكنني لم أقابله قبلاً. ماذا تعني بقريبي.
قطع الدكتور إسماعيل محاولتي الاستفهام مستأنفاً كلامه:
: لا فائدة أمراض العرب هي أمراضهم. الجهل الجهل. جهلهم نبات شيطاني. كأنما وجدوا ليعيقوا حركة الحياة. نذروا حياتهم للنساء والطعام كأنهم سيموتون غداً. أما الطبقة المثقفة فحدث ولا حرج، يلحقون بالحلم الأمريكي والثروة.
رد الأمريكي الذي نفث سمه عن تراث اليهود:
: ما أبسط الحياة هناك. عالمهم خرافي، لكنه عالم جميل. كلما أرهقت من العمل أهرب إلى هناك.
اتجه عيسى بالحديث منحنى آخر سأل الشاب:
: ما اسمك أيها الشاب؟ لا تهتم.. لا تخبرنا به. ما زالت صغيراً وحديث العهد بهذه البلاد. لتخبرها وتعرف أهلها عليك أن تعيش طويلاً معهم لتعرف حقيقتنا وحقيقتهم. نحن وهم نعيش في عالم واحد وزمان واحد لكننا لم ندرك ما أدركوه. مصلحتهم أولاً ومصلحتهم أخيراً، ولا اعتراض على ذلك. أنا أمريكي، لكنني أرفض ما يحصل لشعوبنا، أشعر بأنني عربي. بل عربي متضرر.
قال روكس الذي ادعى يوسف قرابته لي:

: عربي متضرر، أتشعر بأي شعور تجاه تلك الشعوب المتخلفة. بين أيديهم ثروات حبتهم بها الطبيعة، لا يعرفون قيمتها، جل ما يبدعون به تبذيرها بشغف على ملذاتهم.

تساءل يوسف باستهزاء أدهشني:

: غير صحيح، أسم ما يعيشه معظمنا الخوف يقاومونه بغريزة حب البقاء. نقاوم الحياة الصعبة باللهاث وراء الرغيف، ونتحدى الفناء بإخفاء رؤوسنا بين أكتافنا لئلا يرونها فيحين قطافها.

ابتعد عنه روكس وأخذ يقترب من عيسى. تحرك يوسف بالاتجاه ذاته. أوقفته لأهدئ من روعه. قلت بهدوء:

: ما زلت أؤمن بالتاريخ و..

قاطعني يوسف وعيناه زائغتان:

: آسف يا دكتور إذا سارت الأمور على هذا المنوال ستفقد إيمانك بالتاريخ والجغرافيا أيضاً. في جيب هذا الروكس ابن عمك لائحة بأسماء انتهت صلاحية أصحابها.

قطع عيسى قائلاً:

: هل يضيرك أيها الشاب أن تنتظر إلى ما بعد العشاء؟ أنا معك في المظالم التي تعيشها شعوبنا كلها على يديهم، وان تمثال الحرية المنتصب هناك، والأمم المتحدة، وحقوق الإنسان، ورقة توت يستترون بها.

أخذت يوسف بعيداً، بينما انتحى روكس وإسماعيل جانب آخر يتهامسان. عينا يوسف تدوران بارتياب. قلت:

: تريث قليلاً. اخبرني ما تعرفه عن أخي، هل قتل؟

: عليك بالصبر الذي نصحتني به. نصف ساعة لا تقدم ولا تؤخر؟ يحزنني أن أسمعها منك. دقائق غيرت مجرى حروب. على كل دونت ما أعرفه على الورق ودسسته بين أوراق الدكتور عيسى تحسباً لحصول ما لم يكن في الحسبان.

ابتعد عني وحزن ينتشر على وجهه المليح الصريح، لم أتمكن من الصبر، همست في أذن عيسى:

: هذا الشاب يقول بأنه دس بين أوراقك أوراقاً تخصني.

هز رأسه ولم يرد..عاد يرحب بالضيوف. انشغل الجميع بالطعام، همسات تدور حول نوايا الدكتور عيسى من هذا الاجتماع. عدت إليه أعرض عليه الوثائق التي حصلت عليها. تتضاحك وهو يقول لي هامساً:

: أو تظن يا سامي بأنني بعيد عن كيفية حصولك عليها. عرفت بأنك بحاجة إلى حافز وأظنني قد هيئته لك. أوراق روكس مثله بلا قيمة، ليبلها ويشرب مائها، وورق يوسف سنهتم به معاً.

فرغ الجميع من العشاء بسرعة مذهلة، فقد ساد الجميع ترقب حذر. يوسف اقترب من الدكتور عيسى وقال شيئاً، لم أسمع ما قال ولكنني فهمت ابتسامة الشيخ، هز رأسه بثقة واستمر في صعوده بضع درجات تؤديان إلى شرفة صغيرة، فتح الأوراق، تحرك يوسف ووقف خلفه. قال عيسى:

: هذه مرحلة حالكة، من أصعب المراحل في تاريخنا. الاعتداء سافر والظلم فادح. لنتناسى مراكزنا وجنسياتنا المختلفة، ونعود أبناء وطن يعاني.

سيصرخ الجميع في وجهي كما أسمع في حوارات التلفزيون: من أين سنبدأ؟ ما هي البدائل؟ تذكروا ما سأقول ولا تنسوه أو تتناسوه، وليعتبر كل واحد منكم نفسه مسئولاً عما يسمع. قبل كل شيء- مع الاعتذار لدعاة السلام- سأطرح بعض الأسئلة:

السلام مهادنة بين طرفين متكافئين فهل نحن وهم كذلك؟

السلام يعني الحرية والمساواة للطرفين فهل تتوقعون الحصول على شيء كهذا؟

إلا نضيع تضحيات الماضي بتنازلات مريبة؟

الشعوب عادة تثور ضد من يسلب حريتها وثرواتها. هذه البلاد التي نعيش على أرضها، وتجنسنا بجنسيتها، كانت ذات يوم خاضعة لدولة مستعمرة، عانت ما تعانيه شعوبنا الآن، ثارت وانتصرت.

بدأ يوسف يوزع أوراقاً على الحضور بينما تابع عيسى كلامه: بين أيديكم وثيقة استقلال الشعب الأمريكي. أنها ميثاقنا الوطني الجديد. تدارسوها، وتواصوا بها.

"إن الحكم البريطاني أقام قوات مسلحة كبيرة بين ظهرانينا، وحماهم بمحاكمات هزلية في العقاب على جرائم القتل التي يقترفوها ضد أهالي هذه الولايات.

ولأنه قطع صلاتنا التجارية مع كل أنحاء العالم.

ولأنه حرمنا من مزايا المحاكمة أمام محلفين.

ولأنه نقلنا وراء البحار نحاكم على جرائم مزعومة.

ولأنه نزع منا مواثيقنا، وألغى أثمن قوانيننا.

ثم أعلن أننا محرومون من حمايته، وشن الحرب علينا. نهب بحارنا وسلب سواحلنا وأحرق مدننا ودمر حياة شعبنا. في جميع مراحل هذه المظالم قدمنا الالتماسات للإنصاف بكل تواضع وخضوع. لكن كان الجواب الوحيد على التماسنا المتكرر هو: الإساءة المتكررة.

لذا فأننا نحن ممثلي الولايات المتحدة الأمريكية، من مؤتمرنا العام، المجتمع هنا، نشهد القاضي الأعلى، الله جل ثناؤه، على صواب مقاصدنا، ونعلن باسم شعب هذه المستعمرات الطيب وبسلطانه، أن هذه المستعمرات المتحدة، هي في حقيقتها وبموجب حقها ينبغي أن تكون ولايات حرة مستقلة، وإنها قد تحررت من كل ولاء للتاج البريطاني، وان كل الروابط السياسية بينها وبين بريطانيا قد انفصمت تماما، وأننا نتعاهد تعاهدا متبادلا على صيانة أرواحنا وثرواتنا وشرفنا المقدس".

بناء على ذلك سنهتم بإنشاء "رابطة للمثقفين العرب" يشارك بها جميع مثقفينا في عالمنا العربي والعالم المتحضر ككل، تحت لواء جمعية عمومية تعنى بكل فكرة حول بنود هذا الميثاق.

نحن مع كل المثقفين نعاضد ما اقترحه الدكتور سامي في كتابه الأخير، بإعادة تفعيّل دور الأمم المتحدة. إلغاء حق الفيتو. الإقرار بحق الشعوب المحتلة بالمقاومة.

كان الصمت بليغاً. قلب الدكتور عيسى الأوراق بين يديه المرتجفتين، اقتربت منه وأجلسته على مقعد قريب فتحرك يوسف بحيث يبقى ملاصقاً له. جاءني صوت دلال وتلفونها بيدها قائلة:

: عائدة على التليفون، حالة أمك حرجة، أدخلت للعناية.

التقطت الهاتف وخرجت من الضجيج إلى غرفة أخرى. سألتني عائدة وسط نشيجها:

: هل ما زلت هناك في بيت الدكتور عيسى؟

: نعم أنا هنا، ماذا في الأمر؟ سأحضر حالاً.

: هناك أمور عجيبة تحصل، لقد كنت هنا قبل نصف ساعة. صاحت أمك بفرحة هاني، ابني. رددت عليها، أنا سامي يا أمي، ماذا جرى لتخلطي بيننا. أجهشت ببكائها من جديد.

لم تسمعني وأنا أؤكد بأنني لم أترك الحفل منذ حضوري إليه. وقع قلبي بين ضلوعي، ألقيت الهاتف إلى دلال والعرق يتصبب مني، احتبس صوتي، هل حقت الحقيقة بهذه السرعة؟.

دلال واقفة أمامي تمط شفتيها عجباً من مظاهر التوتر البادي عليّ. وجهها كعادتها خالياً من أي تعاطف. قالت:

: لم الهلع..انها مريضة بالسرطان. ماذا تتوقع؟

تركتني وسارت بهدوء نحو الجمع وكأنها أخبرتني بأن أمي ذاهبة للتو في نزهة وليست إلى الموت. الموت.. يا إلهي. قفزت إلى الخارج دون وداع أحد. كلمة الموت تتكرر برأسي كالطنين..تكبر، تكبر..تدوي، الموت.. الموت.. أسمعها كطلقات الرصاص، أعد الطلقات مع خطواتي، وأنا أركب سيارتي. واحدة، اثنتان، ثلاثة، كأنها رصاصات حقيقية، أصوات مرعوبة حقيقية. ربما خطر على بالي تحذير دونالد بعدم قضاء ليلة رأس السنة في بيت الدكتور عيسى، ربما عاد صدى صوت يوسف وهو يعلمني بأنه حضر من تلقاء نفسه ليحميني ليحول بيني وبين حدوث شيء ما. ربما شعرت وأحسست بتلك الحاسة التي تملكها أمي ومع ذلك لم أتوقف، انطلقت رغماً عني لنجدة أمي.

استقبلتني الممرضة المسئولة بثورة عارمة بسبب زيارة قريبة لنا لأمي أرهقتها فأدخلت العناية المركزة. قلت:

: لكننا هنا دون أي أقارب، دعيني أراها من فضلك لأعرف من زارها.

: لا يمكن. زارتها امرأة خاطبتها أمك باسم سارة.

في غرفة أمي، كانت عائدة تبكي بهستريا وهي جالسة فوق السرير. جلست على المقعد وزفرت بوجع. سألتها:

: من هذا الذي زارها وظنته أنا؟

: لم أره، كنت خارجاً أتناول مرطباً. حين عدت سألتني إن كنت رأيتك خارجاً غرفتها أو داخلاً ، لما نفيت الأمر قالت كان هاني، أنا أعرفه، لا أعرف لم أنكر نفسه وأكد بأنه سامي. حين رأت الشك بعيني قالت ليست المرة الأولى التي يزورني فيها ويدعي أنه سامي. خرجت وسألت الممرضة إن كانت رأتك، أكدت بأنها رأتك قبل دقائق.

عدت إلى والدتك، احتضنتها محاولة تهدئها، فجأة فتح الباب ودخلت امرأة. وقفت لاستقبالها. صاحت والدتك دهشة سارة.. أخذت تحدثها عن خلاف على البيت القديم. تتضاحك وهي تقول لن يبقي عندك سوى ولد واحد غداً. لا أعرف كيف لم انتبه لمحتوى الحديث أو حتى اللهجة وما بها من شماتة. ما يعذبني أنني خرجت لأفسح المجال لهما لعتاب قديم. بالخارج شعرت ببرد فعدت لآخذ الشال، كانت المرأة تقول بحنق أنت مريضة بالسرطان وستموتين قريباً. رأيت والدتك تنسحب إلى آخر زاوية في السرير وتنكمش بينما الأخرى تضحك بسخرية. ماذا بينهما؟ من هي هذه المرأة؟

: إنها زوجة عمي. لم يحدثنا أبي عنها إلا وبكى وأبكى أمي معه. عمي وزوجته السبب في حالة الشلل التي عاش بها.

: كيف حصل هذا ومتى.

: بعد سقوط البلاد. جاءت مع عمي إلى بيتنا. أمرت أبي أن يترك المكان بلا مشاكل. رفض بقوة، أمسكت به من كتفه، تهزه كأنه جذع شجرة تريد اقتلاعها. هاني كان في حضنه، وكنت في حضن أمي. رجوته أمي أن يوافق ويبتعدا خوفاً على الصبيين. رفض

وتشبث بالبيت. صرخت سارة" قوم اطلع بره"، كان أخوه واقفاً يتفرج، يتضاحك ويسوك أسنانه بشيء ما كعادته. بدل أن ينهي المهزلة التي تقوم بها زوجته تقدم من أبي وهو يقول له"حسناً يا عبد الله، لن تترك البيت فقط وإنما البلاد كلها،عملت حالك وطني وثوري، الآن أنت الخاسر. شوف أنا -المفلس والمغضوب من أبي والمتزوج من هذه اليهودية القذرة كما كان أبوك يقول- صرت الفائز. قذف بالسواك المقرف بوجهه وخرج تاركاً زوجته تتحكم باسرة أخيه. لم تسمح لأمي بحمل متاع أو طعام لنفسها أو لتوأميها الطفلين. كان على باب البيت ثلة من الجنود اليهود، مستعدين لإطلاق النار وفق إشارة منها. القوا بنا إلى الشارع، تشبث أبي ببوابة بيته صارخاً: اقتلوني فلن أغادر بيتي. بإشارة من عينيها كما كان يخبرنا أبي، أطلقوا عليه النار. بعدها لم يعد قادراً على المشي.

: لكن ما الذي أتى بهذه المرأة بعد كل تلك السنوات؟

كنت أفكر بجواب لهذا السؤال، حين سمعت صوت سيارات الإسعاف تصل إلى المستشفى. خرجت إلى الرواق استفهم. قالوا بأن حفل الدكتور عيسى تحول إلى مجزرة.

هرعت إلى قسم الطوارئ لأتحرى ما جرى. كان الخبر حقيقياً، إذن..الرصاصات حقيقية وليست طنيناً في رأسي.

علمت بأن روكس أطلق روكس النار على عيسى فرد يوسف بإطلاق النار عليه. هاج الجميع فسقط من سقط. قالوا بأن يوسف وإسماعيل والأمريكي المستشرق ماتوا. عيسى أصيب بذراعه وساقه. لم يصب أي من السيدات. روكس جروحه طفيفة.

كان رجال الشرطة تستجوب من يستطيع الكلام، تضاربت الأقوال. الجميع أجمع على أن روكس هو من بادر بإطلاق الرصاص أولاً على الدكتور عيسى، لكن يوسف تلقاها بصدره، وصوب رصاصته نحو روكس فتلافاها. كانت طائشة بفعل الألم الذي كان يفتك به.

لا أذكر سوى أنني عدت إلى غرفة أمي منهاراً، تلقتني عائدة بين ذراعيها. صحوت على صوت هذياني. أسمع نفسي، وأعي صراخي، على يوسف تارة، وعلى عيسى تارة أخرى. أخلط الأمور

وأسأل عن هاني. أجد وجه عائده منكفئاً فوق رأسي ويداها تلامسان وجهي، وحدهما كانتا الحبل السري الذي يصلني بالحياة.

أعود وأسألها عن هاني. أسألها إن ماتت أمي بالفعل. أسألها ولا أنتظر الجواب: هل علم هاني بأن أمنا تموت؟. هاني وحده المسئول عن مرض أمنا، وحده المسئول عن موتها. أضرب رأسي بحافة السرير أناديها وأنادي هاني، أناجيها وألعن هاني وكل مشاغله، ينام رأسي المنهك فوق صدر عائدة الخافق بتواتر عجيب فيعذبني من جديد.

قلبي ليس على ما يرام.

خرج الأطباء بنتيجة عجيبة أن قلبي مريض. قلبي أنا، الذي يعيش النبض، يعيش الحب الحقيقي، الحب الصامت اليائس رغم الكهولة. كيف لي تحمل مهزلة أخرى من مهازل قدري؟

قال عيسى حين فتح عينيه ورآني أمامه:

: لا تقحم نفسك بما حدث، لقد خرجت باكراً. سافر مع أمك، فهي تريد أن تموت في بيتها. يجب أن ترحل بالأوراق التي سيسلمها لك المحامي.

: لن أتركك.

: بل ستتركني، فالحال طويل وهذه البداية فقط، كان بإمكاني التراجع حالما تكلم يوسف، أو حين قرأت أوراقه. قبلت أن أكون الشرارة لا تبخل علي بجمع الحطب.

استدعيت كشاهد. أثناء الاستجواب قلت موضحاً كمحام:

: يوسف لم يكن مدعواً أصلاً، تعرفت عليه تلك الليلة في بيت الدكتور عيسى وهو بدوره لم يكن يعرفه مطلقاً.

سألني المحقق:

: قال روكس، بأنك كنت تتهامس مع يوسف قبل العشاء، وأنك اصطحبته إلى الدكتور عيسى. سمع ترحيب عيسى الحار بيوسف بصوت عال. كيف يتسنى لصاحب بيت أن يرحب بهذا الشكل الحار بشخص لا يعرفه؟

: روكس شاهد؟ إذن من المتهم؟

: أجب على السؤال فقط ولا تطرح أسئلة.

: إنها عادة عربية، نرحب بضيوفنا عدة أيام قبل أن نعرف من هم وسبب حضورهم.

: وهنا أيضاً تمارسون شعائركم الغريبة؟ من هو يوسف؟.

: كان تلميذاً صغيراً في بداية الحياة.

: لكنه قتل الدكتور إسماعيل.

: لا أعرف، لقد خرجت مبكراً، استدعيت إلى المستشفى.

: ألم تفر من الموقع بعد تدبرت مع يوسف الأمر؟

: إذا تدبرت الأمر معه فلم أتركه يواجه الجميع وحده.

عائدة غارقة في أساها، ردت على نظراتي المتعبة:

: اجعل حالة قلبك محطة إجبارية لتعيد النظر في حياتك. كم تمنيت لو أستطيع الرد بالسخرية ذاتها التي أهمس بها لنفسي. عاش قلبي بجانبي خمسين عاماً يرثي لحالي ولم يمرض، الآن، حين صار يتحسس الفرح نكص وخذلني.

وقفت تجمع حاجياتها وهي تقول:

: عليّ العودة إلى المستشفى حالاً فأنا متعبة.

شعرت بالفزع ولكني تمالكت نفسي وقلت:

: حسناً هيا بنا.

ها هي بجانبي، لكني سأفتقدها، ربما في كل لحظة، في كل ركن. بسيارتي، في غرفة نومي حيث قضت ليلتها الأولى، مع هاني مع هالة. في الأيام الفائتة وهي بالمستشفى مع أمي ومعي، أيقظت فيّ ما كنت أردعه، عشت العمر بانتظارها.

قالت تبدد الصمت:

: رغم تعرضي لهذه الهزة العنيفة لم أشعر بما كنت أشعر به أيام المرض. لم أنهار تماسكت واستطعت المساعدة على ما يبدو. أعتقد أن المريض النفسي هو الوحيد القادر على مساعدة نفسه.

: الحمد لله.

امتعضت لهذا الجواب المقتصر، تنهدت بعمق وقالت:

: آسفة لأنني أصدع رأسك بثرثرة لا تهمك، عذري أنني ظننت بأن الأمر يعنيك.

: يعنيني أكثر مما تتخيلين.

لم يرضها الجواب فظلت غاضبة، عدنا لصمتنا. ماذا تريدني أن أقول وأن أعيش هذه المحنة. نزلت من السيارة وأصرت أن أعود من حيث أتيت. قابلت طبيبها، وحين عادت وجدتني في مكاني صامتاً تائهاً بانتظارها. وقفت متألمة حين فتحت باب السيارة لأنزل ركضت إلى الداخل فتبعتها. على باب غرفتها وقفت أتأمل وجهها المتألم. مددت يدي إلى شعرها أداعبه كما كنت أفعل وهي طفلة نشجت من جديد، قلت:

: إذن سأذهب.. تصبحين على خير.

استدرت مغادراً صاحت وكأنني ذاهب لعالم الآخر:

: متى سأراك؟

: لا أعرف.. تصبحين على خير.

كان قراري حازماً بأن أتصدى لمشاعري تجاهها ومقاومتها كما فعلت سابقاً. إذ بي أتصدى لها كأنها المسئولة عما يجري بأعماقي.

ضيوف دلال ما زالوا عندها، يبدو أنهم ظنوا لتأخري بالعودة سأبقى في المستشفى مع أمي، أطلقوا العنان لأصواتهم وآرائهم وضحكاتهم، كان لها صدى غريباً في هدأة الليل.

رأيت دلال على الأريكة المواجهة لي، ملتفة بروب صوفي سميك، ضيوفها موزعون حولها. قال الرشيدي:

: منذ عرفته وهو رجل ثقافة، لم أره يمارس أي نوع من التعصب لفئة دون أخرى ما الذي جرى له.

ردت دلال:

: هذا سحر الدكتور عيسى. زوجي عاش شبابه شيخ حكيم، والآن يعيش كهولته بثورة شباب.

تضاحك الجمع علقت صديقة زوجته الأمريكية التي أصبحت عربية بإصرار عجيب:

: الحقيقة لم يرق لي أبداً. أحياناً أشك بعقله، دائماً ألحظه تائهاً في اللا شيء. كيف وثقوا بأستاذيته في الجامعة.

سمعت دلال تقول بصوت عذب لم أسمعه منها إلا في الفترة التي كانت تحاول إيقاعي بهواها:

: أنه إنسان مسكين، قتلته جديته ومنطقه، لم يتذوق معنى للسعادة في يوم من أيام حياته. زوج مفكر من الدرجة الأولى، لكن ماذا حقق لا تسألوني، لكن بإمكانكم سؤالي عن مدى الضجر الذي أعيشه مع شخص من هذا النوع.

قال جون زوج المستعربة وصديق الرشيدي وزوجته:

: خسرك، خسر مكانته العلمية التي كان يتمتع بها..

قالت سميحة بعصبية:

: لكنني أعرفه قبلكم جميعاً، إنسان عظيم بكل المقاييس.

دخلت الصالة وأنا أتطلع إلى الوجوه الممسوحة، قلت:

: لن اعترض على ما سمعت، فقط، أخرجوا من بيتي.

وقفت دلال بتحد وخطت نحوي، قلت لها بهدوء:

: لي دنيايّ الخاصة صعب على أمثالكم فهمها.

خرج الرجلان برفقة دلال وزوجة جون، سميحة وقفت بانتظار أن أهدأ. قالت بأسى:

:آسفة سامي، ليس عدلاً ما كان يقال في بيتك. هم يعرفون مثلما أعرف بأنك أبعد ما يكون عن هذه الصفات. تعرف مكانتك في نفسي طوال سنوات صداقتنا.

صمتت وانتظرت لم أرد قالت بصوت منكسر:

: كيف حالها؟ وددت لو وجدتها هنا.

: هي بخير اطمئني. استعجلت الرحيل أظنها عرفت بقدومك. أعذريها فهي في حالة عدم توازن، فقد عانت الكثير.

تنهدت قائلة:

: ألن تلين؟

: الأيام تشفي كل الجروح. عودتها إليك ليس بالأمر الهين ولكنه أيضاً ليس بالمستحيل. بالمناسبة متى أخبرك روكس بوجودها في المستشفى؟

: قبل يوم واحد من الاحتفال برأس السنة لماذا تسأل؟

: أريد أن أعرف شيئاً عنه. هل تعرفين نوع القرابة التي أخبرني بها يوسف قبل موته.

: أعرفه منذ زمن طويل. لا يوجد أحد لا يعرفه، فهو في كل مكان في كل وقت. وقد أكد لي أمس أنه ابن عمك شقيق أبيك.

: تعنين أنك رأيته بالأمس؟ أليس موقوفاً تحت التحقيق؟

: أي تحقيق؟..مثل هذا يعوم كنقطة الزيت فوق الماء. أعلمك بشكل شخصي بما قاله لي، بأنهم يعيدون حساباتهم بعد أن أخطأ في اغتيال عيسى. لقد قال لي وهو يضحك بملء شدقيه صحيح أنا موقوف لكنني أتحرك كما أشاء.

: ماذا أسمع؟

: سامي إنها الحقيقة.

ارتميت فوق أريكتي باكياً كل همي، كل حبي، كل تعبي الجسدي والنفسي. تركتني ولحقت بزوجها الذي لا يقل حقارة عن هذا الروكس. تساءلت وهي تختفي وراء الباب: كيف لامرأة عاشت مع رجل شهم مثل سالم تستطيع العيش مع وغد مثل هذا الإنسان؟ وجدتني أتساءل كيف استطعت العيش مع مثل هذه المرأة كل هذا العمر. أليس الإنسان لغزاً محيراً؟

ما قالته دلال حق. لم أعد أصلح لشيء سوى العمل.

لكنها نسيت شيئاً مهماً، هي دون غيرها وراء انقطاع علاقتي بما يسمى سعادة أو فرح أو راحة. ماذا عن مشاعري؟ لم تعد محل نقاش، حتى بيني وبين نفسي، بعد الإحباط الذي جعلتني أعيشه منذ زواجنا. الحقيقة أنني استسلمت لقدري واندفعت في عملي ومؤلفاتي، لم أبحث عن سعادة، لم أفهم دواعيها، ولا منيت نفسي بها. لم أحس بمعنى فقدها، ولا عانيت الاحتياج المرير لها إلا بعد أن رأيت عائدة.

نذرت حياتي للإنجاز العلمي. كلام على ورق يهز أركان المحاكم، أو على مدرج جامعة يترك الطلبة في ذهول من قدرة أستاذهم الفذ، أو حتى في محاولة يائسة لإرضاء زوجة لا تعرف هي شخصياً ما الذي يرضيها.

سر رائع احتفظ به لنفسي. سر منحني سعادة مثل تلك التي أحس بها حين أحاول أن أكون هاني. الفضل في هذه الفتات من السعادة يرجع لعائدة. عائدة.. الشمس التي أضاءت دنياي، جعلتني اكتشف كم كانت حالكة. بسمة حلوة تسربت عنوة إلى شفتي فأحدثت معجزة.

الأيام تمر، بيتنا يزداد برودة، وازداد مقتاً للوضع الذي رضيت به وعايشته سنوات طويلة. أصبحت دلال بعيدة عني أكثر من أي يوم مضى، وأصبحت أرحب بهذا الابتعاد لأنه يريحني، ويجعلني أعيش مع هذا الطيف الجميل الذي يسكنني.

قبل دخولي إلى المشفى وجدت عائدة أمامي. مشينا سوياً دون كلام، لكن شيء من حبور ملأ القلب المريض.

كانت أمي جالسة في سريرها، ما زالت في حالة توتر شديد، الممرضة تحاول إطعامها. سألتها بتخوف:

: ماذا هل من جديد؟

قالت الممرضة:

: نستطيع التغلب على الألم بسرعة، لكننا نفشل في إعادة الطمأنينة بسرعة. كلما فتح الباب تفزع. بالمناسبة صدرت الأوامر ألا أتركها بمفردها مع أي زائر.

: شكراً على كل شيء.

جلست بقربها أحاول أن أضاحكها، لم افلح، كانت معكرة المزاج. قلت ويدي تضغط على يديها:

: أمي أرجوك ساعدينا على التحسن حتى نستطيع أن نسافر؟ يجب أن تكوني قادرة فعلاً على السفر الطويل.

لم ترد عليّ بل توجهت إلى عائدة وقالت:

: أين هاني؟ يأتي ويذهب كأن الأمر لا يعنيه. ليته كان موجوداً أمس لعرف كيف يرد على تلك المرأة التعسة. ما زالت بعد كل تلك السنين قاسية طماعة وتريد كل شيء. الموت حق ومحتوم، لكنني لم استطع منع نفسي من الحزن.

تساءلت بهمس كأنني أحادث نفسي:

: ما الذي أتى بها بعد كل هذه السنين؟

: لا أعرف، صرخت فجأة هيا قومي لنتسامح قبل أن تموتي، أنت مصابة بالسرطان. لم أكن أعرف أنها ما زالت حية بعد كل هذا العمر. تبرق عيناها بجشع غريب. صحيح لا يملأ عين ابن آدم إلا التراب.

قالت عائدة:

: لا جديد، هذا طبعهم أينما حلوا.

: قالت بأنني سأفقد أحد أولادي.

قالت عائدة:

: أعرف ابنها وابنتها. شي مضحك هذه الحياة، هو الذي عرف حسن على أخته فأغرم بها وتزوجها.

رأيت وجهها يشع بحمرة غضب فقلت:

: لا تنفعلي فأنت في طور النقاهة.

: الانفعال طبيعي عند الإنسان السوي حين يتذكر النذالة والحقارة، هذا دليل أنني بخير.

قالت أمي وهي تحتضنها:

: أنت بخير، أنت ست البنات.

ضحكت من الإطراء، قلت:

: لم الغضب فالشخص لا يستحق.

: المشاعر يا دكتور هي التي تميز إنسانيتنا. في بداية مراحل العلاج أملى عليّ الطبيب لائحة من الممنوعات. قال بجدية، مدام عائدة، أرجوك، لا تحزني وكذلك لا تفرحي، لا تبكي ولا تضحكي، لا تفكري، لا تجهدي نفسك، رأيتني أصيح: قلّ لي لا تتنفسي، ممنوع عليك الحياة.

: ليس إلى هذا الحد. ستعودين فرساً جموحاً لا تهاب شيئاً.

قامت مودعة. نظرت نحو الممرضة إلا أنها لم تدعني أقول شيئاً، قالت:

: اطمئن عليها فهي بأيدي أمينة. أنتم من يتعبها.

دلال تعيش أسوأ أيام حياتها، تشيع في نفسي، كما في بيتي، كما في جسدي، صقيعاً قاتلاً، وجدته في تلك الأوقات المظلمة أشد مصائبي. كم هو موجع أن تعايش إنسان لا يشاركك حياتك فعلاً. زوجة تعيش معك، تتقاسم معك ثمار حياتك، وتتجاهل حالات سقوط النفس في وهدة قنوط.

حين أجالس المقربين مني، عيسى وجماعته، أعيش مأساة أخرى لا تقل عما تعانيه أمي. صراعها مع المرض والعلاج الكيماوي لإنقاذ حياتها، تزامن مع استفحال الصراع الخفي لإنهاء قضيتنا وتصفيتها نهائياً. بدا ذلك واضحاً جلياً بعد التوقيع الذي تم أخيراً. الأوراق التي حملها هاني للمفاوضين كانت آخر محاولة للتدخل لدفع المفاوضات إلى طريق الحق. لم نسمع تعليق من أي مفاوض حول تلك الأوراق، لم نسمع عنها في حواراتهم العلنية أو السرية التي كانت تصلنا تباعاً.

صرت أرى التفاوض كما يراه عيسى، أشد قسوة من القتال. سلمنا بسياسة الأرض مقابل السلام، أسقطنا تاريخ نضالنا الطويل، تنازلنا عن كل قيمة وعن كل ميثاق. مساومة كالسرطان بين البطش والنضال يأكل الحق كما يأكل أمي.

كنت ألحظ أمي بطرف خفي تتابع أحداث المفاوضات على التلفاز، تبحث خلسة بين الوجوه عن وجه هاني بين الكلام عن بادرت أمل ثم تيأس وتحزن. تستمر في ذبولها ونحولها واندفاعها نحو النهاية.

حالتان متشابهتان..

تسارعت الأحداث، تواطأ الجميع على تيسيير عملية البطش بلا رحمة، لم يعد أحد يهتم إن سحقت القبضة الحديدية شعباً كاملاً دون ذنب غيرنا؟ من يهمه أن ينهش المرض خلايا أمي غيري؟ رأيته بعيني يمزق رئتيها، ينفجر دماغها فينزفه أنفها، أصير أعجز من العجز نفسه؟ الغريب أنني أفكر بالأمر كأنني هاني.

أخيراً تراخت مقاومة أمي، بحدسها قدرت عدم جدوى ما يقومون به. كانت مستلقية على فراشها بوهن، عيناها شاخصة في

السقف، بعيدة عني، تهمس باسم هاني كأنها تهبه أنفاسها الأخيرة. سرى في جسدها العلاج الذي فرغ الطبيب لتوه من حقنه في وريد يدها المتدلية نحوي.

أخذت عيناي تغوصان في عمقها تبحثان عن منفذ تدخلان منه إلى جسمها لترى ما الذي دمر فيه إثر تلك الجرعة الكبيرة المرعبة. رأيت الألم يعتصرها، شحب لونها، غشيها دوار قاومته بجلد لئلا تغيب عني. بكل عجزي أواسيها، قبلة طويلة طبعتها في خشوع على اليد الممتدة مطالبة بالحياة ولا أملك الاستجابة.

كانت أصابعي مشبوكة بأصابع يدها والطبيب يحقنها بالعلاج القاتل. بدأت تسترخي، تسترد عزيمتها. خلصت يدي من يدها وابتعدت أداري عذابي وانفطار قلبي لمقاومتها.

فتحت النافذة المطلة على الحديقة، بينما كنت ابتلع دموعي، ابتعد لأتيح لها رؤية الأغصان مكسوة بثلج كوانين، لعلها تروح عنها. يا إلهي.. نور يشع من عينيها السوداوين، تحدقان بي تبحثان عن الحقيقة، لم تشغلها نسمة باردة ولا منظر الأغصان مثقلة بحملها الأبيض. تريد الحقيقة، وهي عندي، قالها لي الطبيب ببرود: "لا تستجيب للعلاج، لا رغبة عندها في العيش".

لكن هل أجرؤ على قولها؟

السؤال الأهم: هل من الممكن أن أمدها بأمل كاذب؟

فكرت بسرعة، بعيداً عن عقلية الرجل الأكاديمي، إذا لم يكن بيدي درء هذا الموت الزاحف نحوها، أليس من العدل أن أساعدها لتموت قريرة العين سعيدة بوجودي بجانبها؟ همست برجاء:

: سامي..لا أريد هذه الحقنة مرة أخرى، تميتني مائة مرة مع كل نقطة، خذني إلى البيت، سامي اشتقت لبيتنا.

ضممتها حتى صرت أتنفس رائحتها الطيبة وقلت:

: يجب أن تصمدي يا حبيبتي، ذهب الكثير ولم يبق إلا القليل، ليس أمامنا إلا الصبر يا أم سامي حتى يسمح الطبيب.

: أعرف أكثر منه، لا فائدة. اسمع كلامي برضاي عليك.

: سنرى..

هربت إلى الخارج، كنت بحاجة إلى شراب ساخن أرطب به فمي، جف ريقي منذ أبتدأ الطبيب يغرس رأس الإبرة في وريدها فتئن هي، وينفطر قلبي أنا. كنت أحتسي الشاي ببطء دون إحساس بطعم أو نكهة، التقت عيناي الهائمتان وجه طبيبها المعالج، ابتسم مواسياً. اقتربت منه أكثر، وجدت نفسي أسأله بسذاجة:

: هل تنفع هذه الحقن في شيء يا دكتور؟

لم يرد، هز رأسه يمنة ويسرة، ضاقت ابتسامته فوق شفتيه، أصبحت مسكينة، تعزيني مسبقاً عن الأهوال القادمة. عدت أسأل:

: إذن لماذا تعذبها؟ تتألم كثيراً أثناء الحقن وبعده.

رد بشكل مقتضب:

: العلاج الكيماوي له هذه الأعراض الجانبية، لكن لا بد منه.

: لن يشفيها؟

عاد ونفى بهزة رأسه، قلت:

: سيتساقط شعرها!

هز رأسه مؤكداً ذلك. قلت:

: أفعل أي شيء لتحمي شعرها، سمعت أنهم يضعون أثناء الحقن طاقية من الثلج فوق الرأس تحمي الشعر من السقوط، ستجن لو رأته يتساقط.

: حالتها متقدمة جداً، ستموت قبل أن تلحظ ذلك.

: متى؟

: أسابيع.

: إذن دعها.. لا أريد تعذيبها مرة أخرى بتلك الحقنة اللعينة.

: مهما عجز الطب تبقى المعجزة الأكبر، إرادة الله. علينا القيام بواجبنا حتى النهاية.

لم أكمل المشروب الساخن، نسيته على الرغم من أنه معلق بين أصابعي، وضعته جانباً، هرعت إليها مرتاعاً كأن الموت قد انتزعها في غفلة مني. كانت إحدى الممرضات التي تقوم بالعناية بها تقف بمنتصف الطريق فاصطدمت بها رغماً عني. نظرت إلي بدهشة، نقلت عينيها بيني وبين الطريق المؤدي إلى غرفة أمي، همست بتعجب:

: آسفة. أنت هنا وهناك في الوقت ذاته؟
أكملت طريقها على عجل، ودخلت غرفة أمي.
لن أنسى ما حييت تلك النظرة التي كانت تسكن عينيها الهامدتين، استسلام موجع وحب كبير. حين رأتني ضحكت تلك الضحكة التي كانت ترشونا بها لننفذ لها كافة طلباتها دون جدال. جفل قلبي حين هتفت:
: هاني.. رجعت يا حبيبي، الحمد لله، أنت تعرف كم احتاجك. أنت من تفهمني. عد بي إلى بيتنا، أريد أن أموت على فراشي، لا أريد ميتة في بلاد الغربة. لا تتركني أتعذب.. لم أسمع صوت آذان أو تلاوة قرآن منذ أتيت إلى هنا، هل يرضيك أن أموت غريبة؟.
ألقيت بنفسي فوق صدرها وبكيت كما لم أبك من قبل. هل هناك أصعب من موت أم بين يدي ولدها، يصارع الموت وحده، يراه يمتص روحها من كل جزء فيها على مهل ولا يملك لها شيئاً؟
لا أعرف كيف واتتني الجرأة على القول:
: فداك عمري كله يا أمي.
فهمت بأنني أنعيها، تجاهلت وأجابتني:
: لا تقل هذا، حياتك امتداد لحياتي. فكما عشت عمري ستعيش عمرك يا حبيبي. يكفيني ما لاقيت من عذاب."إنكم تنفخون في قربة مقطوعة". أتيت إلى هذه البلاد حسب رغبة سامي، كنت آمل مثلكم، لكنني الآن أدرك أنها النهاية، أعرف انك تصدقني يا هاني، فما كذبت عليك عمري كله؟
: سنسافر بأقرب وقت، اطمئني أمي وارتاحي أرجوك.

كان علي القيام بزيارة مكتب الدكتور وايلي لأخلي طرفي قبل السفر. نظر نحوي نظرة خالية من الود الذي جمع بيننا سنوات طويلة. بعينيه كما في لهجته شيء من الارتياب والتشكك. سألني:

: هل أمك مريضة حقاً أم إعفاء نفسك بطريقة دبلوماسية؟

: هل أفهم من هذا أنك تتهمني بالكذب؟

: مصادفة غريبة لا تصدق.

: لكنها حصلت. هذه إهانة لن أقبلها، خاصة منك.

: دكتور سام..الأفضل لك أن تستمع لما أقوله جيداً بصفتي صديق لك. عليك بالتراجع عن موقفك قبل السفر وتنفذ المطلوب وإلا فالعاقبة سيئة جداً.

تعمدت أن أذكره بأنني رجل قانون ولا يمكن لأحد قهري على عمل لا أريده. أنهى النقاش بغطرسة بقوله:

: نفذ خير لك. صدقني ستخسر الكثير، أكثر مما يخطر لك على بال.

: هذه لهجة تهديد أمريكية بحتة.

: نعم لمن ينسى بأنه أمريكي.

رفع هامته فوق مقعده، تمسك بمسنديه باستعلاء ظاهر، أخذ يؤرجح نفسه مستخفاً، كأنني أقول شيئاً غبياً ولا جواب له سوى هذا الاستعلاء الذميم. قلت بلهجة قاطعة:

: حسناً، ليس عندي ما يستغلونه ضدي.

: بلى..تمارس نشاطاً سياسياً ضد بلدك، القانون هو القانون.

: ما أمارسه ليس خارجاً على القانون، فأنا رجل علم وثقافة أتردد على محافل ثقافية تعنى بمشاكل العالم كله.

: لا تخلط الأمور، أنت مهتم بقضاياك كفلسطيني.

نفخ بسخرية وقحة وهو يقول:

: فلسطيني.. تسمية بلا مصداقية، أين هذه البلاد على خريطة العالم؟

: أعتقد بأنك أقدر مني على الإجابة.

: يعز علينا أن نفقد أستاذاً كفء. ظننتك أذكى من أن تلقى بغد مشرق خلف ظهرك وترحل نحو ماض لا قيمة له، جماعة مذعورة ترهب العالم.

: تعصب ذميم، خاصة إذا قيل في الحرم الجامعي.

ابتسم بشكل مقرف فانسحبت دون استئذان.

: قالوا أنك في إجازة مفتوحة.

ثارت ثائرة دلال لقرار سفري مع أمي. صاحت:
: إذا حدد الطبيب موعد موتها فما معنى نقلها إلى هناك؟
: إنها رغبتها الأخيرة.
: إذن لماذا لم تسافر مع أمينة؟
: لست بحاجة لرأيك أو للإذن بالسفر، انتهى الموضوع.
القسوة ذاتها التي تتعامل بها مع كل مشاكلي حتى مع الحزن والألم، وبتر الحديث معها أفضل وسيلة لتصمت.
لم أنم، تقلبت كثيراً، كذلك هي لم تنم. صامتان، بركان يغلي في صدري وربما في صدرها حرصنا ألا ينفجر. صمتها لم يكن كصمتي، كان له دوي أجراس في رأسي، يعيدني دائماً إلى حيث كان البدء. رغماً عني استيقظ الهاجع بعد أن سكن وهدأ، بعد أن قبلته وقبلني وتعاهدنا على المعايشة.
ثورتي تتأجج على نفسي كلما وقعت في مضيق جديد معها ولا أجد سبيلاً للخروج. رفضت منذ زمن طويل نظام حياة خال من الحب فرضته على بيتنا. نظام جاف، يحيل الحياة لأيام تمر، بلا نكهة بلا طعم، يختلط صباحها بمسائها، لولا الذهاب للعمل والعودة منه، لولا وجود هاني وهاله، لولا بقية من صبر في صدر إنسان، يعرف تماماً معنى الخراب والدمار وتقطيع الأوصال، لظهر بيتنا على حقيقته، قبر، يضم رفات رجل وامرأة.
ما أجمل العيش مع الحب في بيت واحد، لقد جربت مذاقه ووجدته رائعاً. حالة الحب بين أثنين تفرض قانوناً خاصاً، تناغماً سريعاً وساخناً، وأحياناً صعباً. لكن كل هذا يعطي للحياة نكهة لذيذة ممتعة.
الحياة بلا وهج يعني موت، تصبح الأشياء متشابهة، المكان والزمان بلا قيمة. التعامل مع الآخر مريح، لا يهمك من قريب أو بعيد، لا يشغل بالك رضاه أو سخطه، ولا تمني نفسك بشيء منه.
هذه صورة مبسطة عن حياتنا معاً أنا ودلال. ظاهرها يلمع وباطنها منطفئ تماماً، لا رغبة عندنا لإصلاح ذات البين.
رتبت وسائدها استعداداً لسهرة أرق ستطول، هذه عادتها، تسحب جسدها إلى الأعلى وتسند ظهرها وتبدأ وصلة كاملة من

الأسى والتنهد الباكي، احتضنت رأسي بين ساعدي وأطبقت جفوني رغم الظلام، وادعيت النوم، لم يعد بوسعي احتمال المزيد.

آه من ذلك التاريخ البليد العقيم. كان ذلك إثر تخرجي ونيلي درجة الدكتوراه في القانون. ذهبت لزيارة أهلي، كنت فرحاً نضراً متباهياً. العودة إلى البيت بجد ذاتها بهجة، فرحة أمي، وفخر أبي حين يرى نتاج حياة قاسية، سنوات الهجرة البائسة. كنت أتخيله جالساً وسط أصحابه وأقاربه وقد تبدل حديثه، لن يعود لتعداد الضربات على رأس شعبه، لن يسرد تفاصيل سرقة أرضه بموافقة القريب والبعيد، والتشهير به أمام نفسه والعالم. لن يفكر بالمطالبة بالإنصاف، أو الاعتراف بأن عجز رجليه لن يثنيه عن مواصلة الالتصاق بالأرض والتطلع إلى السماء.

تغير كما توقعت، صار حديثة يشوبه شيء من أمل، ونظرة مشرقة لغد قادم. شهادتي كانت شعلة أضاءت لنا الدروب وأوضحت الهدف.

لم يكن زواجي تقليدياً بالمعنى المفهوم، ولا أستطع وصفه بأنه تم بعد حب عاصف كما بررت لنفسي تخليها عن قرارات اتخذتها كأساس لحياتي.

رأيتها ذات يوم..

زرت الجامعة لأبحث إمكانية العمل بها والبقاء بجانب أسرتي. كان أبي ضد الفكرة وكذلك هاني، رأوا أن التفوق الذي حصلت عليه وعروض العمل التي تلقيتها بعد تخرجي من مؤسسات ودوائر حكومية في الغربة أكثر دعماً لمستقبلي.

أمي وحدها بفرحتها الكبيرة أصرت على بقائي. سمعت أبي يلومها مراراً، مؤكداً بأني بدايتي هنا بداية خاطئة، فنجاح كنجاحي، لا بد وأن يوضع في إطار لائق، ولن يحصل هذا في بلد عربي، أولاً على رأي المثل "مزمار الحي لا يطرب" وثانياً كوننا مهاجرين. لنصبر كما صبرنا كل عمرنا إلى أن يتحقق الحلم ونعود ونبدأ من جديد.

صرت أراها في كل مكان أذهب إليه، وأحس بشيء من إشعاع غريب يستولي على كياني. سألت عنها من باب الفضول، أخبروني بأنها ابنة إحدى الأسر الثرية والمعروفة.

ليس لمثلي أن يتجاهل ظروف قاسية تعشش في رأسي وقلبي، همي أكبر مني، تكريس سنوات طويلة قادمة لبناء المستقبل، وتحسين ظروفنا العائلية. سألت عنها مرة أخرى:

: أ فلسطينية هي؟

رد صديق بابتسامة كبيرة تحمل معاني كثيرة كأنه مكلف بإبلاغي:

: لا.. لكنها مستعدة أن تتبعك إلى آخر الدنيا.

لم ينته لقاؤنا الثالث أو الرابع إلا وقصتنا على وشك النهاية، فقد كان الهجمة قوية من طرفها، رأيتني أتخطى كل المحذورات وأؤجل كل المشاريع وأفكر بالزواج لأحظى بتلك الملكة التي ملكت عليّ فؤادي وعقلي أيضاً.

رغم لهفتي لم أخدعها، لم أكذب عليها. قلت بوضوح:

: بصراحة كانت فكرة الزواج مؤجلة، إلا إذا كنت على استعداد للعيش معي كمبتدئ.

: إذا كنت تعني الأمور المالية، لا تهتم أريدك أنت.

رأيتها تبسط الأمور بشكل أذهلني، وأكبرتها كثيراً لهذا الموقف الذي اعتبرته حباً وإعجاباً، سألتها لتؤكدهما لي:

: لماذا أنا وقد سمعت أن كثيرين يطلبون ودك؟

ردت بسعة عقل ومنطق مبهر:

: رأيتك جاداً جداً، تختلف عن كثيرين حولي، رأيتك رجلاً بمعنى الكلمة. أترى؟ ها أنت تخبرني وبكل بساطة عن ظروفك فتكبر أكثر وأكثر في نظري. هذا يؤكد كم كانت نظرتي ثاقبة وفي محلها. لم يخب ظني فيك ولن يخيب.

ضحكت بجذالة ورقة وهي تقول بهمس ألهب حواسي:

: لكن الأهم من ذلك كله، الإعجاب الذي أحسست به تجاهك، فأنت شاب وسيم وأنيق وناجح، يعني مستقبلك واضح، لم أجد فيك ما يجعلني أتردد.

: ماذا عن الحب ؟ كنت أتمنى أن أعيش قصة حب حقيقية قبل الزواج.

: فهمت..تعني أنك لم تحبني بعد لكنك معجب فقط، وماذا في ذلك؟ سيأتي الحب على مهل. بالمناسبة رأيي في الحب لن يعجبك فأنا اعتبره شيئاً ثانوياً، الأهم منه التوافق، التفاهم، والاحترام. أنا أكن لك الاحترام، ومستعدة للتفاهم. لا تضيع الوقت تقدم لأبي.

: أ بهذه السرعة؟ ماذا سأقول له؟ صدقيني أخجل أن أتقدم بصفة حديث التحرج وبلا عمل. سيسألني..

قاطعتني بحزم:

: لا عليك، قم بما هو متعارف عليه ودع الأمر لي. سأنتظر زيارتك غداً في الساعة السادسة مساء.

لوحت بيدها وتركتني لحيرتي وتوتر أعصابي، قبل أن تغيب في الزحام وقفت، سمعت ضحكاتها المرحة صاحت:

: تشجع.. ليس في الأمر إعدام بأي حال من الأحوال.

عدت إلى البيت وقد عزمت على إخبار أبي، أعرف بأن أمي ستؤازرني فيما سأقول قبل أن تعرف ما الذي سأقوله. هاني، وأفكاره العجيبة، وأسلوبه الفريد. سيسخر كالعادة مني، سيؤكد بأنني أغرق في شبر ماء فما بالك بمثل هذا المحيط.

توجهت مباشرة إلى غرفة أبي، كان غارقاً في ملكوته استدرجته إليّ، والغريب أنه أول ما تنبه لي قال:

: ما سبب هذه الفرحة على وجهك يا ولد؟

شجعني على الدخول مباشرة فيما أتيت من أجله، أخذت يديه بين يديّ وقلت:

: أبي جئت أستأذنك، سأقدم على خطوة أعرف بأنها مبكرة ولكن الأمر خرج من يدي.

سحب يديه فوقعت يدي على صدره، فتح عينيه وانتظر.

: لقد تعرفت على فتاة وأريد خطبتها، ليست فلسطينية، لكنها بنت رائعة، المشكلة أنها بنت أحد الأثرياء .

ابتسم بوهن وسألني بجدية الأب:

: ماذا يعني من الأثرياء؟ الأهم أن تكون على خلق. يجب أن تتزوج ممن تقدرك سواء كان معك أو لم يكن معك. تقدر أنك من الصفوة، عائلتك كلها من الصفوة يا بني، نحن أهل علم، هو الذي يعز وهو الذي يعمر، هل فهمت..

في تلك اللحظة دخل هاني متضاحكاً، مازح والدنا قائلاً:

: ماذا يا أبي، لماذا تؤثر يوسف علينا ونحن عصبة؟

ابتسم الشيخ، رفع يداً ضعيفة، انزلق كم جلبابه إلى أعلى كوعه، بدت مثل عود القصب. لامس رأسي وقال بصوت حنون:

: الدكتور سامي أشطر منك لقد قرر الزواج.

: ماذا اسمع؟ وساكت كل هذا الوقت. أمريكية.

ترك لي أبي فرصة الرد:

: لا بل هي عربية، تعرفت عليها هنا.

: هنا؟ متى تعرفت وأحببت واقتنعت بالزواج، كنت توهمني بأنه ليس في حسبانك؟ يا الله كم كنت أخاف عليك من الوقوع بين براثن الأجنبيات الفاتنات. على كل حال مبروك.

سمعتها من أبي، وقالتها أمي بزغرودة مشجعة، فقد كانت منفطرة القلب على حال أبي الذي أصبح قاب قوسين أو أدنى من النهاية. أرادت تفاصيل عن البنت التي اخترت، قلت بمرح:

: ماذا يمكن أن يجعلني أغير خطط حياتي غير أن الفتاة جميلة وذكية وعلى درجة كبيرة من الوعي، متفوقة على بنات جيلها كأنها تكبرهم بسنوات طويلة.

: هل تحبها؟

: إنني معجب بشجاعتها وجرأتها.

: على بركة الله.

هكذا تم كل شيء في بيتنا بمنتهى البساطة، نحن الناس البسطاء، ننتظر بين ليلة وضحاها فقدان أعز مخلوق بيننا. أمي بطيبة أكدت بأن شيئاً كهذا سوف يفرح قلبه قبل رحيله. فهو لم يعرف الفرح منذ أن تركنا بلادنا وهاجرنا.

اختلف الأمر كثيراً في بيتهم، ما رأيته هناك كان شيئاً غير مألوف لي. وقف أبوها يتفرس في وجهي طويلاً، عيناه تطوفان بنظرة فحص هيئة شاملة أغاظتني، لكن نظراتها المعجبة، وابتسامتها التي تنطلق رغماً عنها في ضحكة تحاول أن تكتمها احتراماً للموقف، كانت ترطب نفسي وتشد أزري.

اتجه بعيداً ثم عاد للجلوس على أقرب مقعد حيث أقف، تنحنح وتنهد وكأنه أمام قضاء حمّ عليه ولا يد له بدفعه. أشار عليّ بالجلوس. ما أن لامست مقعدي وقبل أن أعطي الإشارة لجسدي أن يسترخي، فاحت رائحة عطر قوية، وظهرت سيدة البيت مرحبة بفتور وبأنفة، وجلست بجانب زوجها. جلست ساقطاً على مقعدي دون انتظار إشارة من أحد هذه المرة. تمنيت لحظتها لو لم أر هذه الفتاة أو ليتها لم ترني.

دلال كانت تتصرف بكل دلال ومحبة، يبدو أن طلباتها تجاب غالباً دون نقاش، قدرت بأن شأناً كهذا يتطلب التروي.

قامت من مكانها وجلست إلى جانبي، بوداعة المرأة المحبة الواثقة مما تريد، تنظر إليّ بشغف أسرني من جديد، ملأني حماسة لتقبل كل الأوضاع من أجل عينيها اللتين كانتا ببريقهما غير العادي تصدان عني تهمة التطاول على قوانين الناس. قالت بنفاذ صبر ووجهها المتورد زادها فتنة:

: بابا..الدكتور سامي شاب ممتاز، أنا موافقة عليه. ضع يدك في يده واقرأ معه الفاتحة.

كم أكبرت شجاعتها، قلما يحدث في بلادنا أن تعلن بنت عن رغبتها في الزواج من شاب اختارته بمثل هذه الشجاعة والنضوج. استغربت قوة شخصيتها، رغم الدلال العجيب من أب عجوز وأم مفتونة بابنتها وبنفسها.

تحملت موقف أبيها وتغاضيت عن إساءاته، ابتداء من تلك النظرة الفجة التي تفحصني بها، وانتهاء بالأسئلة الوقحة. استوضح تفاصيل ليس فيها ما يخجل لكنها لا تعنيه، تحملت وأجبت، كنت أريدها. من جهة ثانية، صرت أجاريها في بساطتها وفي إصرارها على إتمام الزواج مهما كان الثمن.

سألني قبل أن يترك مجلسنا بعجرفة غير خافية:

: ماذا تملك من دنياك حتى تفكر بأن تتزوج مثل ابنتي؟

قلت بفخر:

: أملك مستقبلي.

فأكد لي كأنني لا أعرف:

: لكنك فلسطيني، ستبقى ما بقي الزمان مثل غصن قطع من مكانه، مهما أورق سيجف. هل لك أن تخبرني أين مكان إقامتك الدائمة؟ وإذا كان لك مكاناً في الوقت الحاضر هل تضمن إقامة واستقراراً فيه مثل عباد الله؟ ستبقى مشرداً وستشردها معك. أنصحك..

أحست دلال برجفة يدي التي كانت ممسكة بها بين كفيها كأنها تحميني من غضبة مفاجئة لكرامتي فأنهت الموقف قائلة:

: كفى يا أبي أرجوك، أردت أن يتم التعارف بينكما وقد تم انتهينا. أما زواجي أو عدمه فهذا شأني. ماما أنا ذاهبة للعشاء مع سامي وحين أعود سنعاود الحديث.

فجأة وجدتني قاب قوسين أو أدنى بارتباط أبدي لم أكن مستعداً له ولا على أي صعيد. راحت السكرة وجاءت الفكرة كما يقولون. لم يتدخل أحد من أسرتي ولا حتى هاني، تركني الجميع آخذ قراري

بنفسي، فقد كنت أحمل شهادة دكتوراه في القانون فهل من الصعب عليّ الوصول إلى حل سليم؟

للأسف هذا ما كان، عجزت عن أخذ القرار السليم. ربما لأنها أطبقت علي من كل الجهات فلم يعد لي منها فكاكاً. ربما ظننته الحب الحقيقي الذي لا يأتي إلا مرة واحدة في العمر ولن أجد مثله مرة أخرى. بعد ذلك صرت أردد ما قالته أمي كلما وجدتني غارقاً في حيرتي وعذابي "نصيبك يا ابني ولازم يصيبك".

أصررت على أن يكون حفل الزواج صغيراً وفي بيت أهلي. استعاد أبي نضارة وجهه وصفاء نفسه، لم أعرف أنها صحوة الموت. قال لي بعد عدة أيام فقط من زواجي:

: مسكين يا ولدي..ستعيش تعساً مع هذه الزوجة. ماذا أقول لك سوى أن أدعو الله أن يهديها ويصلح حالها، إنها مفسودة لا تصلح لشيء في الحياة.

عادت حالته الصحية للتراجع وأصبحنا نعيش في البيت مأتماً دائماً. مات بعد زواجنا بأسابيع معدودة، وجدت نفسي أرتمي على صدرها باكياً أغلى إنسان في وجودي كله، لكن للأسف كان صدرها بارداً وهكذا بقي طوال حياتنا مع بعضنا.

لم يعد لي خيار، يجب أن أبقى بجانب أمي، لم يبق لها سواي بعد وفاة أبي وزواج أمينة وغياب هاني المستمر. عملت مستشاراً قانونيا لإحدى الشركات الخاصة، ثم عدت للتدريس في الجامعة الذي اعشقه. صارت مسئوليتي برفع مستوى عائلتنا المادية أكثر إلحاحاً بعد أن انضمت لأسرتنا فتاة مدللة لم تعش حرماناً قط.

جاءتني ثورتها الأولى بشكل فاجأني وأوجعني، صرخت أمام أمي، وأختي وزوجها، وهاني، بكراهية لا توصف:

: لقد خاب أملي، لست الرجل الذي كنت أتمناه. هذه ليست عيشة، مثل هذا البيت غير صالح لمثلي. قد يناسبكم لكن أنا لا. يجب أن تجد حلاً وفوراً.

تركت الغرفة قبل أن أرد، وقفت مبهوراً، والعجيب أنني كنت أفكر بمنطق رغم كل تلك الهزة التي أصابتني. لعلي تذكرت كلمة أبي، لعلي في اللاشعور أحس بمثلها بخيبة أمل. وقفت أتمتم:

: حسناً.. سأطلقها

فزعت أمي، أحاطتني بذراعيها قائلة:

: لا تقل هذه الكلمة مرة أخرى، ما زلتما في بداية حياتكما، والبنت بحاجة لوقت لتأخذ على حياتك وتعتاد التغيير.

قال هاني وهو يمسح دمعة رقيقة نزلت على خده:

: يعز عليّ أن أطلب منك أن تكون متسامحاً رغم المهانة التي وجهتها لك ولنا. آمل أن لا يكون في قلبها شيء مما أحسسته في نبرات صوتها. أنت كبير وعظيم ليتسع صدرك لغضبها الذي يبدو أنه طبيعة عندها.

لا أعرف كيف هدأت بسرعة، بل ووجدت لها العذر، فمثلها لم تعتد أن تتحرك ضمن غرفة واحدة، يمكن لأي فرد في البيت أن يدخلها ساعة يشاء.

تكرر الأمر مرات ومرات، كنا نتناقش بصوت عال أو بالأحرى كان صوتي وحده المرتفع. في إحدى المرات قلت بانفعال أنهي الموقف الذي أحسست به مهيناً جداً لكل ماضي ومستقبلي:

: حسناً..لننفصل بهدوء.

: ننفصل..! ماذا تقول.. أتعني الطلاق؟ ليس في عائلتنا من تحل أزمتها بالطلاق.

: لكنك لست أي واحدة، فمن تتزوج بمثل طريقتك، لا تهتم بالكيفية التي تنهي بها حياة لم تحقق لها السعادة المرجوة.

صفقت الباب ورائي وخرجت إلى غرفة الجلوس، اقترب هاني مني هامساً:

: حاول إنقاذ زواجك، عد إلى أميركا. فكر بالأمر سنتناقش عندما أعود.

ها أنا ذا عائد بأمي إلى حيث تريد أن تموت، إلى بيتها. رحلة عذاب جديد. راقدة بجانبي في سكون، التقارير الطبية في حقيبة أوراقي تحدد موعد لرحيلها. ممدة فوق مقعدين متجاورين بجانبي، مغمضة العنين وابتسامة صغيرة هادئة فوق الشفتين الذابلتين.

استقرت الطائرة في الجو، استغرقت أمي في نوم عميق. انحنيت لالتقاط حقيبتي الجلدية الرابضة تحت قدمي، وضعت بها أشياء كثيرة لتكون بمتناول يدي لأسلي بها نفسي في رحلة طويلة تستنزف الصبر. نحيت ملف أمي، تحسست ملف عيسى الذي تسلمته من محاميه، رفعته، تمليت اسمي المدون بطريقة جميلة، الدكتور سامي شرف الدين" أبو هاني".

رأيت ظلال شخص يمشي جيئة وذهاباً ثم يتوقف بمحاذاة مقعدنا. لم أرفع رأسي. انحنى واقترب من وجهي، يد امتدت تمسك بالمظروف الذي بين يدي فجزعت. رفعت وجهي الغاضب إذ بي وجهاً لوجه مع عائدة. ابتسمت لي، انحنت متخطية مقعدي لتقبل وجه أمي الهامد وهي تقول:

: أستاذي.. أين المفر؟.

لم ادهش ولم أجب، كأنني كنت على موعد معها، كأن وجودها حتمي وطبيعي. كل ما قمت به أن رجوت الجالس على يساري أن يعطيها مكانه، لأنني بحاجة لمساعدتها أثناء الرحلة في خدمة أمنا المريضة.

ما أن جلست حتى مدت جسدها مرة أخرى لتصل إلى المظروف، أبعدته لا شعورياً، أشارت بإصبعها الطويلة لأسمي، توقفت داخل القوسين الصغيرين "أبو هاني". قالت:

: أهي مهمة جديدة كالتي أرسلتم بها هاني ولم يعد بعدها؟

: لا مسئولية أكبر ملقاة على عاتقنا.

كانت بانتظار توضيح ما فقلت:

: ربما قدر لنا أن نقوم بها معاً في الوقت المناسب.

هزت رأسها موافقة وابتسمت بحزن، كان أبلغ من كل حزن قرأته على وجهها منذ رأيتها. قالت:

: ها أنت تعود أخيراً من المهجر.

همست في أذنها:
: حاملاً أحزاني وخيبتي وموعداً محدداً لموت أمي. بجانبي امرأة، عيون قلبي تراها في مكانها الصحيح، لكن عقلي القاسي في أحكامه دائماً يراها علامة استفهام لسؤال كبير، لا أدري أن كنت سأجيب عليه أم سأجبن ويبقى ملقى في التقاطع.
تشاغلت عن الرد، التفت ناحية أمي التي استيقظت على صوتها فرحة، تتظاهر بقوة أعرف يقيناً بأنها لا تمتلكها. رفعت رأسها بللت شفتيها بالماء وابتسمت لنا. قلت أداعبها:
: ألن تتساءلي يا أمي من أين أتتنا هذه الحورية؟
ابتسمت، رفعت يدها الواهنة تربت فوق يدي وهي تقول:
: أنا أخبرتها عن موعد السفر.
مدت يدها ولامست يد أمي بحنان بالغ. ربما قرأت في عيني أو فوق شفتي، سؤالاً يحمل دهشتي لهذا الحنان غير المتوقع، من فتاة مثلها تعامل أمها بجفاء. التفتت نحوي وقالت:
: أمي لم تكن أماً أبداً. جميل أن تحرص المرأة على كيانها وخصوصيتها، لكن يجب أن يكون هذا موازياً لكونها زوجة وأماً.
: أخشى أن تكوني متحاملة عليها لدرجة القسوة والظلم.
: قسوة وظلم؟ آه ليتك تدري..
وقفت، وفتحت خزانة الحقائب الصغير فوق رأسها وسحبت حقيبة كبيرة ناءت بحملها هببت لمساعدتها فتركتها لي وجلست وأشارت لي بأن أضعها فوق ركبتيها.
أخرجت مجلداً كبيراً بحرص شديد، بدأت تقلب صفحاته وتشير إلى رسومات ساخرة. ترفعها وتسحبها بسرعة لترفعها ثانية بلهفة وحماسة. أمسكت المجلد بيدي وقلت:
: على مهل.. هذه رسومات عبقرية وليس كلام جرائد.
: ظننتك رأيتها من قبل. كنت أريد قراءة الإهداء:
"إلى الشابة الشجاعة كأبيها أهديها أعماله الرائعة"
: هل هذا الإهداء من أبيك؟
: لا.. إنه من شخص أحب أبي وأعجب به.
: من هو؟

: ربما سأخبرك في وقت لاحق.
: ألا تجدين الأمر معكوساً؟ أليس من الأولى أن تهديه أنت له ولأصدقاء والديك كلهم؟.
: من أين لي بمثل هذا؟ لقد رفضت أمي فكرة جمعها. اعتبرتها المسئولة عن خراب بيتنا. جمعه صديق وأهداه لي.
انشغلت بتقليب الصفحات، ثم توقفت عند صفحة معينة. أحسست بارتعاش يديها وهي تشير إلى ما نراه أمامنا:
: هذه رسوماته القاتلة. رسمها قبل غيابه مباشرة.
تمليتها، كانت لجمع من رجال مختلفي الألوان والأشكال، متناثرين فوق الكرة الأرضية، يجلس بعض منهم حول طاولة مستديرة، بعض آخر تحتها، شهاب نار أسود منطلقاً من أسفلها، كلما امتد بهت لونه وتلاشى، ينتهي في الزاوية حيث حطة فلسطينية فوق رأس بلا ملامح، لجسد بلا ساقين، ويدين بلا أصابع. وهذا تعليق صديق لأبي"لن تستطيع أي لغة، تكتب بأي قلم، التعبير عن انشغال العالم ببحث قضية وطن، دون مشاركة أحد أبنائه، وجره نحو المقصلة، كما أبدعت رسومات سالم اليوم".
دمعة رقراقة تدور في محجري عينيها، قالت بحزن:
: أعتقد أنها السبب في نفاذ صبرهم عليه فقرروا تصفيته.
أخذت المجلد وتسمرت عيناي على إبداع لا يشعل فتيله إلا بصيرة نفاذة، وحس وطني واع. قلت لنفسي، لو أنني رأيت ما أرى قبل هذا المنحنى في حياتي، لاعتبرتها عمل استفزازي، لن يقتل صاحبه فقط بل سيضر مصلحة الوطن.
: اسمحي لي أن أحتفظ به.
قالت وهي تسحبه برقة:
: لا أرجوك، سأحتفظ بأبي معي، فطالما حرمت منه.
ردت على اهتمامي بابتسامة صغيرة، ضيقة ومحسوبة، ومع ذلك فتحت كل أبواب الدنيا لقلبي المتعب من كل شيء.
أنجزت الرحلة ساعاتها الأولى. انهمك الطاقم والركاب في تقديم وجبة الغداء، نظرت إلى أمي النائمة، تساءلت: ترى هل ستصمدين حتى نهاية الرحلة وتصلين بيتك كما تمنت؟ أترى سيكون

هاني بانتظارك هناك؟ من لي بإعادة الأيام إلى الوراء لأنعم بمحبتنا الأسرية وألوذ بصدرك المعافى، المفعم بالحب، الفاتح أعطافه لكل محبيه.

بعيدة عني، لا تسمعني، لا ترى نظرتي المودعة مع كل لفتة نحوها. هاجعة في ظلام مخيف، أتراها تحلم برؤية هاني. التفت نحو جارتي، كانت شاردة وحزينة. أردت جرها لأي حديث فقلت:

: هل عرفت والدتك بمغادرتك؟

: لا.. ولماذا تعرف؟ أتخشى أن تظن بأنك تهاونت في إقناعي. هل يعنيك رضاها إلى هذا الحد؟

: أبداً.. لماذا يعنيني؟ أردت فقط تسليتك، فجاء السؤال الخطأ، على كل حال نلت عليه ما أستحق.

عدنا إلى صمتنا، استغرقتنا مشاهدة فيلم أميركي، كالعادة منذ أحس ذاك الإنسان بمدى قوته، يصور الإنسان الأمريكي بطلاً، منقذاً للعالم. جيء بالعشاء. رأيتها تستدير نحوي بكليتها وتسألني وهي ترشف ملعقة الحساء ببطء:

: ألست صديقاً لوالديّ قبل أن يفترقا؟

: حقاً كنت صديقاً حميماً لهما، وكذلك هاني وأختي أمينة، فرقتنا الظروف كثيراً، لكنها لم تقدر على فصم علاقة عمرها من قبل أن نولد. لعلك لا تعرفين بأن جدك وأبي كانا صديقين.

: غريب أمر هذه الدنيا. كان أبي يعرف أنني مولعة بأمي فكان يصر على إفهامي أنه السبب في كل ما حصل وأنها أم عظيمة، فأحببتها أكثر وأكثر. أمي بدورها أقنعتني بعدم جدوى صبرها الطويل عليه، فقدت الأمل بإصلاحه وعودته لبيته. تخيلني وقد صحوت فجأة، على حقيقة أليمة، قلبت الموازين. من أفهموني بأنه فرعون عصره ليس إلا فناناً، عشق فنه، عشق وطنه، عشق التضحية من أجله. وأمي التي ظننتها ضحية، وأماً بمعنى الكلمة، لم تكن سوى معول قاس. دمرت البيت، شردت صاحبه، أرادت اقتلاع الفن من روحه، وجذور الوطن من قلبه.

: من أخبرك بهذا؟

: عرفت عن طريق عشاق فنه، عن طريق أصحابه، عرفتها من الطريقة التي تزوجت بها غريمه. ماتت بقلبي، وأبي الميت، حي فيّ.

حين عودتي إلى الجامعة بعد الحادث الذي أودى بحياة أبي، شعرت بالفخر أنني ابنته، عزمت على مواصلة طريقه.

صمت كلانا، خشيت أن يكون ردي أخذها بين ذراعي وضمها إلى صدري. بكت فتشاغلت عن دموعها، أعرف اعتزازها بقدرتها على التفوق حتى على نفسها. وردت فكرة برأسي، لماذا لا أحدثها عن وجهة نظري حول خلافات أمها وأبيها لعلي أستطيع أن أعيد لنفسها صفاءها تجاه أمها؟. قلت:

: عائدة اسمحي لي بتعليق صغير حول علاقة أمك وأبيك، وجهة النظر هذه حيادية مائة في المائة. صدقيني ..إن لك أم عظيمة وأب عظيم أيضاً، لكن سوء الاختيار جمعهما، كانا ومنذ البداية على طرفي نقيض، وهذا تماماً ما حصل معي. العلاقات الإنسانية بشكل عام، والعلاقات الزوجية بشكل خاص، أمر بالغ الصعوبة بالغ الخطورة، ومع ذلك نندفع نحوها معظم الأحيان دون روية، فنجد أنفسنا في المكان الخطأ أو مع الشخص الخطأ، أتوافقينني الرأي؟

: مائة بالمائة..عشت هذه التجربة.

: لا شك أن هناك اختلافاً كبيراً منذ البداية بينهما، الحب، أو ما خيل إليهما أنه حب، دفع كل منهما نحو الآخر بسرعة مذهلة. كانت أمك امرأة عملية جداً، منظمة جداً، دقيقة جداً، حتى في اختيار ألفاظها. كان أبوك على عكسها، فناناً فوضوياً يعشق الحرية. ليس فيما قلته انتقاصاً من شأن أي منهما.

: ليس هذا رأي الآخرين، لقد علمت من أشخاص مقربين منهما ربما أكثر منك أنها لم تستحقه أبداً.

: لا هذا التجني، لعله رأي هاني. هاني لم يحبها أبداً، كان يراها تكبل الفنان فيه، وتستخف بمشاعره الوطنية. كان يشجعه على مقاومتها بل والثورة عليها.

: ما مصلحته؟

: دون مصلحة. هاني يقسم البشر إلى قسمين، ثوريين أو حشو بلا قيمة. هذا تقييم غير صحيح. هكذا خلقنا، بعضنا عادي وبعضنا ثوري. كنت أتفهم تصرفاتها، وأقدر حرصها على تأمين لنفسها ولأسرتها حياة أفضل من وجهة نظرها.

: وتنكرها لأصلها؟

: كان خطأ، لكنها ليست مسئولة عنه، ربما لأنها ولدت بعد الهجرة لم تجد من ينمي بداخلها انتمائها لوطنها الأصلي. أو لعلها كبتت في أعماقها وادعت اللامبالاة ظناً منها بأن ذلك يفتح أبواب العمل أمامهما. كانت طموح وهذا ليس عيباً.

: هل سمعت عن شجارهما يوم دعت هذا الرشيدي وأصحابه من رجال الأعمال للعشاء؟ حصلت معركة.

: أعتقد أن هاني هو من بلغك بذلك. لقد روى لي القصة بتفاصيلها، أدركت بأنه رأى الأمور من منظاره الخاص. اعتقد بأن أمك كانت ترجوا أن تنتهي الجلسة بتوقيع عقد عمل مشاركة بينهم وبين والدك. كانوا يملكون شركة كبيرة لصيانة السفن والموانئ، وهذه مهنة أبيك الأصلية كما تعلمين.

: هل تعتقد بأن أبي إنسان متخاذل بحاجة لحافز ليقوم بواجباته تجاه بيته وأسرته؟

: أبداً من قال هذا! أستطيع تقدير التباين بينه وبينهم، بين رجال المال والفنان. ربما لم يراعوا في سالم جديته ولا رقي أحاسيسه، تمادوا بمزاح وسخرية وهذه ليست من طبيعته.

: لم يحترموا جدية الموضوع الذي كان يتكلم به. كان يتذكر شيئاً عن طفولته التي عاشها في المهجر. تكلم عن صعوبة العيش في أماكن غير مرحب بهم. كيف عوملوا كدخلاء، وبنظرة عداء لأنهم شاركوهم حياتهم وتفوقوا عليهم. كانت تتدخل لتغير مجرى الحديث أمام ضيوفهما. تقاطعه بين فينة وأخرى، أو تصحح له، أو تخلط حديث أبي الجاد بهزل بائس. حتى ألقت الحجر الذي قتل أبي. قالت بأنها تصدق ما يقال عن الشعب الفلسطيني، أن معظمه متخاذل فرّ من الذعر وترك بلاده لعدوه، وبعضه باع أملاكه وقبض الثمن.

: ثارت ثائرة سالم وهاني.

: عاد يروي قصة كنت سمعتها منه مراراً وأنا طفلة، بأنه كثيرا كان يعود من المدرسة باكياً، لأن بعض زملائه يعيرونه بأنه لاجئ وباع أهله وطنهم. ذات يوم لم يعد أبوه يحتمل فأمسكه من أذنه ولقنه درساً لن ينساه. قال" اسمع يا بني..أي شخص، من أي بلد كان، من أي جنسية كانت، عربي أو أجنبي، يقول لك مثل هذا الكلام، ما عليك إلا أن توجه اتهامك للجميع بالتآمر والمساهمة في ضياع بلادنا. من لم يقتنع، أقنعه بوسيلة أخرى..اضربه بالحذاء"

جن جنونها وقفت تصيح: بأن هذه سخافة، وأنه يقحم السياسية في كل مناسبة فيصدع رؤوسهم بكلام نصفه كذب ونصفه الآخر تلفيق. ثم أمرته أن يعتذر للضيوف.

ضحك ساخراً وقال:

: لمن أعتذر، ضيوفك ما زالوا في بداية مشوارهم نحو المليون الأول. يعني يحتاجون إلى بضع سنين أخرى حتى يتنظفوا ويعوموا على سطح المجتمع البالي، من ثم يتمسح بهم من يعنيه أمرهم. الحقيقة بأنني آسف، ليس على ما قلته آنفاً، بل لأنني تزوجت من مثلك لا تحترم نفسها ولا بيتها ولا زوجها ولا قضيتها.

: منذ ذلك العشاء تغير شعور هاني تجاهها، لم يأت على ذكرها إلا وثارت ثائرته عليها.

سمعت عائدة تهتف من أعماقها:

: كيف تحمل هذا الرجل العظيم الإهانة ولم يطلقها فوراً؟

: أترين؟ ها أنت تنظرين إلى الأمور بمنظار هاني.

: كيف؟ ما تبريرك لمثل هذه الإهانة؟.

: كل منا يصنع حياته على طريقته. أمك كانت تبحث عن مكانة أفضل لعائلتها. لقد تضعضع وضعكم المالي بعد شهرة رسومات أبيك الساخرة وملاحقته.

: لا أفهمك..لم تستطع إقناعي بقدر ما زدتني يقيناً أنها امرأة تحب المال أكثر من أي شيء في الدنيا. تزوجت برجل سمعت أبي مراراً يطلب منها إبعاده عن بيتنا بملاييينه القذرة.

كنت أنصت ساهماً، لم يجدي أي حوار معها على الأقل في الوقت الحالي. استأنفت بعصبية:

: لم أرها إلا ثائرة على كل عمل يقوم به أبي. خاصة فنه، الذي أصبح المعبر الوحيد لـه للتنفيس عـن همومـه الخاصـة والعامـة. مـا زلت أتذكر ذاك اليـوم البعيـد. كانـت تتصـفح بعـض جرائـد الصـباح أقول تتصفح لأنني بت أدرك بأنها لم تكن غايتها معرفة الأخبار بقدر ما كان يعنيها وجود بعض رسومات أبي لتقيم الدنيا ولا تقعدها.

رأت ذاك اليوم بعض رسوماته، تملكتها حالـة غضـب. قفـزت مـن مكانهـا وهرولـت نحـو غرفتـه، تبعتهـا أنـا وأخـي، وقفنـا جانـب البـاب، نرقـب ونحـن نرتجـف هلعـاً. كـان أبـي مـا زال نائمـاً، ألقـت الصحف فوق الفراش وهي تصـيح، اسـتيقظ علـى صـوتها الغاضـب جلس في فراشه وهو يتساءل بغضب:

: لماذا الصياح؟ هل قامت القيامة؟ يا فتاح يا عليم.

: الذي ستقوم قيامته يـا سـيد هـو بيتـي، والـذين سيشـردون هـم أولادي، سأمنعك بالقوة من تحطيم هـذه الأسـرة، هـل تظـن أن الـدنيا ستعلق لك النياشين من أجل هذه الرسومات التي تفضح كل مسـتور؟ ما لنا ولهذه الأمور؟ لقد حذرتك لن يدعوك في حالك.

: لا يهمني ..ما أقوله حقائق ووقائع، لذا توجعتهم.

: لكن ما ذنبنـا نحـن أفـراد أسـرتك؟ هـل ستصـلح الكـون؟ مـن الأفضل أن تفكر بجدية أكثر، بإصلاح هذه الأمتار المربعة التي تقيم عليها أسرتك بدل هدمها.

: هذه مهمتك على ما اعتقد.

: ولماذا هي مهمتي؟

: عندك الاستعداد الشخصي لذلك. أنك من أولئـك الـذين يـرون الحياة أبيض وأسود، هؤلاء فقط يعرفون تماماً مكانهم ويتحكمون في زمانهم. أنا لا أصلح، ما زلت أراها خليطاً من البياض والسواد، من القبح والحسـن، مـن السـيئ والجيـد. صـدقيني سـأعيش لأبحـث عـن الحقيقة بلا كلل.

: ستقتل..لن يسكتوا.

: فليكن..

خرج يومها ولم يعد.

: هل اغتيل في هذا الوقت؟

: لا.. بعث برسالة لي ولأخي يحمل نفسه مسئولية هذا الفشل الذي لحق بأسرتنا. قال أنها امرأة قبل أي شيء آخر، من حقها الدفاع عن بيتها وأولادها بالطريقة التي تناسبها.

لم أسمع صوته إلا حين هنأني بنجاحي في الثانوية العامة، وتمنى لي مستقبلاً باهراً، ثم سألني عن الخطوة القادمة وحين أخبرته عن عزمي على الالتحاق بالجامعة. سألني يومها "ماذا تنوين" أجبته دراسة الحقوق، لكن أمي تريد كلية لطب. تمنى لي التوفيق وقال أمك تعرف مصلحتك أكثر منك، سأخابر سامي وأطلب منه مساعدتك للالتحاق بالجامعة.

: فعلاً لقد أتصل بي. ثم سمعت نبأ اغتياله.

: أرادوا إحداث إعاقة مستديمة بإرسال مظروف بريدي ملغم. كانت الإصابة بالغة في جانبه الأيمن. بترت يده اليمنى وإصبعان من يده اليسرى، حروق أطفأت نور عينه اليمنى.

بعد عدة أيام عادت أمي من الزيارة دون أن تراه، أخبرتها عمته بأنه يرفض السماح لها بزيارته. ثم أخبرونا بأنه سافر للعلاج. ثم سمعنا أنه مات متأثراً بالحادث.

كنت وأخي لم نفقه شيئاً من تلك الرسومات التي كلفت أبي حياته وحرمتنا منه. لكن استمرت بعض الصحف والمجلات في نشرها وإرسالها لنا بطريقة سحرية. فهمنا كل خط كل انحناء وكل فراغ وكل رمز. أخي يرسم بالأسلوب ذاته الآن.

ساعدت أمي على الجلوس، وأخذت عائدة مهمة إطعامها، فساد بيننا صمت مشوب بالترقب. قالت:

: قد أستطيع ذات يوم إخبارك المآسي التي منيت بها.

: أ كان هاني بطل أي منها؟

: بل كلها. لكن ما عنيته هو حالة الانهيار التي وصلت إليها من عدم التوازن النفسي.

: بانتظار ذلك اليوم. ثقتك بي تعني الكثير لي.

رفعت أمي رأسها، نظرت حولها ثم قالت لي:

: هاني..أين سامي، كان معنا قبل قليل؟

لم تنتظر جواب أحد، عادت للنوم. قالت عائدة:

: العلاج الذي تتناوله يخدرها، لاحظت ثقلاً في لسانها.
صمتت تنهدت بعمق وقالت كأنها تحادث نفسها:
: هؤلاء الذين نحبهم يقيدوننا حتى ما بعد رحيلهم عنا.
رشفت قهوتها واستأنفت:
: بعد حادثة محاولة اغتيال أبي التي أودت بحياته- كنت وقتها قد اجتزت امتحان سنتي الأولى في كلية الطب بتفوق، صرت إنسانة أخرى- كرهت الدراسة. امتلأت نفسي بأبي، صار أقرب إلى نفسي مني، تفجر إحساس عميق بداخلي بعظمة ما كان يقوم به. جلّ اهتمامي صار الالتزام بطريقه. أخذت أبحث عن حسن السامري. أبحث عنه بنفسي بعد رفضي الاستماع إليه حين حاول خلال فصلين دراسيين ضمي إلى إحدى جبهات المقاومة.
: ألم تكن القضية تعني لك شيئاً بعد؟.
: أبداً. علمتني أمي كيف أنشغل بنفسي عما حولي..
: لا ينضج إنسان في هذه السن قدر تعلقه بقضايا عامة.
: هل تتكلم عن تجربة شخصية؟
: بل بشكل عام. ماذا حصل بعد التقيت بحسن.
: التقيت به وفي نفسي رغبة ملحة في تحدي أمي ووصاياها. كم كان الفرق شاسعاً بين الزاوية التي حشرتني بها والعالم الكبير الذي دخلته.
: عندها قابلت هاني.
: لم أقابله إلا بعد سنة أو أكثر. أحمد الله أن كنت على قدر من الوعي حين التقيت به. فقد عشت نهايات حرب أهلية دمرت كل شيء، الإنسان والطبيعة والعمران.
: فترة حالكة فعلاً.
: كوارث وقفت أمامها مذهولة. وصفها هاني بأنها مجزرة، وبأنها وليدة أيد سوداء أتقنت أدوارها إلى حد الذهول.
: مرحى كأنني أسمع هاني يتكلم.
صمتت محتجة، ثم عدنا لأحاديث شتى، ليس لها صلة فيما كانت تود البوح به.

ابتدأت رحلة العذاب الأخيرة، أيام معدودات هي كل حياة أمي. أنا وأمينة وعائدة نتناوب السهر. كنت متيقظاً ومتوتراً، ذئباً مسعوراً في مجابهة الأيام التي تفر بسرعة طائر خرافي. أبتعد وأعود، فأرى التغير يطرأ عليها بسرعة مذهلة.

أحياناً، أرى وجهها ينضح بنضارة غريبة، تحدثني بطريقتها المشوقة عن كل شيء، عن كل فرد. أنكر مقولة الطبيب، آمل أن يخطئ الطب، أتعشم في رحمة الله.

تتألم.. أحس بها تكبت ألمها. أسألها بلمساتي إن تعبر عن ألمها، تنفي وتبتسم لي، تكتفي بأن تشد على يدي الممسكة بها، كأنها صلتها الوحيدة بالحياة. فجأة تصرخ رغماً عنها، أساعدها، أغسل وجهها بدموعي، بلا وعي أهرع إلى الهاتف، يأتي الطبيب على عجل، يحقنها بالمورفين، تهدأ وتنام.

الغريب أنها كانت تناديني باسم سامي في حالات الهدوء بينما تناديني باسم هاني وهي في ذروة الألم. تحدثني في صحوها بوعي كامل عن غيابه، مؤكدة أنه لن يعود. حين أبتئس تمد يدها تداعب وجهي وتقول بحنان بالغ:

: البركة فيك يا حبيبي، طول عمرك وأنت الأعقل والأكبر، وإن كانت دقائق. تركنا هاني إلى غير رجعة.

تجهش في بكاء مرير وتندب:

: يا حسرتي عليه، زين الشباب.

في صحوتها الأخيرة، بدت وكأنها برأت من كل شيء. وجهها يسبح في هالة من نور عجيبة، جلست في سريرها وطلبت طعام وقهوة. تناولت لقيمات وعادت وأسندت رأسها إلى وسادتها، ضحكت وهي تقول: رأسي ثقيلة مثل السكرانة، أمينة أعملي لي قهوة كما أحبها يا حبيبتي. أغمضت عينيها. غمرني التفاؤل، كنت انتظر أن تفتح عينيها لتقول لي، بأن كل ما مر كان وعكة، ستقوم من سريرها فوراً. تمشت نشوة في بدني، التفت نحو أمينة، كانت تقف بالباب وبيدها صينية القهوة، وجدتها تعيش الإحساس ذاته. عدت أتملى وجهها من جديد. تنفست بعمق وبصوت أثار مخاوفي من جديد،

اندفعت من أنفها كتلة دم متخثرة وبقيت هناك. قبل أن أصرخ رأيتها تفتح عينيها وتقول وابتسامتها تملأ وجهها الجميل:

: سامي عدني أن تدفنني بجانب قبر هاني حين تعثر عليه. أمينة وعائدة شاهدتا وصيتي.

لم تنتظر إيماءتي أو ردي فقد هامت تلحق بروحها الراحلة برضا غريب. عرفت بعدها معنى قول الله تعالى مخاطباً النفس الطيبة المطمئنة، "عودي إلى ربك راضية مرضية وادخلي في عبادي وادخلي جنتي" هل هناك أعظم من الأم؟ لا تستطيع إلا أن تكون أماً حتى وهي تموت.

ماتت أمي. يدي مطبقة على يدها الهامدة داخل قبضتي المتشبثة بها. قبل قليل، كنت أبلل شفتيها بالماء، فيخيل لي بأنها تبتسم، تصك شفتيها حتى ليصعب عليّ إيصال بعض نقاط الماء إليها، فتبلل شفتيها بريقها الناشف، وأشرب أنا دمعها المتواصل من جدولين صغيرين منسابين فوق الخدين الشاحبين.

صوتها ما زال صداه في الغرفة تستجدي الله النهاية بدلالة غريبة: "يا الله ارفع عنا العذاب إنّا مؤمنون". تحول نظرها ببطء نحو صورة هاني المعلقة فوق رأسها وتبتسم وكأنهما على موعد.

عرفت أسرار أمي ممن ورثناه عنها. قصاصات جرائد مرتبة حسب تواريخها. أحداث تطور المفاوضات. صحيفة مهترئة، عمرها بضعة شهور رافقتها خلال رحلة العلاج. بقلم أسود خيل إلي أنه قلم كحل، أحاطت بدائرة سوداء كالحداد اللقاء الشهير، مصافحة برابرة القرن العشرين عياناً جهاراً. نعي شيء مات.

صفحة تخص جماعة هاني. سطورها باهتة لكني استطعت تمييز بعض الجمل. "حتى لا ننسى لحظة السماح لهم بدخول عمقنا، تمزيق سترنا، ومباركة اغتصابهم بلادنا على الملأ" ماتت أمي مرة أخرى حين لملمت تراثها الحزين. دهشة ارتسمت على وجه عائدة، فعلقت لا تستغربي فقد كانت أم غير عادية، كانت امرأة ثورية.

انتهت أيام العزاء، وفرغ البيت إلا مني ومن أمينة التي كانت على وشك مغادرته لتعود إلى بيتها. لم أشأ رؤيتها تترك البيت، هربت من الموقف، تنقلت بين زوايا البيت وقلبي ينزف. لحظة بمنتهى القسوة، أفقدت أسرتي واحداً إثر آخر.

أول مرة أدخل غرفة هاني منذ حضورنا إلى هنا، بدت لي موحشة فارغة بل ميتة. لا شيء يخص هاني، صوره وأغراضه وأوراقه، تزعزع أيماني بعودته. أبعدت الخاطر عن ذهني، سيعود ويملأ قلبي وكل دنياي. سألت صارخاً:

: أمينة أين صور هاني؟ أين أشياؤه الخاصة؟

أجابت بصوت جاف:

: انس هذا الاسم؟

كنت أعتقد بأنها تحمله مسئولية مصابها بفقدان أمها. لكنها بعد قليل قالت وهي تقفل النوافذ وكأن البيت سيهجر:

: متى ستسافر؟

أجبت ببلاهة:

: قد لا أسافر، سأبقى هنا.

: أين ستقيم؟

: لا أفهم ماذا تعنين.

: هذا البيت لي.

: كيف تقولين مثل هذا الكلام؟ هاني سيعود، وهذا البيت سيبقى لنا جميعاً.

: إنه إرثي.

طفا حنق رغماً عني فوق نفسي الحزينة الفاقدة، تعجبت، كيف تناقش أمراً كهذا، أمنا في قبرها ما تزال ساخنة كما يقولون. حاولت ضبطت نفسي بكل قدرتي وأنا أقول:

: أمينة أنت تعرفين أن هذا البيت بيتي أنا، وما كان والدنا يملكه لم يكن بيتاً بالمعنى المفهوم، كان مجرد جدران وسقف. إن كنت تحتاجين مالاً أعطيك ما تريدين أو..

قاطعتني بحدة:

: لست بحاجة إلى معونة أو حسنة، أريد حقي، لقد قالت لي أمي أن هذا البيت لي، أما إذا أردت البقاء هنا والعيش فيه فاشتريه قد أقنع سليمان أن يدفع لك شيئاً.

ليتني أستطيع شرح حقيقة الفزع الذي أصابني. هل لأنها تفاوضني بلسان زوجها دون مراعاة للظرف الذي أعانيه؟ أم لأنها تلغي هاني من الوجود؟

جلست على أحد المقاعد في الصالة الخارجية التي تتوسط البيت، أجلت نظري فيما حولي وأجهشت في بكاء مرير، ابكي أمي وأبي وهاني، وأبكي أمينة. خرجت وصفقت الباب ورائها، فارتججت. سمعت صوت أبي يتكلم، يحكي لنا قصته العتيدة، عن يوم مروع، يوم خروجه من أرضه ووطنه، يوم تآمر عليه شقيقه واستولى على كل شيء بمعونة أهل زوجته اليهودية. صوت أمي ينهرنا ألا نتلهى عن أحاديثه، حتى وإن كان يهذي في غيبوبة. أسمع هاني يعلق ممازحاً. أراه، أراه يقوم من مجلسه بقربي ويحتضنها، أراه يدخل غرفة أبي، ألحق به على عجل، يخيب رجائي، لا أحد معي، لا أبي ولا أمي ولا هاني.

ضاق بي البيت الذي كان الدفء والحنان والحب، لم يكن بيدي حيلة أمام إقامة جبرية ألزمت بها نفسي، أبكي أمي. أبكي وأبكي. لم يبق سوى الحزن وأنا، حزن كبير أغمر به نفسي ولا أريد منه فكاكاً.

منذ حضوري مع أمي، وأسابيع احتضارها، وكل قسوة ومرارة موتها، لم أتلق من دلال اتصالاً واحداً للاطمئنان أو لتواسيني بعد رحيل أمي. لم تفكر أن تأتي، أو ترسل تعزية.

سمعت رنين الهاتف، كان عيسى، يشد من عزيمتي. حين اختنق صوتي ببكاء مكتوم قال:

: لا بد وأن تتماسك، أمامك مسئولية تجاه وطنك لا تقل بحال عن مسئوليتك تجاه أمك وأهلك. المشكلة هنا لم تنته.

: ماذا عن روكس؟

: خرج بسهولة، كأنه استعمل سلاحه في رحلة صيد.

: ماذا أسمع؟

: هي الحقيقة. تابع ما طلبته منك.

حالتي السوداوية تسيطر علي بين حين وآخر. لن يخرجني منها سوى العمل. العودة للتدريس من جديد.

حين دخلت الجامعة شعرت كأنني في مكان غريب، الأمكنة كالأشخاص، تظهر عليها علامات الحزن والشيخوخة من طول المعاناة. حزن يخيم على كل ركن وكل زاوية، حتى تلك التي شهدت نجاحاتي وتفوقي وتكريمي، والأخرى التي شهدت تمرد هاني وتحدية لكل نظام يراه مجحفاً بحق البشر.

من زاوية ما جاءت، أشرقت شمسي وانزاح هم قلبي وهي مقبلة علي. لم تكتف بمد يدها بالسلام بل طبعت قبلة خفيفة على جانبي وجهي دون أن تلامسه. تهت في عالمها، كيف أصفها، فتاة ..امرأة. شخص غير عادي، كيان مجبول من التحدي والشجاعة. هكذا اكتشفتها فترة نضالنا مع مرض أمي، تمدنا بالشجاعة والصمود.

اندفعت بكلامها لم أتابعه قدر إغراق نفسي بحرارته وصدقه، كانت تعزيني بود لكنني أحسست بها تمد يدها لتسحبني من قنوطي الذي فرض على عيني تلك النظرة السوادوية. لم تتفهم شرودي لعلها ظنت بأنني ما زلت أنشد الوحدة التي فرضتها على نفسي لإنقاذ ذاتي اللاحقة بجثمان أمي. استأذنت لقضاء شأن مهم على وعد بالاتصال لتحديد موعد للقاء. لحقت بها قبل أن تغيب:

: عائدة إنني بحاجة لخدمة منك.

: تفضل.

: أريد أن أعرف كيف السبيل للاتصال بأحد جماعة هاني.

: حين نجتمع سنبحث الأمر إذا كنت بحالة تسمح.

تركتني وانصرفت، وفي وقفتي تلك كنت أرقب مشيتها المعتدة ذاتها، تقفز مثل غزال شارد إلى غير وجهة، مع ذلك فقد رأيت تلالاً من الأحزان والخيبات والألم تجرر أذيالها خلفها..أسرعت بدوري في مشيتي وتلفت ورائي، ترى هل أجرر ورائي ألمي و وجعي وخيبتي مثلها؟

ووجدت كل ذلك، بل أكثر، بل أعنف. كان يسبقني ويلحق بي مع فارق بسيط، لم أستطع نقل خطواتي بتلك البسالة، ولا حتى بما يليق بكهل مثلي، فقد هدني الحزن.

وجدت نفسي وسط الطلبة، حاولت التمسك بحسن الظن لعلي انصفهم لم أستطع. لم أجد بينهم وبين طلبة عهدنا أي رابط، وجوههم لا تحمل ذاك النبض الشبابي الذي كان، ولا كانت عيونهم تمتلئ بذاك الزخم والإقبال للاندفاع في مواجهة الحياة وتحديها. متراخية أجسادهم كأنما يساقون عنوة للاستمرار. لامبالاة على الوجوه تصل حد الاستهتار.. شعورهم منسقة وملونة أحياناً، ألبستهم الغريبة الأشكال والألوان، واختلاطهم المشبوه، تلاحظه بوضوح، مهما أوتيت من حسن ظن وتفتح ووعي.

لم أسمع في مداخلها وساحاتها وممراتها وقاعاتها همهماتنا وحماسنا وكأننا في مكان عبادة، حين كنت طالباً أو أستاذاً مساعداً. وجدت نفسي وجهاً لوجه مع سكرتيرة رئيس الجامعة، مدت يدها لتتناول المظروف الذي كنت أحمله فناولتها إياه دون تعليق. همت بالكلام، توقفت ريثما فتحت أوراقي، ربما لتعرف اسمي أو الغرض من تقديم هذه الأوراق، ثم همست من بين شفتيها:

: دكتور سامي المعذرة المدير ليس هنا.

: متى يعود؟

ابتسمت وهي تمط شفتيها قائلة:

: لا أعرف بالضبط، سنخابرك.

قاعة الأساتذة التقيت وجوه جديدة، ووجوه أخرى كانوا بعض تلمذتي. أجلت عيني حولي أبحث عن خالد لم أره منذ مدة طويلة, تذكرت بأنه لم يحضر للعزاء بأمي.

جلست على أول مقعد صادفته انتظره، لا بد أن يحضر بين لحظة وأخرى. دخل القاعة وهو يكلم أحد الطلبة، التفت نحوه، كان كعادته يحمل الكثير من الأشياء بين يديه، على شفتيه ابتسامته ذاتها التي لا تغييب حتى وقت تجهمه. ما زال كما هو، هموم الدنيا فوق رأسه الشامخة تتحدى وإن غزاها شيب كثير.

كان الطالب يحمل له كوب الشاي، تباطأ في مشيه ريثما يأخذ أستاذه مكانه، تقدم ووضعه أمامه وهو يحاول استئناف الحديث الذي كان بينهما بجدية. ملامح الطالب الجادة ذكرتني بأستاذه، كان يرى الأشياء بعمقها فتطفو على محياه. هتفت ببساطة:

: صباح الخير دكتور خالد.

كان على وشك الرد على التلميذ حين أتاه صوتي، التفت بسرعة جهتي، قفز من مكانه وهلل لي بترحيب حار صائحاً:

: أهلاً بك..أنت هنا؟

: نعم هنا، مصير الناس أن تتلاقى. ما أخبارك؟

: كنت خارج البلاد وقد عدت أمس فقط. ما أخبارك أنت؟

: لا تسر.

جلسنا وكل منا ينتظر الآخر ليبدأ بالكلام. مد يده بكتاب سحبه من بين مجموعة الكتب التي كان يحملها وقدمها قائلاً:

: هذه مجموعة أشعاري.

تناولته من يد، تصفحت سريعاً قلت:

: "غناء الثعالب" عنوان غريب.

الإهداء موجه إلى أمه الراحلة. تحركت مواجعي ووجداني. ما زال كعهدي به، عاشقاً من قمة رأسه إلى أخمص القدمين. لاحظ صمتي وحزني. نظر بتمعن لربطة العنق السوداء التي كنت أرتديها. جذبني من يدي وقادني خارجاً عبر الممرات الطويلة إلى مكتبه. أشار لي بالجلوس على المقعد المقابل واتخذ مكانه المعتاد وراء طاولة المكتب، قال وهو يشير إلى ربطة عنقي السوداء:

: هل ماتت؟

لا أعرف لم أحسست بالسؤال فجاً وموجعاً، اهتززت فوق مقعدي، خاصة والسؤال أتى من شاعر رقيق مثله. رفعت قامتي وقلت باقتضاب:

: نعم منذ أسبوعين.

: لا تحزن.. لو كنت مكانك لأقمت لها عرساً لا مأتماً.

فوجئت باللهجة، فوجئت بما قاله، هل انقلب هذا الرجل الجاد جداً إلى رجل هازل بمثل هذا المزاح الثقيل؟ أ يسخر من الموت؟ وهذا ليس موتاً عادياً، إنه موت أم، أمي أنا. ضحك بمرارة وقال:

: لا تظن أنني أمزح. في هذا الوقت التعس يا سامي الموت هو الأجمل والأغلى. صدقني أنني أحسد من مات وكل من يموت. تعس الحظ من يعيش طويلاً مع أمة متخاذلة هانت بشكل مريع.

: أعظم حزن يصادفه إنسان في عمره كله هو موت أمه.
: وموت أمة كاملة ماذا يعني؟ شعوب عالمنا تنتهك حرماتها ومقدساتها يومياً في كل مكان، تدوس نعال مدنسة كل مراحل تاريخنا. ولا حياة لمن تنادي. أين أمجاد يا عرب أمجاد؟
سكت قليلاً ربما ليعطني فرصة أستجمع بها شتات نفسي، هجمة غير متوقعة منه شخصياً في مثل ظروفي وظروف الوطن المؤلمة، لم أرد، استأنف حديثة بسخرية:
: قبل حضورك بقليل كنت أكتب رداً على هجوم شن عليّ من بعض المرتزقة بسبب قصيدة احتجاج على صمت هذه الأمة وتخاذلها. الميت حقاً ليس بميت يا صديقي، الميت ليس من فارق الحياة بانتهاء أجله. الأحياء الأموات هم المأساة الحقيقية، هم أولئك الكثر الذين يأكلون ويشربون ويروحون ويأتون دون إحساس.
عصر الفضائيات والاتصالات وضعتنا وجهاً لوجه مع صنّاع الأحداث. كم نحن بعيدون عن عالمهم، وكم هم قريبون من أدق تفاصيلنا، يعدوننا بالسهولة ذاتها التي نعد بها خراف الأعياد. صحيح بعضنا يصرح ويفتي لكن كل ذلك قبض ريح. من بيدهم المصير لا يملكونه بحق.
: مساكين.
: مساكين؟ أبداً.. تأمل وجوههم تجد بها دعة وطيبة بينما قلوبهم ممتلئة بالقسوة. يتعففون والفسق يعشش تحت أردانهم. يدّعون الصدق وهم الأشد كذباً ونفاقاً. يمدون يد العون بكرم حاتمي وهم أبخل من بخلاء الجاحظ. يدرسون في أرقى الجامعات ويعودون أكثر جهلاً. ألا نغبط من خرج من هكذا دنيا؟
: ماذا تقول يا خالد، أرجو ألا تكون تعني الموت حقيقة، فالموت شيء مرعب، لا أرى فيه حلاً لمأساتنا.
: لعل دوي موت جماعي احتجاجي يفتح القلوب والعقول أمام هذا اللا معقول الذي يحصل.
: حالياً ما زلت ملتاعاً من موت أمي وقبلها أبي، وأخي الذي فقد ولا أعرف إن كان ميتاً أو حياً. لقد ماتت أمي حسرة وكمداً وحزناً عليه.

: كانت مريضة بالسرطان، أليس هذا صحيحاً؟
: نعم صحيح..لكن ما حصل قبل موتها، أكد لي أن شوقها له قتلها. تصور أنها كانت تناديني باسمه في أيامها الأخيرة.
: لم تخلط بينكما وأنتما طفلين كما كانت تقول، لماذا الآن؟
: لا أعرف. صارت تناديني بهاني فأقبل عليها دون تردد على أنني هو. بل أتقمص شخصيته وأعاملها كما كان يعاملها، أدللها أسايرها.
: حاولت إسعادها.
: كنت أشعر بالسعادة وهي تناديني باسمه. نزعت خاتم زواجي من إصبعي وضعت ساعتي في يدي اليمنى كما كان يفعل، قلدته في طريقة لبسه، في تسريحة شعره، في تدفق كلامه. شربت سجائره بطريقته الشرهة ذاتها.

لا أعرف إن كنت قد تماديت من أجلها أم من أجل نفسي. كانت فرحة بما أقوم به. كانت تسرق علبة السجائر وتخفيها تحت وسادتها، أبدأ بحثي عنها فتفاجئني بها، ثم تحتجزها وهي ترجوني أن أخفف من أجل صحتي. نظراتها وهي ترمقني مليئة بالحب والسعادة والامتنان. اكتشفت بأنها كانت تعرف بأنني أساعدها في تخطي فكرة فراقها الدنيا دون أن تراه.

: يا إلهي..

: حين رشفت آخر جرعة ماء من يدي ابتسمت بوهن، بدت ابتسامتها غريبة بين قسمات الوجه المودع قالت بهمس: "سامي عدني بأن تنقل رفاتي إلى جانب قبر هاني حين تعثر عليه" أطبقت بكفيّ فوق كفها فإذا بها ميتة. لا أعرف ماذا وصلها من نظراتي البائسة اليائسة فقد أطبقت عينيها وهي تقول"حزني عليه قتلني".

تحرك بسرعة من مكانه نحوي، أمسك بيدي مواسياً واضعاً كفه الآخر فوق كتفي، قال:

: صدقتني الآن..هنيئاً لها هذا الموت، فالدنيا التي أصبح البشر فيها ذئاب أو حملان لا تستحق العناء. معادلة كهذه مرفوضة، سواء أكانت قانوناً سماوياً أو قانوناً بشرياً.

صمتنا كان أبلغ من كل كلام. أفكر بالطريقة المثلى للرفض كما يراها خالد. تخيلت أننا ندفع حياتنا ثمن تحدينا قيم جديدة تفرض علينا كمرض ميئوس منه هو حل جائر. سمعت نفسي أقول:

: من سيسمع صرخة موتنا المدوية ويحترمها دون وصمنا بالجبن والخيانة والعمالة وهذه اللائحة الطويلة من التهم الجاهزة؟

: هذه أمنيات، مثل غيرها من أمنياتنا التي تذروها رياح الظلم. أين تعمل هذه الأيام؟

نقلة سريعة مذهلة بين جدية الحديث الدائر بيننا منذ قليل وبين سؤال روتيني يسأله الأصدقاء عادة حين التلاقي. مرة أخرى ارتعدت أوصالي، رعدة تشبه الأولى حين سألني"هل ماتت" حاولت مجاراة بساطته فأجبت:

: أفكر بالعودة للتدريس هنا ريثما تهدأ الأمور.

: أي أمور تعني؟ كنت آمل أن تكون قد فكرت بالعودة احتجاجاً يشبه احتجاجي على القوى التي لم تعد تتباهى بشيء قدر قهرها للحق. أي زمان أسود هذا؟

كعادته حين يتوهج يصبح كتلة عذاب. هذا الصرح الذي ملأ الدنيا أفكاراً وأخلاقاً وأشعاراً وحباً. يقاوم الإحباط بكل ما أوتي من قوة عقليه وروحية، ينفثه تحدياً، لمن لا يملكون من دنياهم سوى مظاهر سلطة ولا شيء آخر، يسلبوننا حقوقنا ولا ترف لهم عين.

تذكرت ما أحمله من الدكتور عيسى، قد تعيد له صلته بالماضي وتصله بالأمل. قلت:

: خالد..لقد كلفني الدكتور عيسى باستقطاب المثقفين المهتمين بالقضية وطرح بعض الأفكار للعمل بها بجدية.

لم تدب الحماسة في وجهه. قلت:

: إذا أردت أن تشارك بالمهمة تفضل وإلا فانس ما قلت.

عيناي منصبتان في العينين المتعبتين الناظرتين للبعيد. رأيته يرفع يده بتحية عسكرية ويمدها معاهداً بأنه معنا. فرحت. قبل مغادرتي مكتبه وضعت ديوانه الشعري على مكتبه فقد كنت ما زلت أحمله في يدي فترة المحادثة كلها. أعاده إلي قائلاً:

: هذا لك يا صديقي. ألا ترغب في معرفة متى تعلمت الثعالب الغناء؟.

: أشكرك.. بعد قراءتي للديوان سأرى مدى إجادتها هذا الفن. لعله يشبه غناء هذه الأيام، يخرق كل قواعد الذوق والفن والأخلاق.

: بل يشبه غناء الثعالب الرمادية، تقوم من مدافن الثلج الموسمية أشد مكراً وأكثر ودهاء. هل هناك أقبح من أصوات تتحدث عن الحريات وعن حقوق الإنسان، ثم تكون أول من تنتهك الحريات والحقوق؟

تنهدت بألم وهممت بالخروج، لم أشأ أن أرد وأزيد الطين بلة. تمسك بيدي وقال:

: اعرف بأنك من أشد المتحمسين لغنائهم. هل سيأتي يوم وأصدق بأن كل ما أسمعه غناء كما يقولون وليس عواءً؟

: لا تصدق يا خالد أن هناك من يقتنع بأن أنات الضحايا لا تساوي شيئاً مقابل الغد المأمول. كنت أدندن نغمات أغنياتهم كما يفعلون، وأتمايل على إيقاعاتها الصاخبة كمجنون. حتى رأيت رؤى العين الأصابع ممدودة نحو العيون التي لا ترى ما يرون لتفقأها. كفرت بالحضارة وبالعلم، ثم انفجرت مثل عاصفة عاتية.

: لقد خلعت عباءتهم إذن. كيف كان موقفهم.

: بهتوا..

: حتما سيبهتون. تمرد المريدون ليس بالشيء الهين.

: انكسر شيء ما في نفسي، تطايرت الشظايا بشكل عشوائي مثل زجاج مسلح تعرض لمادة ناسفة. بعدها فقد كل شيء معناه، فقد رأسي اتزانه، فرغ من كل ما فيه، تطوح فوق صدري كالذبيح. حتى وجهي لم تعد له الملامح ذاتها.

: ماذا عن هاني؟

: المشكلة كيف أحدد وجهته. من أسأل عنه؟.

: لم ينتم لجبهة دون أخرى. كان صاحب مبدأ رائع وعظيم. استطاع كسب احترام الجميع. تراك كنت تفهمه؟

: أكيد.. لكنني كنت أرى هدفه صعباً بل مستحيلاً، هماً كبيراً ومخيفاً. كنت أعتقد بأن تحرير الأوطان في زمن الباطل حلم، لا نملك وسيلة واحدة لجعله حقيقة.

: وجود إنسان مثل هاني يكشف زيفهم، ويحيل وهج الحقائق إلى نار حارقه. لعلهم أرسلوه في مهمة مشبوهة ليقتل بمعرفتهم.

هربت من أمامه مذعوراً لمجرد ذكر الفكرة فكيف بمناقشتها، ثم لماذا استبق الأحداث، سأبحث الأمر مع عائدة ومع حسن ومع كل من عمل معه أو اقترب منه.

أثناء مغادرتي الجامعة مررت بمكتب الإدارة لأترك عند السكرتيرة رقم هاتفي، إذ بها تخبرني بأن المدير يريد رؤيتي في أي وقت عدت فيه.

ما أن رآني حتى ناولني رزمة خطابات من دول عربية معنونة فعلاً باسم الدكتور شرف الدين العبد الله. قلت:

: هذا ليس اسمي.

سألني بلؤم:

: أمازلت تحمل الجنسية الأمريكية حتى الآن؟

لم أرد، وضعت المظاريف في جيبي وغادرت مكتبه عائداً البيت، صار احتياجي لوجود هاني أشد، صارت أيامي أكثر سواداً، ونفسي تتخلى عني وأنا في ذروة المحنة.

في منتصف الطريق تذكرت، كان علي انتظار عائدة، تلفت حولي لم أجد أحداً أعرفه. عدت لبيتي سيراً قدمي، أفكر بعائدة، لأخفف الضيق عن صدري.

عائدة.. تعيش بداخلي دون أن تحس بي، لن أجرؤ على البوح. أحس أن بداخلها بقايا حرائق عاشتها، ينشر دخانه حلقات من حولي. تدمع منه عيناي، يحول بين رئتي والهواء النقي، لكن لن يستطيع أي شيء تهجيري من هناك.

مددت يدي لإخراج مفاتيحي وإذ بالأوراق الراقدة في جيبي هي التي خرجت من مخابئها. تساءلت: هل محض صدفة هذه العروض من عدة دول. من قدم طلبات للعمل؟ من أمر ببتر اسمي وتشويهه وتوظيفي بعيداً للتخلص مني؟

كرهت نفسي، ماذا هل سأبقى ملتزماً وأتساءل على طريقة الفلاسفة لماذا وكيف ومتى وأين؟ لا بد من معرفة سبب هذه العروض المغرية. ذات يوم قال هاني:

: مؤامرة.. كل ما نعيشه مؤامرة. لا تصدق غير هذا.

كنت أرفض هذا المعتقد، أرد بقسوة:

: هذا معيب جداً، فبقدر ما نرفع قيمة قدراتهم على اللعب بمصيرنا بقدر ما نقلل من قيمة عقولنا ونجاحنا.

ماذا أقول الآن؟

قد أدعي مثلاً بأنهم يقولون لي بأسلوب آخر أين المفر؟ إذا لم ترد أن تكون هنا فكن هناك. شيء مثل هذا يعني حقيقة واضحة غائبة بأن هناك ستصبح في القريب العاجل مثل هنا. لكنني رجل علم وليس رجل سياسة.

لم أنم.. سهرت أفكر حتى الصباح. نسائم الفجر تدخل من مسام جلدي فتشعرني بوجودي الحيّ. انتقلت إلى غرفة أبي، ارتميت فوق سريره، أغمضت عينيّ. رأيته بكامل هيبته، يقف تحت قدمي على حافة السرير يمسّد قدميّ، قبل أن أسحبهما مستكبراً ما يقوم به، ضحك، مشى نحو الأريكة وجلس بجانب أمي، كانت مبتسمة، تنصت فرحة بكل ما يقال، كعادتها مجرد سماع أصواتنا يفرحها، دليلها القوي بأننا بأحسن حال.

تذكرت أن أبي كان عاجزاً عن المشي، فجلست فوق السرير استعيد مشيته التي لم يقدر لي رؤيتها. أسعدني كثيراً هذا التأمل الذي لم أكن أجد وقتاً كافياً لممارسته في السابق. استعدت منظره جالساً في هذا المكان حيث أجلس الآن مستنداً على وسائده، يقص علينا رواية الخروج من الجنة كما كان يسميها. لم تكن تعني لي الكثير، استغربت هذا التوق لسماعها الآن. ولكن كيف؟.

ها هو كما كان مستغرقاً في عالمه الخاص، يحكي الحكاية. أحسست بحرارة يده فوق كتفي، سمعته يقول:

: هل تعرف لماذا أصرّ على مجالستك كل يوم؟

: بالتأكيد أعرف يا أبي، سأكون كما تتمنى..

: أريدك أن تعي الدرس جيداً. من أنت؟ وإلى أي أرض يجب أن تعود؟ تمسكوا بالعودة مهما كانت التضحيات.

قبل أن أعده كان قد أغمض عينيه، وألقى برأسه على وسادته، ويدي بين يديه الاثنين. أدركت بأنه يمارس الطقوس ذاتها، يعود إلى حيث يريد بخياله.

عشرون عاماً وهو يحكي، لم يخطئ مرة في تفاصيل أو ترتيب جمله وأحداثه، رواها لنا، ولكل من عاشها معه، وللأجيال التي كبرت أو ولدت في الشتات، رواها لكل من زارنا من أهلنا ومعارفنا القدامى والجدد.

سمعتها هذه المرة بشكل مختلف عن جميع المرات السابقة، خيل إليّ بأنني أسمع آخر أنفاسه تتردد قبل رحيله وهو مصرّ على روايتها. بصوت هادئ، ولغة جديدة، يرد على حيرتي:

: الآن. نقاط جديدة توضع على الحروف. ربنا يعينكم على الأيام القادمة. كل شيء يتغير. لم يحصل في التاريخ أن أنتزع شعب من أرضه ليسكنه مشتتون بمباركة العالم. قدر لا بد وأن ينفذ. لا تستصغروا أنفسكم، إمكانياتكم تكبر أمام الإصرار.

وجدتني أغالب دموعي كأنه أحس بما يعتريني قال:

: أبك يا ولدي..لا تصدق مقولة أن الرجال لا تبكي. الرجال تبكي بنحيب أشد من نحيب الثكالى أحياناً، ضياع الأوطان أمر جلل. نعم لقد بكينا يا ولدي وما زلنا نبكي وسنظل نبكي، وإلا، ماذا سنفعل إزاء القهر والغدر والخيانة.

أحسست بالسرير يهتز، كنت أنا من يبكي، بكائي يهز الغرفة كلها، بكيت أبي والوهم الكبير الذي عاش فيه. فكرت..هل سأجد في نفسي مثل هذه الحماسة ذات يوم وأنا أروي لولديّ شيئاً عن بلادهم التي لم أعرفها إلا من خلال حكايات أبي؟

استيقظت في الصباح الباكر على أصوات خارج الباب، فتحته والتقطت جرائد الصباح. بجانب الباب صندوق كرتوني كبير، سحبته للداخل وفتحته. يا أله ما أكرمك، لقد اهتدت أمينة إلى جادة الصواب، هذه أوراق هاني وكتبه، لم تتصرف بهم كما أوهمتني. وجدت نفسي أحدث هاني: هذه أوراقك وكتبك وصورك وأشيائك. أسرعت إلى غرفتنا المشتركة القديمة وأنا ما زلت أحدثه. طالعتني صور عائدة بجانب حسن وهاني خلفهما يحتضنهما. أعدت كل الأشياء في أمكنتها. الصور والكتب والأوراق.

اعتليت السرير، حسناً، لنقلب دفاترك. هذا دفتر خاص يشبه دفتر مذكراتي الأسود، كان يدون كما كنت أفعل. هل هذا توارد خواطر التوائم كما يقولون؟ اسم عائدة تحتفل به معظم السطور. أحرف اسمها تحيط بخريطة الوطن السليب، تملأ مساحة الخريطة تتعانق مع كلمة عائدون.

ماذا بينكما؟ لماذا لم تخبرني بأنك تعرفت عليها؟ ما هو الشيء الذي ربط بينكما؟ أعرفك تمام المعرفة، إذا وجدت بينكما علاقة من نوع خاص فلا بد وأن تكون قصة جادة، فمثلك يترفع عن الهفوات. ألقيت الأوراق والكتب جانباً وتمددت فوق السرير، حجبت بذراعي عن عينيّ نور الصباح الشحيح الذي كان يأتيني متسللاً من نافذة الغرفة. حاولت أن أتذكر إن كنت قد أخبرتني أي شيء عنها، لم أتذكر بل على العكس، تذكرت أنني في المرات العديدة التي حكيت لك عنها كنت تسألني عمن تتكلم؟ فأذكرك باسمها الكامل منهياً الحديث ابنة سالم العمر صديقنا فتهز رأسك وتنتبه لما أقول.

متى التقيتما وكيف؟

لقد عدت إلى أمريكا محاولة مني لإنقاذ زواجي كما طلبت مني. نسيت عائدة تماماً. التقيت بسميحة في المهجر مع زوجها الثاني، كانت تذكرها وتنقل أخبارها دون أن يثير فيّ أي اهتمام. إلى أن كان لقائي الثاني بها. ليتك تعرف كيف أثرت بي، كيف التصقت بها. كأنها قطعة موزاييك اكتملت بها نفسي. قطعة نادرة، ظل مكانها شاغراً في تكويني إلى حد أن أدمنت هذا النقص.

في صباح اليوم التالي، عدت للبحث بأوراق هاني المبعثرة. أسماء وعناوين كثيرة وهمية، هو وحده يعرف مفتاحها. ليس من اسم واضح سوى حسن وعائدة، ربما لارتباطه بهما. الأوراق والكتب تؤكد أن ثمة من عبث بها قبلي، أخذ ما أخذ أو أعدم ما أعدم. شيء ما دفعني للشك بأن هاني من فعل ذلك. لكن لم هذا الحرص على الاحتفاظ بكل ما يخصها؟ صفحات بخط نسائي قد يكون خطها، قرأت بعضاً منها ولم أخرج بنتيجة ما.

هل أحبها إلى حد أنه لم يستطع أن يشوه أحرف اسمها أو محيه؟ أم هناك من عبث بالأوراق وترك للباحثين بين الأوراق وليمة دسمة؟

كأنها خرجت من بين السطور، من فكري رأيتها واقفة على باب البيت تنتظر الأذن بالدخول. جاءت.. محملة بعبق الحياة. قالت وهي تجلس على مقعد معين:

: كلما حضرت هنا أجلس على المقعد ذاته.

: ماذا لو وجدت من سبقك إليه؟

: أطلب منه أن يتركه لي. ما هذه الأوراق المبعثرة حولك، هل تنوي تأليف كتاب؟

: لم لا..أعتقد أن هاني يستحق. ما رأيك؟ هل تساعديني؟

: بلا تردد..فأنت لا تعرف ماذا يعني لي.

: أتمنى من كل قلبي أن أعرف.

: أنه الرجل الوحيد الذي أحببت.

صمت متألماً، شعرت بهزة خفيفة في جدران البيت الذي عشت فيه مع هاني أعواماً طويلة. كل منا كان نصف الآخر. ما يفرحني يفرحه، وما يحزنني يحزن. فهل بلغت سخرية القدر حداً أن جعلتنا نقع في هوى امرأة واحدة؟

: من أين ستبدأ؟

كنت أتمنى أن أعرف تفاصيل حبها له، ومع ذلك فقد قدرت لها هذه النقلة التي أعادتني إليها. قلت مستوضحاً:

: أبدأ؟ ماذا أبدأ..

: الكتاب..
: الحقيقة أنك من اقترح الفكرة الآن.
: وهذه الأوراق من حولك.
: كنت أقرأ أوراق هاني وربما بعضها لك.
: أرني..
قفزت من مكانها وافترشت الأرض حول أوراق هاني وكتبه وأخذت تقلب فيها، بقيت على جلستي الساهمة أرقبها، أقرأ تعبير وجهها، تتلون بلون الفرح مرة، والأسى مرة، والخوف مرة. قالت وكأنها تخاطبني متوددة إلى هاني:
: لا تنكر بأن الفكرة رائعة! فإذا كنت لا تستحسنها سأقوم بها بنفسي. هل تترك لي هذه الأوراق بضعة أيام.
: لم لا ننفذه معاً. قلت أنها فكرتك ولم أقل لا أريد تنفيذها.
: حسناً..
أخذت الأمر بمنتهى الجد، وقفت واتجهت حيث تركت حقيبتها والتقطت من داخلها دفتر ملاحظات صغير وانتزعت من أحد جوانبه قلما، وقالت وهي تعود إلى جلستها الأولى:
: لنبدأ في وضع مخطوط العمل. ما رأيك أن نختار أشخاصاً حقيقيين كانوا حول هاني بحيث يمكن لأي قارئ أن يتعرف عليهم، حتى وكأننا نعطيهم أسماء وعناوين أيضاً؟
: مثل من؟ هل ستختارين أشخاصاً من الصنف الجيد أم من الصنف الآخر المرصوص في كل زاوية؟
: أقول كتاب حقيقي، عن قائد وقضية، يعني سنكتب حياة حقيقية، وهي حتماً ستكون توليفة تتضمن الصنفين، هكذا خلقت وهكذا ستبقى.
: ما تقولينه رائعاً حقاً. لن تقييد هؤلاء الأشخاص بأي قالب، حالما يولدون على الورق سنتركهم للظروف التي عاشوها والتي ما تزال تتفجر كل يوم، نضعهم على بداية المشوار. سيبدأ كل شخص منهم حياته كما يبدأها أي منا، ثم تسيرهم الأحداث التي لا بد وأن تجري معهم كما جرت معنا.

: صحيح ما تقوله، أعتقد بأن معظم الناس تتمنى العيش بهدوء وسلام، لكن تحت ضغط ظروف تفرض عليهم يتحولون دون أن يدروا إلى الدفاع عن أنفسهم بكل الوسائل.

: هذا متوقع جداً، ألم تقولي الآن بأن الحياة تجمع كل الأضداد؟ إذن لا بد وأن تقع أمور ليست في الحسبان يرغمون على العيش بكنفها وخوض غمار التجربة ولن يهتموا للنتائج طالما بذلوا الجهد الكافي للدفاع.

: أقول لك حقيقة ما أشعر به، دون أن تظن بأنني أتكلم من منطق العجز والمرض الذي عانيت منه. نحن في دائرة خانقة. كأنه الإفلاس.

: وبدوري سأقول لك أمراً هاماً، هو مجتزأ من الأوراق التي كانت بحوزتي في الطائرة وأردت معرفة ما بها. أخبرتك وقتها بأن هناك مهمة علينا إنجازها. الآتي شيء يشبه الثورة منا وعلينا، ثورة فوق المنطق، ربما كان لها ضحايا..

: دون تفاصيل أنا موافقة لكن أخبرني متى؟

: لقد بدأت فعلاً. نحن نعيش في قلبها. أين اختفى هاني؟ أين ميثاق النضال الذي كان هو وجماعته حريصون عليه كل الحرص؟

أين الأشخاص المسئولة التي تدرس بامعان كل خطوة تخطوها ثم تكون على قدر المسئولية؟

ما نعيشه شيئاً يشبه المحال، هل رأيت أو قرأت عن ثورة عرف رجالها معنى من معاني الخوف؟

: لا..

: ما سنفعله شيء يشبه انتفاضة فكرية لتحدي كل هذه الخطوط الحمراء.

رنين جرس الباب يتواصل دون انقطاع، وقوة ما تدفعه كأنما عاصفة تحاول فتحه بالقوة. جفلنا، اتجهت أنظارنا معاً نحو ساعة معلقة على الجدار أمام أعيننا وسرت دهشة

فـي وجهينـا، فالسـاعة كانـت الواحـدة ظهـراً، مـن سـيكون هـذا الطارق المستعجل والقلق في مثل هذا الوقت.

فتحـت البـاب، أنـدفع إلـى الـداخل عـدد مـن رجـال الشـرطة برفقـة سـليمان زوج أمينـة. قـذفوا إلـى الخـارج بقطـع الأثـاث التـي تـواجههم. تخلصـت بسـرعة مـن هـول المفاجـأة، حاولـت أن أستوضح سبب ما يقومون به. قال زوج أختي:

: لا سبب سوى أنني أريد هذا البيت.

: ماذا قلت؟ بأي حق؟

: بقـانون وضـع اليـد. عليـك العـودة مـن حيـث أتيـت. لقـد تركـت أمـك تعـيش هنـا رحمـة بهـا وبمرضـها، كـان مـن الممكـن أن أسـتولي عليـه فـي غيابكمـا أنـت وأخيـك. ذاك الإرهـابي الـذي استفرد بكل شيء في بلدنا.

: سـليمان مـا هـذا الـذي تقولـه، البيـت لنـا، أبـي اشـتراه منـذ هجرتنـا بمصـاغ أمـي، وقـد جـددت بنـاءه مـن مـالي الخـاص، لـيس لـك حـق فيـه ولا حتـى لأمينـة. لا أعـرف لمـاذا أناقشـك؟ أصـنع مـا بدا لك ولكن على جثتي.

: الآن تتشـاطر علـيّ، لمـاذا لـم يقـل أبـوك مثـل هـذا الكـلام لمن أخـذ منـه وطنـه كلـه عنـوة؟ لـو فعـل لمـا كنـت أنـت هنـا، ولمـا قمتم بدوركم باغتصاب بيوتنا وأعمالنا وبلادنا.

لـم أرد ولا عائـدة ردت، بقينـا صـامتين حتـى أنهكـوا مـن التعـب، وسـليمان واقـف مثـل القـدر، يتصـرف بملكـه وعبيـده بإشارة من إصبعه.

رأيـت عائـدة تسـحب الصـندوق إلـى جانبهـا بعيـد عـن متنـاول أيـديهم وتبـدأ فـي جمـع الأوراق والكتـب المتنـاثرة هنـا وهناك. رفعت إليّ وجهاً صخرياً وقالت بغضب:

: لا أعـرف لـم لـم تطلـب الشـرطة حتـى الآن؟ كـائن مـن كان هذا فليس هناك من هو فوق القانون.

ضحك سليمان وهو يشير إلى نجوم تلمع فوق أكتافه:

: نحن القانون.

: لقد انتهى عهدكم.

: لا بل انتهى عهدكم أنتم. هل أنت عائدة العمر؟ لا تستفزيني وإلا قطعك هؤلاء الرجال أمام عين هذا الدكتور. أنت تعرفين كيف سيكون ذلك.

بصقت عليه وعلى رجاله ثم استدارت بهدوء والتقطت الهاتف. رأيت الرجال تتوقف بإشارة من سليمان، قال:

: سأمنحك فرصة أخرى لتأخذ ما تريده وتدبير أمورك، حين أعود، لا أريد أن أراك هنا.

قلت له بهدوء:

: قلت لك على جثتي، هل تفهم؟. عليك بقتلي، الآن، أو في الغد، أو بعد مليون سنة، لن أتنازل عما أملكه. على الأقل حتى لا ارتكب الخطأ ذاته الذي أرتكبه أبي وذكرتني به الآن.

خرجوا وتركوا كل شيء على حالة، حالة ذهول أصابتني، سمعت عائدة تقول:

: كأنك المتحضر الوحيد في العالم. أنت في جانب والعالم كله في جانب آخر. هذه مصيبة العقول التي تحتفي بحضارة مكتسبة، لا تعبر عنا ولا طبيعتنا تتحملها. اسمح لي، أمثال هذا بحاجة لمن يلقنه درساً قاسياً ينسيه اسمه وغطرسته. لعله يكون نصفك الآخر،هاني.

لا أعرف إن كنت ساعدتها في استعادة الأشياء الملقاة في الخارج أم تركتها تقوم بذلك بنفسها. كلمتها كانت أقسى من كل ما فعله سليمان قبل دقائق. لذت بصمت قاتل، كنت فيما بيني وبين نفسي أحترق، أود أن أعرف ما الفرق بين تكوين هاني وتكويني مع أننا توأمان.

سمعت عائدة تقول:

: الساعة الآن الثالثة بعد الظهر، لقد هدنا الجوع، ألا تريد أن تأكل. هيا لقد أعددت لك طعاماً شهياً.

فاحت رائحة طعام ذكيه شعرت بعدها بالجوع فعلاً. جمعتنا مائدة واحدة وطبق طعام واحد، كنت على استعداد لتناول كل ما وضع أمامي. كانت تلك الوجبة أشهى طعام تذوقته منذ بداية رحلة اغترابي.

بعد الغدا عدنا لأخراج الأوراق من الصندوق، قلت:
: لا تحاولي سؤالي عما جرى ولماذا جرى لأنني مثلك لا أعرف أي شيء. ربما الجشع.
: لا أعتقد..لعل تفسيرها في مقولة لنزار قباني قرأتها له ذات يوم وآمنت بها، بأن كل شيء أصبح سياسة أبتداء من لقمة العيش وانتهاء بالحب. هيا إلى العمل. ثمة أوراق ربما كانت بخطك لأنني أعرف خط هاني، قرأت فيها اسم هاني عدة مرات لم لا نقرأها لنبدأ بها.
: إنها رسالة طويلة أردت إرسالها إلى هاني حالما أعثر له على عنوان أو شخص يعرف مكانه. ها هي.
أمسكت بها وأجالت نظرها في الصفحة الأولى وهي تقول باسمة:
: قبل القراءة أريد القيام بجولة سياحية في بيتكما، هل تسمح؟
: سياحة؟ إنه بيت صغير، يمكنك رؤية كل زواياه من مكانك. كان يمكننا أن نسمع همس بعضنا البعض في تلك الأيام الجميلة. تفضلي وافعلي ما يحلو لك، أنت في بيتك، أو في عرين أسدك الغائب كما تظنين.
قالت وهي تقف على باب غرفتنا القديمة:
: ماذا أسمع؟ هل هذا استهزاء بشخصية بطل أم هي غيرة من شخص غائب؟
: لا هذا ولا ذاك، إنه محاولة للترويح عن الذات.
عادت إلى مكانها، فتحت الأوراق للقراءة. قلت:
: كلميني عنه، أنا مشوق لسماع أخبار لا أعرفها عنه.
: هل تعتقد أن هناك ما لا تعرفه عنه؟
: أكيد..لا أعرفه قائداً مثلاً، في الصغر كان مشاغباً.
: هل تعرفه عاشقاً مثلاً؟
: لا ..هل كان يوماً ما عاشقاً؟
صمتت قليلاً، غيرت من جلستها، تململت ثم قالت:
: هل يجوز إفشاء أسرار عمله أو حياته الخاصة؟

: هل هي أسرار لا يعرفها سواك؟
: كل من حوله يعرفها. لقد رواها لي. حين حدوثها كنت طفلة صغيرة.
سعدت كونها ليست بطلة تلك القصة الغرامية، وجدت نفسي مندفعاً بفضول غريب لسماعها. قلت:
: هيا اروها، قد يقودنا الحديث لطريقة للبحث عنه.
: لا أظن..فهي قصة قديمة. ولا أظن بأنني قادرة على رواية تفاصيلها لك، فقد حدثني عنها كما قلت لك عرضاً وبشكل مقتضب.
تخضب وجهها بلون الورد الأحمر، أرخت أهدابها لتخفي دمعة ماجت في عينيها. أمسكت بخصلة شعرها القصيرة وحشرتها وراء أذنها، ثم عادت تتحسسها إن بقيت مكانها أم غادرت. في البداية كنت أظنها حركة عادية وإن بدت لي فاتنة، لكن وبعد أن تكرر ذلك المشهد أدركت بأنها حركة عصبية تقوم بها حين تريد إخفاء توترها.
: هل أحبك هاني؟
: لا أعرف تماماً. عملت معه فترة طويلة، كان رائعاً، كان رائداً. لم يكن بإمكاني وأنا في تلك السن الصغيرة مقاومة مشاعري نحوه التي أخذت تكبر دون أن أعي، أو لعلي أستطيع القول بصدق أنها ولدت هكذا كبيرة بحجم الدنيا، صادقة بقدر صفاء وبراءة مرحلة شبابي.
لم يخف عليه الأمر، أحس تغيري تجاهه، ربما قبل أن أحس بها أنا. تجاهل الأمر، ثم قرب بيني وبين حسن.
: ذات يوم ظننتك تحبين حسن.
: كنت أعمل مع حسن وكنت معجبة به أيضاً، عاملته بمنتهى اللطف ليقربني من القائد. في ذروة هيامي بهاني أتخذ قراره بتزويجي من حسن.
: لا أصدق.. كيف وافقت؟ كيف وافق حسن؟

: كانت كلمته نافذة، لم يكن الأمر بالنسبة لحسن مفاجأة، ربما اتفقا بعد أن صارح القائد برغبته. وجدها هاني فرصة. كان يثق بحسن بل ويعتبره جزء منه.

سكتت من جديد. كنت هائماً بعذوبة صوتها قالت:

: كأنك ليس معي.

: بل معك جداً وإلى أن تملي.

معك، كلمة اندفعت من فمي ببساطة، لكن ما أن حلقت حولي حتى رأيتها تطير وترفرف بأجنحتها نحو أفق لا متناهي، صوت رفيفها أهازيج عرس خيالي. سر لا يخرج من مخبئه إلا ليلاً والناس نيام. غمرتني سعادة لا تليق بالموقف التعس ولا بشخص مثلي.

ما باليد حيلة..

إن لقائي بهذه الفتاة، سحر له ضجيج الحياة الحقيقي، يخرجني من قالبي، القالب الجامد الذي ألزمت نفسي به ولم أعد أستطيع انتزاعها منه. يخرجني عن وقاري، والأهم من أحزان أكبر مني. همست لنفسي وعيناي تستقران في عينيها. لقائي بك، أهم وأجمل حدث في حياتي.

استأنفت حديثاً ابتدأته:

: آخر مرة خرجنا معاً كنا مجموعة جديدة لتبدأ تدريبها. كان ذلك على خط التماس مع الأرض المحتلة، كان سيتسلل ليسلمهم صناديق ذخيرة دفنها سابقاً في المخبأ.

: لم يعد بعدها؟

: لا..

: لا أعرف ما دهاني قد تعتبرينني جننت إن أخبرتك بأنني في أحيان كثيرة أحس أنني هاني.

: إنه التغيير. كلنا سنفرح لهذا.

: كلكم.. من تعنين؟

: كل المهتمين بالقضية.

: لم أكن أعرف أنه خرج من بيتنا بطل نموذجي.

: علـى الأقـل حـين تعرفـت عليـه كـان كـذلك. كـان يثيـر الإعجـاب أينمـا حـل. لا نجـد فـي مثـل تفانيـه أي مسـئول داخـل حركـات التحريـر بكافـة جبهاتهـا. كـان يسـتقطب الشـباب لأنـه يؤمن بأنهم يعيشون أخصب مراحل حياتهم.

كنـت أهابـه، أختبـئ خلـف الحضـور فـي كـل نـدوة يعقـدها. ذات يـوم سـمعته ينـادي اسـمي، لا يمكـن أن تتخيـل مـا أصـابني. خرجـت مـن خلـف الصـفوف أرتعـد لا أعـرف خوفـاً أو خجـلاً. مجـرد أن ابتسـم لـي أحسسـت بأنـه قريبـي، أبـي أو عمـي. كانـت هذه أول مقابلة لي معه وجهاً لوجه.

: لقد تعرفت عليّ قبله لا بد وأنه ذكرك بي.

: كـان مختلفـاً عنـك. كـان مختلفـاً عـن الجميـع. آسـفة بـأن أقـول لـك بـأن مـا سـمعته عنـك لا يشـجع، كانـت المكاسـب الحياتيـة كثيـرا مـا تعنيـك. أعـرف بـأن العلـم وسـيلتك، وهـو أعظـم إنجـاز يقوم به المرء.

: لم أفهم سيدتي: هل تمتدحينني أم تذمينني؟

: لا تسـخر. لـم أفكـر بتقيـيم موقـف كـل منكمـا، أي منكمـا صـح وأي منكمـا خطـأ. خطـر لـي آنـذاك مقارنـة لـيس إلا. أغرتـك الحيـاة والمناصـب وهـو كـان زاهـداً حقيقيـاً. صـدقني لـم أره قـط بملابـس غيـر الـزي العسـكري البسـيط، لـم يقـتن سـيارة خاصـة. أسلوبه في الحديث مع أصغر فرد إلى أكبر مسئول لا يتغير.

: أتمنى لقياه قريباً. هل أحببته؟.

: جـداً.. أحببتـه واحترمتـه وأعجبـت بـه، لكـن مـن يـؤثر نفسه برمز، بمثل أعلى.

: احكـي لـي شـيئاً عـن ظـروف اختفائـه، فلـيس مـن المعقـول أن يغيـب كـل هـذا الوقـت بإرادتـه، أعرفـه، لـن يـؤخره شيء عن الحضور بعد وفاة أمنا، إلا لشيء خارج إرادته.

: ألا تعتقد بأن مع أمثاله تكثر أعداؤه؟

: لم لا يكثر محبيه كصاحب رؤيا وقدرة قيادية؟

: هـذا مـا كـان يعتقـده خطـأ رغـم بعـد نظـره. حـين ظهـر الشـخص الـذي ادعـى قـرابتكم احتفـى بـه كثيـراً، حذرتـه منـه

مـراراً لكـن كـان يـرد بابتسـامة دون أن يكتـرث. اعتبـره شـعلة ذكـاء نـادر يعـرف كـل شـيء عـن كـل شـيء. ضـحكت يومهـا وأنـا أقول:

: ألا تخيفك هذه الأسطورة سيدي؟

: أنت تكرهينه، تتخوفين من تأثير أخته على حسن.

: لا أخاف على أحد قدر ما أخاف عليك.

قاطعتها:

: أكان ذاك الشخص روكس؟

: لا أعـرف إن كـان هـو أو شـقيق لـه، لكـن إذا رأيتـه طبعـاً سـأعرفه، كـان كـل يـوم يعطينـا اسـماً جديـداً. أخيـرا طلـب منـا أن نناديـه باسـم شـريف. إن آخـر مهمـة قـام بهـا هـاني كانـت برفقـة ذاك الغريب. كان هاني يلقبه "الغريب الأطوار".

: هل أخبر حسن بتلك المهمة؟

: لا أعتقد، كان حسن قد انتهى.

: كيف وقد كان أقربكم إليه؟

: لقـد تغيـر حسـن كثيـراً بعـد أن تعـرف علـى ذاك الغريـب. التصـق بحسـن لأنـه أراد الوصـول إلـى القائـد عـن طريقـه. لـم تمـض فتـرة قصـيرة علـى هـذا التعـارف حتـى انقلبـت حياتـه المحددة الأهداف إلى فوضى وعدم رضا.

: كيف يأتي عدم الرضا في حياة شخص متزوج بك؟

: أشـكرك.. لكنهـا الحقيقـة رغـم أنهـا مريعـة. كنـت أظـن مثلـك بـأن حسـن فـرح بفـوزه بـي بعـد أن عـرف بمـدى تعلقـي بالقائـد. طمأنـه بأنـه حالـة إعجـاب، أو حـب مـن طرفـي، وإن القائد بنفسه هو من ربط بيننا.

بعـد زواجنـا بفتـرة قصـيرة بـدأت حياتنـا تتغيـر. خصوصـاً أحوالنـا الماديـة. صـارت ملابـس حسـن تبـدو أكثـر تأنقـاً وبـالطبع أغلـى ثمنـاً. هـذا غيـر سـهراته المتواصـلة وانتسـابه إلـى نـادي صـحي فـي أحـد أرقـى الفنـادق التـي لا يرتادهـا إلا الخاصـة جـداً مـن أصـحاب المـال والسـلطة. انقلبـت اهتماماتـه وأحاديثـه إلـى مجرد أوراق مالية صفقات تجارية وأرباح وخسائر.

صـار يحثنـي علـى تغييـر مظهـري وملابسـي لتليـق بـه. لفـت نظـر القائـد لـم يعرنـي اهتمامـاً بـل وجـد أسـباباً كثيـرة ليوهمني بأن الأمر عادي. هل تريد سماع المزيد؟

: بالتأكيـد، تـابعي سـأدون كـل مـا تقولينـه، أنـت محـور الكتاب على ما يبدو.

: محوره؟ ماذا تقصد؟

: أعنـي مـن كـان لهـا اسـم جميـل، يتمـدد علـى خريطـة البلاد الأصلية تستحق أن تكون محور القصة بكاملها.

قلـت هـذا وأنـا أخـرج خريطـة فلسـطين المرسـومة بعنايـة فائقـة بيـد هـاني وأفردهـا أمامهـا، كـان اسـم عائـدة بأحجـام مختلفـة ينـام فـوق خطـوط الحـدود، وكلمـة عائـدون فـي الوسـط تحتـل المساحة كلها. قالت وهي تتملى الخريطة:

: أترى؟ المساحة كلها. لا تنازل، لا تقسيم، لا تهميش.

هـززت رأسـي حسـرة، آه..لـو كـان الأمـر بيـدي. عـادت لسرد قصتها معه. قالت:

: جميـل أنـك أريتنـي تلـك الخريطـة فقـد رفعـت معنويـاتي وعرفـت بـأن الديمومـة لـي. حـين كـان يضـع عليهـا اللمسـات الأخيـرة، دخلـت خلسـة دون أن يشـعر بـي، ووقفـت وراءه أتـابع العمل الجميل الذي استغرقه تماماً. قال دون أن يلتفت:

: أسمك جميل.

: ألم أفاجئك؟ توقعت أن تسألني منذ متى وأنت هنا؟

رد دون أن يرفع رأسه عما يقوم به:

: طبعاً لن أسأل سؤالاً بديهياً أعرف جوابه.

: ما الجواب البديهي أيها القائد؟

: أنت هنا منذ دهور. غيابك –وإن طال- مؤقت.

صـمتنا معـاً، أفكـر بجديـة عـن سـبب غيابـه. نظـرت نحـو عائـدة كانـت تحـدق بـي وكـأنني قـد أتيـت للتـو مـن عـالم آخـر. مـدت كفـي ألـوح بـه أمـام عينيهـا اللتـان كانتـا مسـمرتان فـوق وجهي، تنبهت وقالت ضاحكة:

: نعم.. نعم الحقيقة أنك تشبهه كثيراً.

: شكرا لهذا الإطراء سيدتي فقد أعدت لي اعتباري.
تجاهلت مرحي المتخلق بين يديها وقفزت واقفة:
: الأفضل أن نرجئ الحديث إلى الغد، سأحضر باكراً ونبدأ العمل ما رأيك؟
: كما تشائين.
أخذت تجمع أوراقها المبعثرة وهي تقول ممازحة:
: إذا نفذ زوج أختك تهديده ودخل فوق جثتك، أين أجدك؟
: إذا كان عنده بعض مروءة وشيء من وفاء سيدفنني هناك تحت شجرة الياسمين تلك. يعرف بأنني من غرسها حينما كنت في الخامسة من عمري. أما إذا كان كما بدا الآن خسيساً، في قلبه كل هذا الحقد ستجدينني حتماً في كيس قمامة أسود ملقى بقرب الباب.
: في أي حال من الأحوال سنكمل الكتاب، رغم الداء والأعداء على رأي الشابيّ، اتفقنا.
ابتعدت وتركت لي ظلال تلك الابتسامة العجيبة الساحرة التي هي مزيج من المرارة والسخرية، تلقفتها، انتقلت إلى شفتي بعوامل قوى غيبية، كامنة بداخلي، تنهل من نبعها الصافي. قررت الاحتفاظ بها حتى تعود.
أوراق هاني حولي وأمامي، لا أغالي إذا قلت، أنه أمامي الآن بلحمه وشحمه، أمامي كلما دخلت غرفتنا، كلما واجهتني صورة وجهي في المرآة. تناولت رزمة مربوطة بعناية وأخذت في قراءة وريقاتها الملونة.

"ليال طويلة أرقت، بكيت بدموع ودون دموع على حبيبتي، بكيت عذابها، بكيت بعادها، بكيت هجرانها. يعذبني أنني تركتها تعتقد بأن حبها مبتور، من طرف واحد فقط، لم تكن تدري بأنني أحميها من خطر يدهم كل من اقترب منه. أتمنى الآن وأنا في هذه المحنة أن تعرف كم أحببتها، وكم أتعذب لابتعادي عنها.

"غداً ليلة زفافها، هذه ليلتها الأخيرة في بيتنا، أمي وأختي تعدانها لتكون أجمل عروس في الغد. يصلني في هدأة الليل صوت أنينها، بكيت، لم يشف غليلي البكاء، أخذت أضرب رأسي في الجدار الذي يفصل بيني وبينها حتى أدميته".

"ها هي تزف، ذراعها مشبوكة بذراع حسن، كان وضعاً غريباً على قلبي. علقت عيناي بعينيها، سحبتهما بغضب رافضة هذا العناق الأخير. ازداد ألمي، أغضيت النظر وانسحبت خلف الجميع. ليس هناك شيء أشد مرارة على قلب المحب مثل ضياع الحب من قلب امرأته".

"أتساءل بسذاجة العاشق عن مقولة قرأتها لا أذكر بالضبط قائلها وقد رد بها متهكماً على حبيبته حين سألته إن كان سيحزن لضياع حبه من قلبها"إنما يبكي على الحب النساء" ليس بهذه المقولة شيئاً من الإنصاف. ليأت من صدقه إلى هنا، وليرى بأم عينيه كيف تبكي الرجال على الحب ومن الحب، بأقسى أنواع البكاء."

"شهور ثلاثة عشتها محاصراً في مكان آخر، لا يخفف عني عذاب تلك الأيام سوى حبي الكبير لها الذي كان مثالاً للفداء. ذاك الحب الذي تسرب ببطء على مدى سنين. أردد اسمها لأفك عن نفسي كربتها"

في بداية دفتر أسود يشبه دفتري صمام الأمان، كتب هاني على صفحته الأولى.

أعيش هنا في هذا المكان البعيد المجهول محاصراً، يعاملونني بلا إنسانية. أقتل وجداني قبل أن يخترقوه. لا يجب أن يعرف أحد اسمها ولا مكانتها في نفسي. ما أصعب الظلم.

"حين تحاصر إنسانية إنسان يبكي لأقل الأسباب كما يبكي على أعظمها. يبكي ضيق المكان، يبكي ضياع الأوطان، يبكي من

ألم تخثر دماء الجراح فوق منبعها، من تشقق قشرة جراح قديمة. نبكي كبت مشاعرنا، كما نبكي حين لا نرى وجوهنا في المرآة كل صباح. نبكي لفقداننا حرية الفكر والقول، نبكي لسلبنا حقنا في التعامل مع أنفسنا، ومع من حولنا، ومع الأشياء كما نحب.

عدت من منجم الحقد والغل فلا لأجد أمامي سوى وجهاً جميلاً، وجه الورق الصافي يحتله وجه عائدة، يتقبل حزنها وقنوطها فيزداد حلاوة وروعة. أكتب كثيراً عنها ولها، أحمد الله لأخي سامي الذي علمني أن ألجأ لأوراقي في أوقات الشدائد ولا أبوح.

جاءت وبكت ورجت ألا أعيدها إلى من لا يستحقها، هددتني بقتل نفسها إن فعلت. غرقت في بحر من الحيرة والأسى، حين تنبهت وجدت نفسي وحيداً في غرفتي الباردة، هل كانت هنا حقاً؟ متى حضرت؟ متى ذهبت؟ ما كان يجب أن أقول لها ما قلت. لكن هذا الذي تقول لي أنه لا يستحقها قد أمنته ذات يوم على ما هو أغلى من كل البشر، قضية بلادنا التي نذرنا أنفسنا لها.

أقف من جديد أمام المرآة المعلقة في الصالة أتفرس هذا الوجه الماثل أمامي، لم أره يستحق ما أولتني إياه من ثقة ومحبة ومسئولية. قد يكون وجه رجل آخر، وجه سامي مثلاً.

اقتربت أكثر، غاب الوجه ذي البعدين المختلفين وحل وجهها، نعم هذا الإطار الذهبي جدير بها، بوجهها الجميل الحبيب الذي يطل عليّ. غاب وجهها وبرز وجه امرأة أخرى، كانت حبي الأول، سنوات مرت وأنا أعتبره الأوحد. غاب من المرآة كما غاب عن حياتي. أطل وجه حب آخر، كان مهشماً، بعض دماء جامدة وأخرى ما زالت تسيل. فقط شفتان طريتان متشققتان تهمسان لي: ابتعد بعيداً، ابتعد كثيراً، الجناة يكرهون الحب، لا يطيقون رؤية عين تدمع من الحب ولا قلب يخفق.

كانت هنا، صرت متأكداً. فقد كان شعوري متجمداً تجاه صاحبة الوجه الأول وكذلك الوجه الدامي. تحركت فزعاً من أمام الإطار الذهبي. لا مسته برفق، أحسست به أشد امتعاضاً وألماً، سندت جبهتي الملتهبة على الرخام البارد فوق مغسلة الحمام، وبط

أنزلق رأسي تحت الماء المسكوب. رفعت رأسي دون وعي فاصطدم بشيء معدني قاس، تدفقت الدماء واسترحت.

أمسكت بكوب الشاي الذي أحضرته لها منذ قليل لتهدئ من روعها، رفضته وتحت إلحاحي الشديد مسته بشفتيها، ثمة آثار لطلاء شفاه قلما كانت تستعمله. إذن فهي لم تنم ليلة أمس، لم تغسل وجهها ولم تبدل ثيابها بعد السهرة الرهيبة. قضت الليل بانتظار الصباح لتأتني، لأكون أباها إن عجزت أن أكون حبيبها.

لشد ما تمنيت أن أكون دنياها وتكون بدورها فرحاً وحيداً وضوء يشق سواد أيامي.. كانت هنا، وكنت بجوارها، كنت أعيش بمشاعر معدم جاءته الدنيا ترجوه أن يقبلها.

لكن.. من يجزم كيف يكون تصرفه، أو كلامه، أو أي وسيلة من وسائل التعبير عن شوقه القاتل، عن فرحته بعودة النبض؟

فرق كبير في فهمك للأمور والحكم عليها وأنت تعيش حياتك بشكلها العادي، بشكلها السهل الميسور، تسير بك بهدوء ساحر نحو تحقيق أهدافك وأمانيك. تشعر بحرية عالمك الخاص وإن كان ضيّقاً. تفاءل فالغد أفضل رغم كل شيء. لا يشغلك تذوق نكهة الحياة، مرارتها وحلاوتها، جمالها واختلافها، حرص عليها أم هدرها.

في ظروف غير عادية كالتي أعيشها، حين يصادرها الآخر تشبث بها، تسكننا حالة فريدة، حالة عشق لوجودنا المهان. فتختل المعادلة بيننا وبين الآخرين، كلما تبلد وجدانهم ونفذوا أوامر ضد أي عرف وأي قانون كلما انتشى وعينا وأدركنا قيمة وجودنا.

حقيقة لا مراء فيها..كلما ازدادوا كراهية للحياة حتى إفنائها، نزداد حباً في الموت حتى الخلود فيه. هل يعني الموت كثيراً لمن قرر الفداء؟ هل هناك حالة وجد أكثر سعادة من هذا الشعور الذي يتملكنا في سبيل الذود عما نحرص عليه؟"

في صفحة أخرى كتب:

" بعد مقابلة حسن شعرت وكأنني أواجه الدنيا كأعزل مكشوف الظهر لأي طعنة من أي إنسان عدو أو صديق. ما أمرّ عقوق الأبناء، ما أصعب أن تتعلم قلوب الآباء القسوة. بعد اتهامه

ذاك لم أجد ما أقوله، أنهيت المقابلة، بل أرجأتها فلم أكن قد فقدت إيماني بشاب صنعته على مهل وأعطيته بلا حساب.

في هذا المكان الضيق أزفر حياتي مع أنفاسي، لا أعرف أين أنا، لا أعرف كيف وصلت إلى هنا، حولي لغط وهمهمة استطعت أن أميز أسمي واسم أخي.

هناك من يقول بأنني سامي وآخر يحلف أغلظ الأيمان بأنني هاني. للحظة اشتبه علي الأمر، وإلا لماذا أنا هنا، في مكان غير أمكنتي التي أتردد عليها؟ لماذا أنا بمكان ضيق ومظلم وأنا ممن لا يسيرون إلا في عرض الشوارع مطالبين بالمزيد من الحريات.

آه..ألم في ظهري، كأنه جرح تمزق، فتح من جديد بعد احتكاكه بالحائط الخشن. أحس بدم حار ينساب فوق جلدي ببطء كدبيب النمل، لا بأس، فقميصي الأزرق الخشن سيمتصها، كم خالط نسيجه دماء أبرياء مروا من هذا المعبر نحو حرية حقيقية.

لن أهتم، لن أتوقف، سأظل أنادي على حسن، يهمني أن يبقي بداخله شيء من إنسانية، سأنادي عليه حتى تفرغ جعبتي أو تموت رغبتي أو أموت أنا.

صباح يوم جديد هنا على ما يبدو. وجوه جديده، وجه ذاك الشخص الغريب الأطوار واقف أمامي يأمرني بالذهاب لمقابلة أحد المسئولين. سألني بمكر ساذج:

: دكتور سامي متى تنوي إنهاء هذه المسرحية واستلام عملك والقيام بواجبك تجاه بلدك؟

: لست سامي، أنا هاني، لا مكان لي في سلطة كهذه.

لعبة الدوران هذه تشعرني بالغثيان، لكن لا بأس، لتستمر حتى النهاية، نهايتي أو نهايتهم.

: أليس هذا ما ناديت به طوال سنوات إقامتك في أميركا؟ لقد اعتقدنا بأنك رجلهم وستمثلهم كوسطاء للسلام.

: من تتحدثون عنه هو أخي التوأم.

أنهى الحوار، التفت لمرافقه وهو يقول له ما زال نيئاً وبحاجة لمعالجة من نوع آخر. ابتسم وهو يقول لي لنهدئ اللعب. أتخيل بأنهم سيتخلون عن فكرة الخلط بيني وبين أخي، لكن فجأة يعيدون

المحاولة بورق لعب جديد. القوني غي مكان مأهول بغيري. سمعت همساً:

: إلى متى؟ إنه شخص مرموق لا يجوز أن يبقى هنا، صدقني لقد اختلط الأمر عليّ، أرى أننا نقوم بما يقوم به اليهود لو وقع بين أيديهم. بالمناسبة هل ما زالوا أعداء؟

: لا تقل مثل هذا الكلام، غالبية شعوبنا مساطيل قد يصدقونه، هو نفسه لم يعتبرهم أعداء منذ نشأته.

: لكننا نؤلمه حقيقة وليس ترهيباً كما تقولون، أريد أن أعرف لماذا نطيع أوامر جائرة فنؤذي أنفسنا.

: التزامنا بنبذ العنف ومحاربة الإرهاب.

: لماذا؟ ما الذي يجبرنا على ذلك؟

: الاتفاقيات التي وقعت معهم.

: لكن ماذا عنهم؟ كيف يؤكدون التزامهم بتعهداتهم؟

: قم بعملك وأنت ساكت، لا تثرثر فتخسر وظيفتك، وتضطر للعمل هناك عندهم تجمع القمامة..هذه سياسة فوق مستوى تفكيرك.

قلت:

: خير لكم جمع القمامة من أن تمتد بهراوات غير شرعية.

قال زميل يسير بالقرب منا وهو يجفف دماءه:

: ماذا تحاول أن تقول، إنك تسمع غير مسمع، هؤلاء مساكين، جهلة، جوعى، مرضى.

: مهما كان، هم يعرفون طبيعة الشعب المختار، شعب يرى أن الله لهم وحدهم، والأرض لهم وحدهم، وكل ما عداهم بخدمتهم.

رد المرافق بتهكم:

: لمن تشكو؟ والقادة شددوا قبضتهم هنا وأرخوها هناك.

: كل هذا مقابل لا شيء، صدقوني لا شيء، أعيدها وأكررها لا شيء"

ليل الوحدة طويل، معاناته لا تغتفر. كنت أبحث عن الوحدة لأناجي الحبيبة المفارقة. معاناة الليل معها جميلة، نهر يتدفق من النفس وإليها. آه..كم أنت طويل يا ليل المساحات الشاسعة بين الحقيقة والوهم، طويل وفارغ، فضاؤك واسع يشتتني، يشعرني أكثر فأكثر بضيق المكان.

نسمات تأتي من النافذة، أو من تلك الفتحة العالية التي تسمى مجازاً نافذة، تتسرب نحوي، رغم حرصهم على تنغيص ساعات ليلي. تقترب فأتنسمها، لا ترطب جرحي النازف، ولا ترفه عن نفسي المثقلة بهمومها. أتذكر من أحب كمحاولة للفرح، لا تصل فرحتي إلى قلبي، تبقى حيادية بلا معنى حقيقي، تعجز حتى عن بث شيء من الدفء للأرض الإسمنتية الجالس فوقها، أو إلى الجدار الصخري الخشن الذي أسند ظهري عليه، أو تجفف عفونة السقف الذي يندف الجير المتفسخ من الرطوبة فوق رأسي"

وضعت الأوراق جانباً ريثما أجفف دموعي. لقد عذّب هاني بسببي. أين كان في تلك الفترة؟ ومتى؟ حاولت البحث بين الأوراق عن تاريخ، عن المكان الذي كتب به هذه الأوراق فلم أجد.

هل ظلمناك يا أخي ولم نحاول أن نعرف حجم مأساتك؟ هل ما زلت في المكان ذاته، مع أولئك الناس مرة أخرى؟ كيف السبيل للوصول إليك؟ من سيدلني عليك؟ أهو حسن؟ ليتني أدري.

وحيد في بيتنا الصغير، جنة صبانا، شوارع المخيم ملاعبنا، أولاد وبنات اللاجئين المقيمون معنا في تلك البؤرة بديلة الوطن السليب، أهلنا وأصدقاءنا. كل شيء على حالة، لا ليس تماماً، أسر كثيرة هاجرت أو هجرت إلى منافي جديدة.

لذت بغرفة مبيتنا، جدرانها ما زالت طرية خضراء من اختزان حكايات أبي وضيوفه، حكايات عبقت بالصدق والعفوية والبراءة، حكايات البطولات كما العجز، الأمل واليأس، بشجاعة أصبحت نادرة في أيامنا هذه. حكايات تنثر حول الصغيرين، أصبحت جزءاً هاماً من حياتهما، فينامان كل ليلة متعاهدان على فك رموز خليط المتناقضات المتناثرة هنا وهناك في الغرفة التي تصير مهداً لنومهما.

صارت مهمة هاني الأولى، جعل حيرة الكبار موطئ قدميه، والشجاعة بكل اندفاعها هدفه المنشود. والآخر الذي هو أنا، ترك الحيرة تكبر، تصبح دهشة، تتخلق بداخله أسئلة، جريئة وصعبة، تدفعه للتفكير، يدور في فلكها، ثم يجذبها بقوة. تنفرط أمامه إلى كلمات والكلمات إلى أحرف، تصبح مسالك مضيئة في عقله النهم إلى المعرفة والتحليل، فينظمها بشغف.

ترى هل أتذكر أم أحلم؟ الماضي.. يعود طرياً ريانـاً، أحسه وألمسه وأشمه وأتذوقه. ها نحن الاثنان هنا في الغرفة. هاني يتربع فوق السرير المتواضع محتضناً ركبتيه، في جلسته المفضلة حين يشرع في نقاش يعرف سلفاً كيف يخوضه ويكسبه.

أي ليلة كانت تلك، لا يهم يكفي أننا كنا معاً. ليتني كنت أستشرف الغيب، وأعرف بأن فراقنا محكم وآت. وتغييراً كبيراً سيطرأ على كل منا، إلى حد أن ينكر كل منا توأمه. إذن لما رضيت عن محبتنا والفتنا وجلستنا ومنامنا معاً بكل ما حصلت عليه وبكل ما يهيئونه له. في تلك الليلة سألني بألم غير خاف:

: إذا ذهبت إليهم في عقر دارهم، وكلك إيمان بأن القوة ما وجدت إلا لنصرة الحق، فما أسرع ما تنضم إلى معسكرهم، لن تلحظ الفرق الشاسع الواضح بين ما يقولونه وبين ما يقومون به.

كم أحببته. كان حريصاً علي حتى وأنا بعيد، يخاف علي من أفكاري، يعتبرها نقاط ضعف ستزج بي في متاهات البلاد الجديدة. أجبت بمنطق رجل قانون:

: نعم سأذهب بإيماني ويقيني، غير هذا لن افهم، ولن أتنازل وأقبل، لن أصبح حجراً أسود أو أبيض في لعبة شطرنج. تمارس بدهاء وخبث، بينما توهم الجميع أنها لعبة ذكاء. ثم لا تنسى أن هناك الديمقراطية حقيقية.

ضحك بمرارة، أخذ يهز رأسه يمنة ويسرة يائساً من هذياني، الدهشة تفترش وجهه المتعب من هموم الدنيا، من إصراري على مقارعة العالم الجديد بمبادئ قديمة. تنهد ضجراً وقال:

: لا تنسى مهنتك. كيف ستكون محامياً ناجحاً وأنت على هذه الحالة من الرومانسية؟ أخلاق فرسان القصص محض خيال يا أخي.

مستحيل قبولها ولو كوجهة نظر، في المعادلات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية العالمية العاتية.

قد أبدو لغيري الآن، وأنا أعيد لذهني موقفي آنذاك، بأنني كنت ساذجاً، أبسط الأشياء بشكل مرعب. لا.. لم أكن غبياً أو متغابياً، كنت أعرف كل ما يجري من حوادث سياسية وتطورات اقتصادية وتغييرات في المناهج والأسس.

أجبته يومئذ بهمس حزين:

: أعي تماماً قضية شعبنا وما يطرأ عليها، أعي فقدانها قدسيتها وجوهرها. لكنني بالمقابل مؤمناً بالشعوب، لن تصبر إلى الأبد على سلاطين محتكرة كل شيء لحسابها.

قفز من سريره وهم بمغادرة الغرفة وبيده أدوات حلاقته، عاد وأطل بوجهه غير الحليق من فرجة الباب وهو يقول:

: التاريخ يقول أن شعوب مستسلمة تستحق هكذا سلاطين. لا تشد ظهرك بشعوب مثل غلمان القصور، تطبخ الهناء لأسيادها ولا تتذوقه، يا أخي يقولون صانع السم يتذوقه.

أجبته بصوت عال عله يرجع:

: هنا مربط الفرس. من هنا يجب أن تكون البداية.

أعادته كلماتي ولهجة اليقين فيها، كأنني ممسك بلجامها وسأسوقها إلى حيث أريد. وقف أمامي عاقداً ذراعيه فوق صدره وسخرية مائعة مع رغوة الصابون على وجهه ويسألني:

: كيف أخبرني بربك؟

: إصلاح هذا القصور وهذا النقص.

: بعد كم سنة إن شاء الله؟

: مهما طال الزمن.

اخترت مهنة التدريس لأنني كنت متحمساً لفكرة إعادة بناء الإنسان في شعوبنا المقهورة. كنت مؤمناً بقدراتنا، بتاريخنا، فلسنا بأقل من الشعوب المتفوقة علينا.

أندفع هاني إلى رفوف كتبه الكثيرة التي تحتل معظم زوايا الغرفة، أخذ يلتقط كتاباً بعد آخر، ويلقيه أمامي بعصبية ظاهرة. أدهشني فقدان هذه الأرفف حصانتها بعدم اللمس سنوات طويلة:

: هل ستكون أقدر من العظماء الذين تبنوا مثل هذه الأفكار وماتوا في سبيلها؟

ضحكت بثقة، كنت أحفظ عن ظهر قلب، قائمة أطول بأسماء أبطال عظام حلموا بضوء شمس الحرية وطالبوا بالحقيقة. أجبت:

: أعرف بأنهم صرعوا أو نكصوا، ولكن ماذا عن أحلامهم وأفكارهم؟ مازالت نابضة، لم تصرع، قائمة في كل فكرة جميلة، قائمة عبر التحدي الذي يدور في خفايا النفوس. وإلا أخبرني لماذا لا تحرق هذه الكتب وترتاح إذا تأكدت بأنها لا تقدم ولا تؤخر.

أين أنا بعودتي الخائبة وأين أنت يا هاني؟ أنا بغرفتنا الصغيرة فوق سريرنا المشترك، فأين أنت؟ أريدك، بأمس الحاجة إليك لترى ما فعل الزمان بي. رجل قانون مثلي، يتجاهل القوانين ويعترف بشرائع الغابة الجديدة. الوحوش أرحم وأعدل وأصدق من البشر النهمة لثالوث أصم أبكم، المال والسلطة والقوة.

ستدهش إذا سمعتني، أو إذا قدر لك قراءة ما أكتب. فكرة صائبة أن أكتب، أفضل وسيلة لضمان سلامة هذه الأوراق. إذا كنت ذا شأن سيحافظون عليها حتى تصلك، بعد قراءتها ربما حدت من تسلط وقعت أسيراً له أو أداة لقوة ما. أما إذا كنت مداناً، سيهتمون بها لعلهم يجدون بها شيئاً ضدك.

سأقول أين أنت في نفسي في كل ما جرى ويجري في حياتي. إذا ساورتك شكوك بأنني كاتب هذا الكلام الذي يتنافى مع مبادئي تذكر خطي التعس وكراهيتي للكتابة. ستتذكر حتماً، تحايلي عليك في بداية مرحلة الشباب، لتعيد نسخ مرافعاتي القضائية، التي كنت أكتبها بطريقتي العشوائية، فتثير أعصابك. كنت تعيدها منسوخة مرتبة، وتقسم بأنها المرة الأخيرة. وتحنث دائماً بيمينك، ولا استغني عن خطك الذي يضفي على مرافعاتي الحس والرونق.

ما أجملها من أيام، تراك تذكر أمنا وهي تنظر إليها بإعجاب، وتهتف من الأعماق: "مرافعة بكل هذه الوجاهة، تحل رقبة من مشنقة".

لعلك نتساءل: لماذا أكتب؟

اعتبرها مرافعة أخيرة وطويلة، مخربشة، كأن أسراب عصافير حائرة، عبثت بأرجلها الصغيرة، على صفحة رمال شاطئ بكر غاف، لم تصله أقدام الطغاة بعد. هي شيء من هذا القبيل. أملي أن تقرأها..بتمهل.. بتفهم.. وانس رداءة الخط، تجاهل عواطفي التي ستهرب رغماً عني من مخبئها في صدري لتلوذ بك.

قطع حبل تفكيري رنين هاتفي يتلاحق، جفلت، ترددت طويلاً ولكنني لم أجد مفراً من إخراسه برفع السماعة قائلاً بصوت ملول:

: نعم..

صمت مريب طويل، رددت مناداتي ثم أقفلت السماعة، عاد الهاتف إلى رنينه المصرّ المزعج، رفعته وقلت بعصبية هذه المرة:

: آلو..

جاءتني صوت أجش يسأل:

: هل أستطيع أن أكلم الدكتور سامي؟

: معك من معي؟

: ليس مهماً من أنا، سمعت بأنك تبحث عمن يوصل لك رسالة لأخيك هاني. نحن على استعداد حمل رسالة أو أي شيء.

صمت متفكراً، ترى من قرأ أفكاري. أوجست خيفة ولم أرد. عاد يردد الكلمات ذاتها، كأنه آلة تسجيل. استجمعت نفسي، ربما كانت عائدة قد تدبرت هذا الأمر. قلت:

: لا بد أن أعرف من أنتم أولاً.

: سمعنا بأنك تبحث عمن يوصلك إلى هاني، وها نحن بالخدمة. فكر بالأمر، وسنعاود الاتصال بك مرة أخرى.

لم أفكر بالأمر. تكررت المكالمة، كل ما قمت به محاولة تهدئة انفعالات نفسي بمحاولة استقراء الصوت. هاجت مشاعري المكبوتة منذ سنين، تناوبت عليَ بين منطق هو أساس عملي، ومشاعري كإنسان فقد أهله، عاش يقمع بداخله كل رغبة، كل تساؤل، كل يأس، وكذلك كل رجاء.

تسربت بعض الأوراق من تحت عقب الباب. التقطتها بلهفة، قلبتها بين أصابعي كانت مذيلة باسم هاني شرف. قرأتها وأعدت قراءتها من جديد، لا ليست من هاني، لا هذا الخط خطه، ولا الكلام

كلامه، ليس بها ذرة من روحه العالية أو قلبه العذب. قلبتها بين أصابعي كانت تقول"حال استلامك رسالتي، أعدل عن كل ما تفكر به، تعال إليّ، سنفكر معاً، سلمهم أوراق عيسالتي في حوزتك، أخبرهم بصلتك بي، افعل ما هو مطلوب. بانتظارك منصب مرموق و..

بصراحة ..لم أقو على فهمها، ليست أكثر من دسيسة على تاريخ أخي. مؤامرة ضدي كما أصبحت أؤمن هذه الأيام. أحدهم يرهبني ويأمرني أن اشهر انتماءي لمجوسية القرن الجديد.

هاني لا يمكنه أن يقول كلاماً كهذا. خالطني شك، تمنيت من قلبي الذي أحبه وتعلم منه الحب من أصغر ذرة رمل إلى الله في ملكوته، أن تكون مجرد افتراء عليه، تمنيت أن يكون ميتاً فعلاً منذ سنوات طوال.

عززت في نفسي آخر أخبار سمعتها عنه من عائدة، أنه استقر هناك في الأرض المحتلة يحاول إنقاذ الانتفاضة العظيمة من الدسائس التي تحاول قمعها، باسم السلام مرة وبوعد استعادة الحق المسلوب مرة، وبالبطش مرات ومرات. هاني هناك يقاوم، مع الأطفال، مع الشباب، ومع الشيوخ والنساء. هذا نهجه، وهذا إيمانه، هو دائماً مع الهدف الشريف بكل وسيلة تودي إليه. ليس من السهولة الانقلاب من نقيض إلى النقيض؟

لكن.. ماذا إذا ثبت أنها منه؟ ماذا لو أن نفسه هوت بين براثن عشق السلطة، أي سلطة وإن كانت غير شريفة؟

لا.. لا يا أخي، شيء مثل هذا لا يجوز لمثلك. ما أصعب أن تموت القيم في نفس مناضل، عندها يصبح جلاداً، يركب كل الوسائل، لإرضاء حفنة بشر، باعت كل شيء ولم يرف لها جفن. هذا تشويه لحقيقتك، حقيقتك التي أصبحت حقيقتي. سلوكي، عذابي، حزني وفرح أيامي الشحيح. محتواي هاني، وغايتي هاني. منذ أن علمتني الأحزان صواب مواقفك، الحياتية والدراسية والسياسية والاقتصادية أيضاً.

جلست على الأرض كأنني أشهدها على أنني مجرد نصف وبانتظار نصفي الآخر لأكتمل، وإلا سيبقى كل منا مشطور. أفكاري

مثل موج بحر تصطخب وترغي وتزبد ثم تهدأ وتـأتي متهاديـة علـى الشطآن. هاني أكبر مـن كـل هـذا. هـاني تـاريخ وأرض، هـاني أهـل ووطن. هاني هو هاني.

هاني كل مواقفك مشرفة، منذ طفولتك وشبابك. أتذكرك. يوم موت جمال عبد الناصر كيف عشت الحدث بكليتك. صادف الحدث الجلل يوم نجاحي فقتلت الفرحة في قلب أبي، فبقدر سعادته بشهادتي كان فخوراً بموقفك المتألم.

كان يهنئني بهمس، ويواسيك بضجيج الحياة فيك. ضجيج تجسد واستقر في حياتنا كلنا. ماسة صافية، تشف عن أعماقك الفائر، وهج الفداء والنضال يرسخ ويزداد يوماً عن يوم في دمائك. بدا أن أبي يباركها، اعتقد بأن هذا يعادل الشهادة الجامعة.

مات الزعيم العظيم. الزعيم العظيم، هذا كل ما أعرف عنه. كنت مشغولاً بوظيفة عينت بها مؤخراً، درت مورداً رأب تصدع البيت من الجفاف. بدوت يومها لك وللجميع سعيداً رغم الأحزان، لم يكن هذا صحيحاً. لكن حين كنت أواسيك يصطدم كلامي بجدار صلب، ضربته بينك وبين الدنيا حزناً على الشهيد، أعظم شهداء العصر الحديث كما قلت وقتها.

كان كلامي يتعثر ويتبعثر، كان عبئاً على لساني قبل أن يكون عبئاً على سمعك. كنت أحاول إخراجك من حالتك التعسة، لم أستطع، تجاهل الدموع الكثيفة اللامعة المتجمدة بين الأهداب فاستكنت. جاء صوتك بنبرة ألم:

: أي رجل عظيم والدنا يا سامي. لم يفرح بالنجاح الذي حققته في بيتنا. توقعت أن يتناسى كل شيء يوم اكتمال فرحته بنجاح دخل بيتنا وعاش عمره بانتظاره. حزنه فاجأني، حزنه أكبر وأعمق مما تخليت، لم يشارك أمنا نشوة زغاريدها بشهادتك الجامعية.

تابعت وقد زويت ما بين عينيك، شأنك حين تكون جاداً، تحاول استقراء أعماق نفس أبي المتعبة:

: هل سمعت مثل بلاغته، نفث همه الأزلي ببضع كلمات يائسة: "والله حالة.. كلما قلنا فرجت ضاقت".

أجابته أمنا:

: تعوّد خدنا على اللطم.

رد ببساطة:

: ضربة الأهل توجع أكثر. اليهود قتلوا وشردوا أهل فلسطين أما هؤلاء فقد قتلوا فلسطين الكامنة في داخلنا، قتلوا حلمنا بالعودة، قطعوا أوصال فلسطين الماضي، وشوهوا فلسطين الغد. يا وجعنا.

سكت ورميت نظراتك بعيداً عني، احترمت صمتك، أو صمت أبي، أو صمت القدر. في صدري مواساة حقيقية، ما زال الأمل.

سمعتك ترد وكأنك سمعتني:

: مهما ساءت الأمور لا لليأس، مرحلة وستمر، دروس وضعت النقاط على الحروف، بإمكان الأعمى قراءتها. ما هم فاعلون إن اشتط خوفنا، واندفعنا للمقاومة بشراسة وبكل الوسائل.

أجبت مداعباً أخفي خيبتي، فليس لدي حتى تلك الأونة فكر سياسي مبلور في ذهني:

: أهذه فلسفة؟

: لم لا؟..أنا مع الفلسفة، نحتاجها في بعض الأحوال.

كنت أعجب من أين تأتي بمثل هذه التعبيرات بل الأفكار عموماً. في ذلك اليوم البعيد، رأيتك كما لم أرك من قبل. لا أعرف أي خاطر طرأ على ذهني، جعلني بدل أن أهون عليك أستفزك:

: لا تنكر تورطنا، زرعت بيننا وبينهم عداوة إلى يوم القيامة.

أمنت. وعددت المصائب التي طفت بعد الأحداث. الجميع يعمل في خدمة اليهود، يحققون لها هاجسها بالأمن، وهم يزدادون طغياناً. عالمنا يزداد تمزقاً واحتراقاً، صار رماداً. قلت لك:

: أحد شعراء فرنسا قال "بدأت في البداية لأبدأ من جديد".

كنت بعيداً بفكري قريباً بقلبي من أحداث الوطن. آمالي كبيرة، معنية بالعلم والعمل، بعيدة عن الهم العام. أنت وأبي، مسئولان عن هذا الشغف. منذ وعينا وأنا أسمعه يردد:" نحن أهل علم منذ أجيال هذا الذي يبني بيوتاً لا عماد لها". كنت تلهث وراء آمالك المعلقة بين الأرض والسماء، صعب تحقيقها، لا تخصك بقدر بل تخص كل البشر. لا أعرف إن كنت أنا المسئول، بتفوقي الدراسي، عن اندفاعك في مجال بعيد عن مجالي لتحقيق شيء ما. اعتقدت بأنك تتمنى على أبي أن يراك بعين محايدة ويصفق لك.

لم تفق من كارثة موت عبد الناصر، بدوت وسطنا من شدة الذهول كأنك على وشك الجنون، تعدو في أرجاء البيت الصغير ملتاعاً، برعشة نائحة تؤلمنا، تهمس بها:

قتلوه الكلاب..

لماذا يا أبي يموت كل الشرفاء؟

لماذا يا ربي مات من سيموت بموته الأمل؟

لماذا يبتلى القوي الخيّر بطلب المحال؟

لماذا يكون هدفاً سهلاً لقتلة الأمل؟ أ لأنه رفض قانون العوام؟ ا لأنه أبى أن يتحول إلى شرير وانتهازي ومستغل؟

حين أفرجت عن نفسك الحبيسة انطلقت من البيت حاملاً أحزانك على مساحات وجهك وبدنك، أردت اللحاق بك لكن أبي أشار عليّ بأن أتركك تعبر عن حزنك بالطريقة التي تريحك.

كانت نقطة التغيير في حياتك، وهبت نفسك كلياً للهم العام، لم تعد تبالي بشيء آخر. غبت أياماً، صارت أسابيع. حين عدت، كنت بيننا غائباً أكثر من غيابك الحقيقي. تعقد ندوات، تستقطب المهتمين بالناصرية ليحاضروا بمواضيع تفترحها عليهم وجعبتك لا تخلو.

هل ستموت القومية العربية بموت بطلها؟

هل ستستمر الناصرية بعد أن خلا الجو لأعداء الحريات؟.

كأن تلك الأيام كان تحمل بذور لأحداث هذه الأيام.

كل فرد في أسرتنا الصغيرة قرر أن يكون عوناً للآخرين بعد تلك الضربة. أبي ازدادت الرعدة في صوته وهو يحكي قصة نكبة الأمس ضمن إطارها الجديد. أمي ازدادت التصاقاً بسجادة الصلاة، صارت سجداتها أطول وأعمق، صار وجهها يزدان بحلاوة من تصاعد الدم على الوجنتين من طول السجود والأمل. وأنت تهت عنا ومنا، في عالم خاص، نرى بعض الملامح، ونعجز أمام غموضها بالتكهن بما يطمئننا عليك. حياتي استقرات بعد أن نجح عميد الكلية بإلحاقي بالعمل لدى صديقه المحامي الشهير رزق الله رزق كمحام متدرب، في الوقت ذاته باشرت بالتحضير للماجستير.

حواراتنا لم تكن لتنتهي، كانت تتوقف بشكل عاصف كما بدأت. كنت أنا المحامي ولكنك من يكسب كل جولة فيها. كنت أفاجأ بغزارة معرفتك، معجباً بفلسفتك للأمور.

رغم كراهيتي للسياسة ولرجالها منذ صغري، لم أكف في الخفاء عن مقارنة نفسي بك. فلا أجد لي من انتماء حقيقي سوى للكتب وللمقررات وللمراجع. مخلصاً لنظرة بعيدة لمستقبل أصنعه على مهل، أراه فاتحاً ذراعيه لي، وأراني أرجو ظروفاً مواتيةً لأقدم للعالم لبنة تتمتع بكامل مقومات التجديد.

رسالة الزور ممددة أمامي، أعدتها إلى نعشها. أقنعت نفسي بأنها غريبة عنك كما هي غريبة عني. كلماتها مستحيل أن تكون منك أو لك، مستحيل أن يصبح المارد قزماً ينام داخل غلاف ممهور بختم مشبوه. أغمضت عيني لعلني أسمع صوتك، لعلك تحس بمواجعي كما كنا نفعل في صغرنا. أتاني صوت أبي معاتباً" لقد تأخرت كثيراً يا سامي"

أردد كمسحور:

: عندك حق. لست مثل هاني لكنني الآن..!

يؤمن على ما قلت ويستزيد:

" هل صدقت الآن بأن الدنيا قدور تغلي على نار الدسائس والمؤامرات والمؤتمرات، والناس، كل الناس، تطبخ بداخلها، على يد حفنة أشخاص بلا أخلاق بلا ذمم بلا حكمة؟"

هاني أين أنت؟؟

لا لم تمت..لن أصدق.

حين صدقت أمنا أنك مت قتلها حزنها. غيابك مؤقت مهما طال. لا يمكن لمثلك أن يموت دون ضجيج. لا بد وأن تكون ميتة عظيمة كحياتك.

حكمت ظروف معينة بأن أقوم بتمثيل دورك فأتقنته. أصبح مصدر سعادة حقيقية لي. سعادة.. أ أقول سعادة ولا أخشى الرقباء؟ يا للكلمة المدهشة حقاً. تصارع لتحتفظ بقيمتها ومعناها، ترفض المعنى النسبي المتهلل المائع. تتحدى أولئك المبشرين بعالم جديد،

حماة قوانينه الجديدة. لا يغفلون عن فكرة تتجول ولا عن نبضة تدق، ولا عن همسة روح.

يدعون أنهم في خدمة البشرية وإسعادها، مع ذلك لا يتركون فرحة ولا بسمة تمر دون أخذ موافقة من مكاتبهم التي تفتح ليلاً ونهاراً. مستعدون لكل شيء، ابتداء من اغتيال الحلم والأمنية والأشواق والحب حتى التفريق بين أخ وأخيه.

سعادة أخرى تذوقتها، سأعترف لك، سأبوح بما يعتمل بصدري.

هل ما زلت تذكرها، تلك الفتاة الصغيرة التي سميتها ذات يوم بالقطة المغمضة؟ هاهي تدق الباب، أتت لنعمل معاً على إنجاز رواية عنا جميعاً. تغيرت عائدة، أنت من غيرها، من أنضجها، من أشعل حروفها. تغيرت أصبحت نمرة متمردة.

نحيت أوراقي جانباً وفتحت لها الباب، نظرت إليها وإلى الساعة المعلقة على الحائط أمامي، ملأت الدهشة وجهي، فالنهار انبثق للتو من رحم الليل، علقت على دهشتي بمرح يخفي ألماً صار جزءاً من تكوينها:

: لم الدهشة..؟جئت لأحميك من ذاك السليمان زوج أختك الأمينة.

: إدخال أل التعريف على اسم شخص تقلل من شأنه.

: أختك أمينة متواطئة مع زوجها. رأيتهما بالأمس يتناولان العشاء في مكان عام برفقة أصدقاء على شاكلته، بحراسة تلك اللمة التي هجمت على بيتك أمس.

لم أجب.. آلمني قلبي، وخز قوي اخترق صدري وانغرس في رقبتي. يا لوجع قلبي، كيف سيصمد أمام الفواجع المتلاحقة. تنهدت بعمق، كأنني وليد صدم بلفح الهواء الخارجي لأول مرة. صاحت:

: إلى العمل سيدي..

: ستدهشين مما أنجزت.

: دعني أرى، كل هذا، يا لك من دكتور عظيم، ويا لي من امرأة محظوظة تعمل تحت إمرتك.

: عائـدة..أكملي أولاً مـا قطعتـه أمـس، أقصـد مـا تـم بينـك وبـين حسـن، ومـا دور هـاني فـي ذلـك. لقـد قـرأت شـيئاً مبتـوراً، من المهم أن تغلق تلك الفجوة.

أمسـكت بـالأوراق وأخـذت تقلبهـا بـين يـديها، وقـع نظرهـا علـى كلمـات هـاني عـن ليلـة بعينهـا، زمـت شـفتيها بـألم، نـاولتني الأوراق، وجلست في مكانها المعتاد. قالت:

: تلـك الليلـة كانـت المـرة الأولـى التـي يصـطحبني حسـن إلـى إحـدى سـهراته الكثيـرة والغريبـة، كـان يـدعي أنهـا سـهرات عمـل. بمجـرد وصـولنا إلـى الحفـل اختفـى، وجـدت نفسـي فـي صـالة اسـتقبال كبيـرة، حـائرة بـين أنـاس كثـر لا أعـرفهم. تبـاروا فـي تقـديم أنفسـهم وخـدماتهم. أحسسـت كـأنني هـدف لكـل مـن حضر وحيداً أو تركته رفيقته.

فجأة ظهر شرف أمامي. قال:

: طلب مني حسن بأن أصحبك إلى البيت متى أردت.

سألته بسذاجة:

: لكن أين هو؟

قال بصفاقة:

: سـأرافقك إلـى البيـت. إذا سـمحت لـي بالبقـاء عنـدك الليلـة سأطلعك على سر.

لـم أرد إلا بنظـرة فيهـا كـل احتقـاري لـه منـذ أن رأيتـه أول مـرة، تركتـه وأخـذت أبحـث عـن حسـن وأنـادي عليـه بصـوت عـال، تـأذت الطبقـة الراقيـة التـي لا تجـد حرجـاً بفعـل أي شـيء مشـين لكنهـا تشـمئز مـن أي تصـرف "سـوفاج" كالـذي أفعلـه. قـال أحدهم:

: اخبروها أين حسن.

قال آخر:

: اخبروها لماذا هي هنا أصلاً.

قال أحد السكارى:

: وجودها أهم شروط العروس لتقبل بالعريس.

جذبني شرف من ذراعي وأخرجني عنوة إلى خارج الفندق، لم يفلت ذراعي إلا بعد أن حشرني بداخل سيارته وانطلق. قلت وكل ما بي يرتجف من الحنق:

: عروس وعريس، ماذا هناك؟ لمصلحة من تبعدني؟

: يا جميلتي مثلي لا يعمل إلا لمصلحته. الحقيقة أنني لم أرد حرق السر الذي سأخبرك به بنفسي.

لم يتكلم رغم إصراري، التزم الصمت طول الطريق، أوقف السيارة أمام باب العمارة التي أقيم بها، ترجل منها وأسرع إلى الجهة المقابلة حيث أجلس ليفتح لي الباب، تلقاني بلزوجة أثارت غثياني. قلت بحزم:

: أشكرك. تفضل وعد لسهرتك.

: يجب أن أوصلك إلى باب البيت فالوقت متأخر.

توقف المصعد في الطابق السابع بعد عدة مرات صعود وهبوط وهو يحاول معانقتي. تجادلنا كثيراً وأنا أفتح الباب، أصرّ على الدخول ليخبرني بالسر الخطير.

سكتت، ثم ضحكت بهستيريا مرعبة، لكن سرعان ما انقلب إلى بكاء صامت ثم عويل. لامست شعرها بحنان لتهدأ فابتعدت بعنف. قلت ببرود:

: ماذا حصل؟ هل حاول الاعتداء عليك؟ اغتصبك؟.

: لم أمكّنه، صرخت عالياً وظللت أصرخ دون أن أعي ماذا أفعل. لا أظنني كنت أطلب نجدة. ولا أظنني كنت أدافع عن نفسي. ربما كنت أعبر عن هذه الدهشة الكبيرة التي ملأتني منذ أن دخلت ذاك الفندق حتى وقف ذاك الرجل يساومني على نيلي مقابل إخباري بسر.

حين سمع رنين جرس الباب والنقرات المتتالية فتحه دوت أن يشعر بأي نوع من الحرج. رد على تساؤلاتهم بمنتهى الرجولة والشهامة قائلاً:

: لا شيء يا سادة، كل ما في الأمر بأنني أتيت معها بعد أن قصدتني تسألني عن زوجها الغائب. اصطحبتها إلى بيتها لأخبرها بأنه تزوج. ما سمعتموه ردة فعل طبيعي.

: ثم ..
: سافر حسن لقضاء شهر العسل دون أن يريني وجهه. في الليلة ذاتها سهرت حتى الصباح جالسة على الأرض أبكي، وما أن بزغ الفجر حتى انطلقت إلى هاني. فتح لي الباب وهو نصف نائم ثم أدخلني بهدوء قائلاً بأن أمه ما زالت نائمة. رويت له ما حدث ورجوته ألا يعيدني إليه.

كانت أمي في هذه الأثناء قد تزوجت بالرشيدي وتقاطعنا. قضيت أياماً طويلة متنقلة بين بيتي وبيتكم. سافر هاني وعاد عدة مرات. عاد حسن وجاء لمقابلة هاني، رأيته شخصاً آخر كأنني ما عرفته يوماً. فقد تمييزه الخاص. سأله هاني عن المشكلة التي بيننا أجابه:

: أيها القائد.. أ ترى أي تغيير كما تدّعي زوجتي.

: اثبت بأنك ما زلت كما أنت، وحلمك ما زال حلمك؟

: المشكلة عدم مرونتها في مواجهة الحياة. ما زالت تتعامل مع أمور الحياة وفق ترتيبها الأبجدي، لا يمكن أن توافق على تقديم حرف وتأخير آخر.

قاطعته:

: وربما إلغائه.

: تريديني أن أحبها على الطريقة الهمجية التي كان آدم يتعامل بها مع حواء. الدنيا تتطور، وبصراحة لا وقت للحب، المصالح هي التي تفرض نفسها.

قال هاني:

: بما أنني من زوجك إياها أطلب منك أن تطلقها.

: لن أطلقها إلا..أعني في حالة واحدة. اعترافك أمام الجميع بأنك ترديها لنفسك.

يومها فقط أدرك هاني بأن حسن انتهى.

: كيف كان رد هاني؟

: طرده..

عــادت لهــا ضــحكتها الصــافية وعــادت لــي مــن جديــد رعونــة شــباب ولــى وانقضــى دون أن أعيشــها. قامــت مــن مكانهــا واستأذنت لنباشر العمل.

: الخطوة الأول تبويب الكتاب.

قلت متعجباً:

: هــاني متفــتح العقــل بعيــد النظــر، كيــف تخيــب نظرتــه بشخص إلى هذا الحد؟ ماذا كان هاني يعمل بالضبط.

: مهــام كثيــرة، لكــن إتقانــه للغــة الإنكليزيــة وثقافتــه العامــة جعلته مسئولاً إعلامياً عن الصحافة الصادرة باسم المقاومة.

: مــا قصــة غرامــه الأول؟ بالمناســبة فــي هــذه الأوراق تصريح واضح بحبه لك.

تنهدت بعمق وقالت:

: بعــد مــرور فتــرة عصــيبة بينــي وبــين حســن الــذي رفــض طلاقــي، قــرر هــاني إبعــادي بتكليفــي بمهمــة. ذهبــت إلــى بيتــي لأحضــر بعــض الأغــراض وجدتــه هنــاك، مــا أن رآنــي صــاح بوجهي غضباً:

: لمــاذا يريــد اصــطحابك، منــذ متــى وأنتمــا تســخران منــي. زوجني بك علناً لتكوني له سراً.

قلت بهدوء:

: إمــا أن تغــادر البيــت بهــدوء أو أتصــل بعروســك الجميلــة وأخبرها أين زوجها الآن. هي زوجتك وليس أنا.

: سأثبت لك بأنك ملكي.

حملنــي وقــذف بــي إلــى الســرير وارتمــي فــوقي محــاولاً شل حركتــي، أخــذ بتمزيــق ثيــابي وكلمــا تملصــت منــه جــذبني مــن شعري وأعادني إليه.

: ثم ..؟

: كلمــا تــذكرت تلــك الحادثــة أحــس بــأنني أكثــر عجــزاً علــى وصــف شــعوري آنــذاك. إذا قلــت شــعور مذلــة، أجــدها كلمــة صــغيرة أمــام إحساســي الطــاغي بحقــارة كــل شــيء. كــل مــا رددت

بـــه "هـــذا لا يعنـــي أبـــداً أنـــك زوجـــي. مجـــرد حقيـــر، قمـــت باغتصابي".

فـي اليـوم التـالي رافقـت هـاني فـي مهمـة. كنـت فـي قمـة الحـزن واليـأس والكراهيـة لهـاني، فهـو المسـئول عمـا بـي مـن تعاسـة وألـم. كـان يـتكلم لكننـي كنـت أكتفـي بهـز رأسـي أو بهمهمات صغيرة، فيسكت.

توقـف وطلـب منـي النـزول، أشـار إلـى شـجرة كبيـرة وهـو يقول:

: هيـا أركضـي لتسـخين عضـلاتك قبـل القيـام بمـا هـو مطلوب منك. على العشب الأخضر سنرتاح.

بعـد جلوسـنا أخبرنـي بأننـا علـى أرض فلسـطينية، فرحـت فعـلاً، صـرت أحـاول رؤيـة أبعـد نقطـة ممكنـة، أتـنفس بعمـق كـأنني أتـذوق الهـواء، يـدي دون شـعور منـي صـارت تغـرف التربة وتتركه ينساب بحنان، تربت على خد بلدي الجريح.

قـال أنـه مكـان اللقـاء بينـه وبـين بعـض أبطـال الانتفاضـة الـذين سـيرافقونه إلـى غـزة. طلـب منـي تبـديل ثيـابي بـأخرى موجـودة بـين أغصـان الشـجرة الضـخمة أشـار إليهـا. التقطـت الثيـاب وهممـت بالابتعـاد لتغييـر ملابسـي دون أن أسـأله تفاصيل. أوقفني صائحاً بغضب:

: لماذا لا تسألين ما معنى هذا.

ملأت يدي بحفنة تراب وذروتها في الهواء وأنا أردد:

: ماذا يعني؟

: سـتكونين بعـد قليـل مجنـدة إسـرائيلية. بقيـة التفاصـيل مـع الشباب الذين سيحضرون وترافقينهم بعد رحيلي.

تمدد على الأرض، اقتربت منه حتى لاصقته. قلت:

: أظـن بـأن حـرارة أرض بلادنـا أكثـر منهـا فـي الـبلاد الأخرى. كأنها ترسل تحياتها لي، أنا التي لا تعرفها.

: ها أنت أصبحت شاعرة، إنها العدوى من حسن.

: لماذا زوجتني؟ ألم تحس بشعوري تجاهك؟.

: إن قلت لك كي أحميك لن تصدقي.

شعرت بشيء من غضبي المكتوم تجاهه فقلت بحدة:
: تحميني بقذفي بالتنور؟ كان يكفيني أن أبقى بقربك.
لم يرد لكنه ابتعد عني زحفت قربه من جديد:
: في الحقيقة أنت كل حياتي.
نفث ضحكة ساخرة أحسست بمدى حرقتها. قال:
: حين لمحت الحب في عينيك أشقاني. تذكرت مأساة حبي الأول. كان حباً رائعاً، اندفعت وراءه بكل طاقات الشباب وعنفوانه..لكنهم..
سكت وتحشرج صوته، فصمت بدوري. كان يكفي أن يتكدر حتى أحس نحوه بفيض حنان غريب يغمر صدري.
: قتلوها.. أصدقائي ربما، أعدائي ربما، مريدي ربما، لا أعرف. عشت مأتماً حقيقياً بيني وبين نفسي، الحزن علمني قهر مشاعري.، اعتبرت المشاعر ضعف أمام عبثية الحياة. الغريب أنني قبل أن أتعافى تماماً وجدتني أمام حب جديد، تدفق نحوي كأنه العوض. امرأة رائعة بكل المقاييس، مدت لي يدها لتنتشلني من دوامة فترة حرجة في حياتي. كنت أتخبط بين حزني الشخصي وحزني العام الذي صار له ألف تبرير. تصوري أنه قبل أن أطلب منها الابتعاد، لأنني ما زلت لا أقوى على تبادل العواطف مع أي امرأة، اختفت بطريقة مجهولة.
من أجل ذلك، حين وجدت في عينيك الحب فهمته، أحسست بتجاوب في نفسي فاق كل توقع، قررت أن أحميك، قررت إقناعهم بأنك لا تعنين لي شيئاً البتة بزواجك من مساعدي الأقرب إلى نفسي.
: لكن لماذا حسن؟
: لأنه يحبك فعلاً.
: لكنني لم أحبب أحد سواك.
غصت بدموع شعرت بها قديمة محبوسة، أدارت وجهها فابتعدت. تنهدت وأنا أنظر نحو تلك المرأة العظيمة أهمس لنفسي كم تشبه أباها. قالت على عجل:

: ها هي أوراقي البيضاء جاهزة، تفضل بالكلام.

استردت نقاوتها فافلت لساني بسؤال لم يخطر على بالي أن أطرحه وأوجعها:

: ماذا كان رد هاني حين قلت له لم أحب سواك؟

صمتت وهي تنظر إليّ بملء عينيها غاضبة. سمرت عيني في عينيها مصراً على الجواب، قالت باستهزاء:

: قال، بعد عودتي سنتزوج.

صمتت بإصرار، لكني ما زلت على حالي، منتظراً تتمة الحديث. تجاهلتني وأطرقت تبحث عن شيء وهمي بين الأوراق. ازداد لهاثي واضطربت نظراتي. قلت:

: بانتظار إجابتك..

أغمضت عينيها وذهبت للبعيد. كانت تستجمع شجاعتها، ظهر ألم كبير على وجهها. في لحظة حولت عيني عنها موهماً بانتهاء رغبتي في معرفة الإجابة قالت:

: لا أعرف من أين أبدأ. غاب طويلاً ثم وصلتني رسالة بخط يده طالباً مني اللحاق به لنتزوج هناك. فهو مضطر للبقاء حيث هو عدة شهور أخرى.

: أين كان؟

: في أوسلو.

: هل ذهبت؟

: بعد أيام جاء أحد مرافقيه، كنت أعرفه جيداً ليصطحبني. كنت على استعداد للحاق به إلى آخر الدنيا.

: إذن سافرت إليه.

: نعم، أوصلني إلى بيت كبير وسط أحراش صنوبر كثيفة. كان يشبه القصر. طلبت منه رقم هاتف هاني، لكنه ذهب ولم يجب.

مرت الأيام بطيئة مملة، انتظاره جميل جعلني أتغلب على كل الصعاب، لم يساورني أدنى شك أنه سيخذلني. طول فترة الانتظار لم أر سوى عجوزاً كانت تأتيني بالطعام وتنظف المكان.

كانت تثرثر كثيراً، فتعلمني بكل ما أود معرفته دون اضطراري للسؤال. علمت أن المكان يعد للخاصة من الناس في أيام الصيف، وبما أننا في الشتاء، فلا يوجد معنا سوى القليل من الزبائن. نظرت نحوي بتخابث" علمت بأنك عروس، فاعتبري القصر كله لك. اختيار موفق أليس كذلك"

ازداد سروري ولهفتي، فها هي تعلم بأنني عروس هاني. بكل الحب الذي يمكن أن تكنه امرأة لرجل انتظرته.

تنهدت بعمق وقالت:

: كان في ذاك المكان مقتلي، أو لعل حبي له كان مقتلي كما تنبأ، لا أعرف. بعد انتصاف ليلة مشؤومة، فتح باب غرفتي بطريقة سحرية ودخل شخص، أطفأ نور الغرفة قبل أن أتبنه، على النور الشحيح بجانب فراشي تفرست في القادم. قلت بهمس:

: هاني..لا أحب الظلام.

قال بصوت مخمور:

: هكذا أفضل.

قفزت من السرير فزعة فتلقاني بين ذراعيه، أعادني للسرير بسرعة، وضع يده فوق فمي، وهمس بصوت كالفحيح، أن ألتزم الهدوء أو سيضطر لوضع شريط لاصق فوق شفتي، سيفعلها وإن كان شيء كهذا سيحرمه تذقهما. دفعته فأوثق يدي في السرير. أخذ ينزع عني ثيابي، كنت بين يديه مثل ذبيحة تقاوم بلا جدوى. فتح الباب، ودخل شخص ووراءه آخر ورابع وخامس.

أغلقوا الباب بالمفتاح، أسدلوا الستائر، أخذوا بتحضير جلسة سمر ستطول، اخرجوا الكؤوس والزجاجات، كانوا يتضاحكون ويتهامسون بالعربية وبالإنكليزية.

قال الشخص الذي لا يزال رابضاً فوق السرير يحضر لهم الوليمة بلهجة وقحة:

: ها هي جاهزة. ليبدأ أحدكم، فأنا يحلو لي أن أتفرج على شيء كهذا.

ظللت أقاوم بساقيّ، اقترح أحدهم ربطهما مثل يدي، رد عليه الشخص الذي قرر البدء، لا تقلق دقائق وستهدأ. صرخت بكل قوتي، فوضعوا على فمي الشريط اللاصق.

انتهوا عند الفجر، تركوني جثة يتردد بصدرها نفس بطيء، غائصة في سرير غارق بالدماء والقذارة، دموعي تنساب بصمت.

كلفوا أحدهم بحراستي طوال اليوم. قضيت النهار بطوله منهكة لا أقوى على الحراك. سألني إن كنت أريد ماء أو طعام فلم أرد ولم أفتح عينيّ أبداً.

في الليلة الثانية احتفلوا بوليمتهم كالليلة السابقة، تناوبوا بسادية مفزعة. كنت أقل ألماً، مخدرة الجسد والعقل، مستسلمة بلا دموع أتفرج على حيوانات تقوم بعرض لا يمت لي بصلة. سمعت كلاماً مقذعاً لم اسمع مثله كل عمري، يقلب معدتي فأشعر بغثيان، لا يشغل عقلي سوى أن ينتهوا ويذهبوا.

صباح اليوم التالي، لا أعرف حتى هذه اللحظة إن كنت قد نمت، أو مت، أو أغمى عليّ. لكن الصباح جاء، غير عابئ بما حصل ليلة أمس والتي قبلها. لكزني الرجل المكلف بحراستي، أمرني يترك السرير والذهاب للاستحمام والبقاء هناك ريثما ينتهي من تغيير شراشف السرير. فك وثاقي وهو يؤكد أنني مهما صرخت فلن ينجدني أحد، موصياً ألا أقفل الباب من الداخل.

جلست في الحمام أعيد ما حصل معي ولا أصدق، كأنني أعيش كابوساً. كانت نفسي مملوءة بأساها. فجأة رأيت وجهاً في المرآة، وجه امرأة فزعة مهشمة، كرهتها، هانت نفسي وروحي، دون تفكير فتحت النافذة الضيقة بجانبي، حشرت نفسي بها عنوة وقفزت إلى الحديقة.

أحسست بأقدام تروح وتجيء من حولي، وسمعت لغطاً، الموت والحياة، وهاني وسامي، والقضية القذرة. ثقل برأسي، بدأت أشعر بألم لا يطاق لا أعرف أين موضعه، لم أستطع حتى أن أعنّ أو أتوجع. دوار سقط رأسي بعده

وانغمس وجهي في الأرض المبللة، فعبقت رائحة الطين وغمرني بلدانه فاستسلمت.

استفقت في المستشفى، جالت نظراتي فيما حولي، كنت محاطة بأسلاك عديدة، بعضها مغروس بيدي وبعضها موصول بأجهزة طبية. كان هناك طبيباً وبعض الممرضات. حاولت التحرك، وجدتني مقيدة مرة أخرى بالسرير، أيدي كثيرة تضغط على كتفي تعيدني للتمدد من جديد. أصابتني حالة هياج حاد، اضطروا إلى تنويمي مرة تلو أخرى.

بعد بضعة أيام أدركت بأنني في مستشفى وإن الجميع يهتمون بي وإن ثقل جسمي ما هو إلا من الجبس حول ساقي ويدي وضمات ضاغط حول الضلوع. رغم الكسور والجروح كان ألم نفسي لا يطاق.

: ماذا عن هاني؟

: لم أره..ولم أذكره أثناء التحقيق معي، كذلك لم أستطع أن أدلهم على المكان الذي كنت فيه.

: من أوصلك إلى المستشفى؟

: سألت. قالوا: بأن رجلاً يعمل بستانياً أوصلني للمستشفى مدعياً بأنه وجدني في الطريق على هذه الحالة. حين أردوا استيضاح الأمر لم يجدوه.

شهور طويلة وأنا راقدة في المستشفى. لا رغبة بالشفاء ولا بالمغادرة ولا بالعودة وأكثر من كل ذلك لا أرغب بالحياة. كان المشفى خاص بطبيب متقاعد. رحب بعلاجي دون إلحاح في معرفة ما جرى لي. لكن بعد فترة جالسني، وحاول التلطف معي، حين مد كفه ليلامس شعري أو رأسي عاودتني حالة الهياج، نصحني بمراجعة طبيب نفسي، حين وافقت رشح طبيباً ليباشرني.

بعد عدت لقاءات استطاع إقناعي بمصارحته بما عانيته وإلا فالأمر أخطر مما أتخيل. رويت له كل ما حصل. يومها أخبرني بأنني حامل، ففزعت. لكنه استدرك بوعد أن يخلصني من الجنين.

حين صار إمكاني التنقل في أروقة المستشفى، أساعد من حولي حسب نصيحة طبيبي النفسي. كان لذلك بالفعل أثره في استقراري، بدأت أحس بأنني صحوت من الكابوس واستعدت نفسي.

ذات يوم وصلت حالة ولادة متعسرة جداً. كنت أساعد الممرضة والطبيب الذي قام بعملية الإجهاض لي في تحضير المرأة للدخول إلى غرفة العمليات. أخذت الممرضة والطبيب يساعدها بنزع ثيابها عنها. صارت المرأة المتألمة تقاوم بشكل هستيري. عندها شعرت بدوار غريب، داخلتني قوة غريبة. توليت الدفاع عنها فهاجمت الطبيب والممرضة، أدفعهما بعيداً عن المرأة. أصيح وأبكي، أركض في كل مكان، لم أهدأ إلا بعد تناول المهدئات والنوم طويلاً.

حين استعدت عافيتي جاء لزيارتي الطبيب صاحب المستشفى برفقة الطبيب النفسي. تكلما كثيراً وأوصلاني إلى نتيجة وجوب خضوعي لمعالجة نفسية في مركز خاص بأمريكا مختص بعلاج من تعرضن لحالات الاغتصاب.

دون مقدمات، انكبت من جديد على أوراقها وأشارت لي أن أبدأ بالرواية لتكتب.

بدأت بصرخة خرجت من جوفي، أين أنت؟

ها هو سبب آخر يدعوك للعودة من جديد. السنوات تعسة، حملت النشاز في كل شيء, ألا ترى ألا تسمع إلا تفرأ؟ نساق كما تساق الأغنام، كل شيء معد، حتى القوائم التي سيتم بموجبها توزيع أوصالنا. نعاقب ندفع ثمن الرفض، كل ما كان يقال أو يصنع أو يسمع قبيحاً في زمن قبيح.

: أي فترة هذه التي تدونها، أيامنا صارت كلها متشابهة، كلها تدفع بنا إلى نهاية الوادي.

: اكتبي يا فتاة بأنك بنيان شامخ وسط الخراب.

لا أدري كيف استعادت روحها الساخرة وقال بتحبب:

: منذ متى يا سيدي؟

: منذ أن رفضت مناقشة الموضوع المطروح من أمك على لساني. ومنذ ذاك التاريخ وأنت مقيمة في عقلي وقلبي.

: يوم تركتني غاضباً.

: يوم تركتني غاضبة. الحقيقة أنني الآخر كنت غاضباً، لم يكن غضباً بمعناه المفهوم، لعله خشية، لعله اهتماماً خاصاً، أو شيئاً لا أعرف كيف أشرحه. لعله ومضة مهدت لشيء أتى بعد حين. شيء كنت أعيش بانتظاره. أعترف لك، أنك في ذاك اليوم بالذات، وقعت في نفسي موقعاً غريباً، موقعاً، لم أكن أعرف أنه شاغر. أزحت غيوماً كثيفة ومزمنة من تاريخي. ذكرتني بمحاولات هاني المتكررة لأغير معتقدي. كان في عينيك الغاضبتين يومها العنفوان ذاته الذي أراه الآن.

: لا أرجوك.. لا تواسيني بكلام لا تعنيه. لقد شفيت ونسيت. عد يا عزيزي إلى هاني. ألم تكن مؤمناً به أو معجباً بما يفعل؟

: كنت أغبطه، كنت أخفي إعجابي في أعماق نفسي. إذا خطر لك سؤالي لماذا أخفيه، لن تعثري على جواب محدد وقاطع.

: أستطيع التكهن. الخوف من مواجهة عجزك عن القيام بما يقوم به، أو تودداً لتسمع المزيد من كلمات المديح.

نظرت إليها دهشاً وقلت باشاً:

: الأيام القاسية لا تذهب هباء، لقد جعلت منك عالمة نفس ممتازة. لعل ما قلته فيه الكثير من الحقيقة، فقد أدركت متأخراً معنى العجز وكيف يحبط الهمة. أدركت أن المديح مجرد كلمات جوفاء بلهاء، كرست عجزي، أفرغتني من إنسانيتي، حتى من بذور الرفض الطبيعي التي غرسها الرجل العظيم عبد الله شرف الدين، المناضل السابق.

ناولتها رسالة هاني وانتظرت تعليقها عليها. قالت وهي تقرأ:

: ما معنى هذا الكلام؟ ليست من هاني. لا تصدقها.

نظرت إليها بشكر عميق، قلت بحبور:
: لن أصدق كلمات ملغومة تنسفه من أعماقي فأتفتت.
قالت باقتضاب:
: وأنا أيضاً.
: لو وصلت الرسالة وأمي تواجه الموت.
: لن تصدقها. ربما لا تعرف مقدار ثقتها وتعلقها به؟
: لقد بدا لي ذلك واضحاً وهي تصارع الموت.
سألت متخابثة:
: أين كنت كل تلك السنوات الطويلة؟
: أتعبد في محراب العالم المتحضر سيدتي.. عشت بعيداً، مذهولاً من الحضارة، مذهولاً من الديمقراطية، من الاختراعات المبهرة. ساهمنا كمثقفين مغتربين في تطويرها، لقد بدت لنا بحلتها الغريبة علينا في مصلحة الإنسان.

بعد زمن طويل وأنا أتخطى الإحباط بعد الإحباط أخيراً أدركت ما أدركه هاني صبياً. كأنني مصاب بعمى خاص، يشبه عمى الألوان الذي كنا نتندر به أنا وهاني مع أمنا، حينما نرفض لوناً اختارته لنا، ندعي أمامها بأننا لا نرى لونه الحقيقي فتصدق.

علمت أجيالاً بعد أجيال، بأن العلم وحده يجعل الإنسان إنساناً. لم أظن بأنهم مخصّبون أصلاً ببذور مرض اسمه التفوق، شمال وجنوب، يحكمه قانون العدالة، عدالة القوي. كرهت نفسي، واسمي الذي حرف وأصبح سام ليليق بتفوق الشمال اللعين. كنت مؤمناً بأن المشكلة مهما عظمت تتفتت بالمنطق وبالعلم سيد الأكوان.

أحببت أخي، أكثر مما أحببته قبل.. أحببته كأخ، صرت أحبه كرمز، أحبه كإنسان. خرج من أعماقي نور كتمته طويلاً، من أجل مستقبل ومكانة علمية واجتماعية، لا تستحق هذا الانسحاق.

لست وحدي، شعوبنا كلها تستجدي حلولاً لمشاكلها على يد من لا يعنيهم أمرهم. وتأتي حلولهم لمشاكلنا بما يناسبهم هم، ونصفق. نلوذ أكثر بالصدر المفخخ فيحتوينا.

قاطعتني:

: هل تعرف أنك الآن صورة حقيقية عنه؟

: مشكلتي بأنني لم أعد أعرف متى أكون أنا ومتى أكون هو. مواقف كثيرة أقدم نفسي على أنني هاني فأرى التصديق والفخر في عيون السامعين، والصمت على شفاههم، وإذا غالطني أحدهم وخاطبني باسم سامي أستجيب أيضاً دون حرج.

: رغم تشابهكما كان بينكما اختلاف تام في الأفكار وطريقة التعامل مع الناس والحياة..

: كان تبايناً واضحاً منذ الصغر.

: ألم يؤثر ذلك على مشاعر كل منكما نحو الآخر؟

: نتطاحن، لكن لا شيء استطاع إفساد الحب الأخوي التوأمي أبداً.

: كان هناك موضوع يخلق بينكما جدلاً حاداً، ولا يهادن أحدكما الآخر؟

: هل حدثك عن شيء كهذا؟

: أريد أن أسمع منك الآن.

: موضوع حق القوة أو قوة الحق. كان رأي بأنه مهما تعددت أساليب القوة فالغلبة للحق. كان يرد بإشفاق كأنه يخاطب عبيطاً :

: أي حق؟ أين تعيش؟ ماذا لو أنك لم تغص في فم الفك المفترس سنوات؟ ألم تر كيف يلعبون في ساحات السياسة والاقتصاد بلعبة الحق ذاته الذي تتكلم عنه؟ الأقوى صاحب القدرة الفائقة على إقناع الجميع بالباطل كأنه الحق.

صمت وانتظر وقع كلامه على نفسي. حين رآني أتعذب لأهضم ما قاله اقترب أكثر وقال:

: مـاذا أقـول لـك.. سأشـرحه لـك علـى مبـدأ العـم سـام. إذا سـمعوا مـا تقولـه الآن سـيعتبرونه كـلام مستضـعفين، يتقنعـون بـه ليخفـوا رغبـتهم بالانتقـام مـن المنتصـرين الأقويـاء. تصـور ضعفنا المخجل صار قناعاً يخفي الإرهاب المتأصل فينا.

أجبت متشككاً:

: لكـن التـاريخ يحكـي عـن دول اعتنقـت مبـدأ القـوة، ألمانيـا وإيطاليـا مـثلاً، جـروا العـالم إلـى ويـلات حـروب ودمـار، حطمـوا بأيديهم حياتهم السياسية والاقتصادية والبشرية والحضارية.

ازداد حنقاً عليّ أو على الدنيا، رفع صوته قائلاً:

: هـذا أيضـاً زمـان ولـى. التـاريخ المرجـع، التـاريخ القـوة مـات. قتلتـه إسـرائيل العجيبـة بضـربة قاضـية. بـن غوريـون قـال بعـد حـرب 56 "أثبتنـا للعـالم أننـا أقويـاء، منـذ الآن سـنثبت لـه أننـا أصحاب حق".

فـي الأيـام الحالكـة أتـذكر هـاني؟ كـم أحـداث مـرت فـوق رأسـي فأتماسـك وأتخيلـه سـيأتي ليهنئنـي بـأنني حملـت الهمـوم كلهـا كأنـه معـي يعيننـي. رحيـل أمـي. العـالم الـذي يغلـي. أحـداث تتـوالى بسـرعة مجنونـة. كـلاب مسـعورة لـم تعـد بحاجـة لمسـوغات لـتهجم علـى الفريسـة. لـم يخـدع، كـان يشـمر عـن سـاعده ويبـرز عضـلاته ويقول"أمـام العجـز المطلـق لا بـد مـن استعمال العضلات".

هـذه رسـالتك المدعيـة أمـامي مطويـة بعنايـة، أعتـرف لـك بـأنني أخشـاها، أعتـرف لـك بـأن عقلـي مـا زال يعمـل بشـكله الأكاديمي، يعلل ويفسر، ولا يجد سبباً لوجودها أمامي الآن.

ترى هل هي مدسوسة عليّ لأقتنع بما رفضت؟

لمـاذا يـرون رفضـي للمطلـوب شـيئاً عظيمـاً وقـد استسـلمت بكليتي لتنفيذ العقاب؟

هـل دروا بمـا يـدور فـي فكـري الـذي أصـبح فكـرك ونبضـك؟ مـا يـدريني لعلهـم أوصـلوني بطريقـة أو بـأخرى إلـى هذه النتيجة؟

أمسـك بالرسـالة، ثـم أرمـي بهـا بعيـداً عنـي. أتـذكرك.. أتـذكر الفـوارق الكثيـرة التـي كانـت بيننـا، فـلا يسـعني إلا الإعجـاب والإكبـار. أصـبحت تعنـي الكثيـر بالنسـبة لـي. كيـف أسمح لكلام لا أعرف مصدره بأن يقتلني مرتين؟

تاريخك يشهد لك، منذ أن وعينا وأنت مختلف.

أول حـدث وعينـاه بعـد أن شـببنا عـن الطـوق هـو معنـى كوننـا مهـاجرين ومشـردين. سـنوات النفـي طالـت، كبـر الصـغار وشـاخ الكبـار، كبرنـا وعرفنـا أسـباب الكآبـة التـي عاشـها أهلنـا وكبـار السـن مـن شـعبنا وأنـت معهـم دونـي، حتـى قبـل أن تعـي تماماً مجريات الأحداث.

ربمـا كنـت الوحيـد مـن أفـراد الأسـرة كلهـا علـى كثـرة عـددها مـن يسـأل ويلـح فـي السـؤال علـى الـرغم مـن صـغر سـنك، كنـت رافضـاً حيـاة المهجـر البدائيـة، تبكـي لأننـا نعـيش فـي بيـت واحـد يجمعنـا مـع بعـض الأقربـاء والغربـاء. بعـد أن اشـتد عـودك كنـت عونـاً للجميـع، تواسـيهم، تعطـيهم محبـة ورحمـة، فـأحبوك وآثروك على أنفسهم.

كنـت أشـد منـك رفضـاً، لكننـي كنـت أكثـر خجـلاً وصـبراً، أتعلـل بـأنني لا أريـد أن أزيـد ألـم أبينـا وحرقـة أمنـا. الحقيقـة أننـي لـم أكـن أملـك ذاك الشـيء الـذي يـدفعك لتحضـن الركـب كعالمـك، لا أنكـر أننـي كنـت معجبـاً بـك أيمـا إعجـاب، لكـن لـيس إلـى درجـة أن أكون مثلك.

في المدرسة، كنت دائماً في موقف المتحدي، تكره الظلم، تدافع عن حقوق من يعنيك ومن لا يعنيك، كثيراً ما تقف خطيباً بين التلاميذ ووجهك ينبض جرأة وشجاعة، وصوتك يهدر حماسة، فيصفقون لك مهما كان الكلام الذي تقوله، حتى وإن كان أكبر من عقولنا ومداركنا، إلا أنا.. كنت أتمنى فعلاً أن تنتبه لدروسك وتحس بمعاناة أبينا، أبينا المشلول الذي أصبح هاجسه الأساسي كيف نحصل العلم الذي سيرفعنا من هاوية الهجرة والعوز والضعف.

كبر تحديك، صرت أخفي الإنذارات التي كان يسلمني إياها المدير الواحد تلو الأخر لأوصلها لأبي، الغريب أن كل إنذار كان يختلف سببه عن الآخر، لا اعرف حتى الآن كيف كان يتسنى لك اقتراف كل هذه المخالفات بتحدي وجرأة؟.

قبل نهاية سنتنا الجامعية الأولى جاءت نكسة حرب 67، كنت فتىً يافعاً تخلقت أثناء المد الوطني الصادق، نهلت من ثورته الفكرية والسياسية ومن زعيمها. صرت قولاً وفعلاً ناصرياً، تقيس الناس على منهاج عبد الناصر، فيأخذ معظمهم صفة خائن من الدرجة الأولى.

أيام ستة هزت العالم، طلبة الجامعات مشغولون مع أساتذتهم في الدفاع المدني، جامعتنا الأميركية أكثر استنفاراً واستحكاماً، كنت تصر على الخروج من الصباح إلى المساء. يسألني أبي أين تذهب، وماذا تفعل؟. أنفي معرفتي بشيء، مع أنني أعرف أنك هنا أو هناك توزع منشوراً أو تلصقه، أو تعد آخر بلهجة أشد وأجرأ.

لن أنسى يوم ألقى جمال عبد الناصر خطاباً يعلن فيه تنحيه عن الحكم، وتحمله وحده وزر ما حصل. همدت وصمت، وانزويت في الركن ذاته حتى صبيحة اليوم التالي. خرجت مسرعاً من البيت قبل الجميع كأنك قفزت من سريرك إلى الشارع دون توقف. لم تسمع أمك وهي تناديك، لا تذهب إلى الجامعة الأميركية على الريق، لم أسمعها تنطق بكلمة الجامعة دون أن تتبعها بالأميركية باعتزاز.

لحقت بك، أمسكت بذراعك لأوقفك ريثما نذهب سوياً، لكنك نفضت ذراعك من بين يدي الضاغطة بكل قوتها وأكملت مشوارك. تركت لي نظرة اقتحمت عمقي، تسألني إلى متى أنأى بنفسي عن الأحداث؟ فيها كم من التعجب المرسوم فوق عينك بحاجبيك المشدودين إلى رأسك. كيف أدعوك لتأكل وبقلبك هذا الكم من الهم، وهذا الكم من الوجع. رأيت في عينيك دموعاً ووجعاً لم أرها مطلقاً بمثل تلك الكثافة والقوة، لا قبل ذاك ولا حتى يوم وفاة والدنا.

حين وصلت بدوري إلى الجامعة اتجهت فوراً إلى المدرج لأتلافى خرق التحذير المكتوب بالخط العريض عن عدم التجمعات والحرص على دخول قاعات المحاضرات بوقتها. وصلني صوتك، أجلت ناظري باحثاً عنك، لم تكن لتستقر في مكان، رأيتك تنتقل بين الطلبة تحرضهم على الامتناع عن دخول الحاضرات والخروج للتظاهر.

اندفعت نحوك أنبهك من مصير لا يحمد عقباه. الامتحانات على الأبواب، والتحذيرات الإدارية واضحة، إلى أين تدفع بمستقبلك. لم تهتم لهمسي بل ربما لم تسمعه استرسلت في الخطابة.

جاء صوتك أعنف وأقو ى. هل كنت ترد على جزعي أم على غياب عبد الناصر عن الساحة لأنه يعني أن نعود إلى حالة التغييب عن الساحة الدولية. نعود للركوع والخوف. صرخت سينتهي زمن "أرفع رأسك يا أخي فقد ولّى عهد الاستغلال" وسنعاقب بأثر رجعي. ثوروا.. ارفضوا.. اشتعلت حماسة وكذلك من كان قريب منك.

رأيت مدير الجامعة قادما نحوك، تحف به كافة هيئة إدارته، صحت بصوت أعلى وأعنف، وبعجلة من يتوقع حصول كارثة لا محالة:

: سترون الآن هراواتهم في أيدي رجال منا. يريدون احتواءً عالمنا بشكل كامل. يطمعون بمستقبلنا بعد أن استخفوا بالماضي وتفننوا بانتهاك الحاضر.

وقف المدير مشرئب العنق ودماء الحنق المكبوت تكاد تنفر من جلد الوجه الأمريكي الأبيض، شابكاً ذراعيه فوق صدره، ثم أفلتهما، وصفق بصلف ظاهر، وسخرية مريرة تطوف فوق الشفاه الدقيقة وهو يقول بلكنته الإنكليزية:

: هذا المنبر الذي تقف عليه خطيباً تدفع لك وكالات أمريكية رسومه، يريدون لك أن تتعلم لتصبح شيئاً بدل أن تبقى متشرداً. خذ علق بنفسك مرسوم طردك من الجامعة.

كان قلبي يدق بعنف، دقاته تعلو وتعلو، كأنه سيفر من صدري مذعوراً، لم أخف عليك بقدر ما تخيلت وقع شيء مثل هذا على أبي، على فرحته الوحيدة. رجعت مسرعاً للبيت قبل أن يسلمني المدير نسخة من مرسوم الطرد.

حين عدت للبيت شرحت الموقف لأبي، واتهمتني بالجبن. كنت صامتاً بانتظار تعليق أبي، لم يتكلم لكنه حدجني بنظرة نارية فقلت:

: الذعر الذي أصابني من أجلك يا أبي.

لم تتبدد تلك الغضون عن الوجه المتطلع نحو الفضاء باحثاً عن موطئ لنا. سمع صوتك الجاد فعاد باشاً مشجعاً:

: مهلاً..مهلاً. لا تخلط الأوراق يا سامي، كنت خائفاً على نفسك من أن يأخذك المدير بجريرتي، لكن ولا يهمك..لا خوف من أمثالك أبداً، وما أكثرهم.

كم كنت رائعاً يومها، أنهيت رواية المشهد لأبي بنفسك. لم ترتعش، لم تحسب حساباً لشروده. كالعادة كل منا ترجم شرود أبي بشكل مختلف عن الآخر. اعتبرته ألماً، لأنه مضطر لإعادة حساباته من جديد ليجد طريقة ما تكمل بها دراستك. وبدورك فهمته، بأنه تحقق ما كان ينتظره، أن يأخذ أحد حقه وقد فعلت. أكملت المشهد بكافة تفاصيله لتزيد من سعادته، وكأنك تقول له ها قد كبر الصغار:

: أزحت الطلبة من أمامي، ومشيت بهيبة سقراط حين قرر الموت دفاعاً عن قضيته. تناولت الورقة بيد ثابتة من اليد الحانقة المرتجفة الممدودة بها، تأملت ما بها ملياً وابتسمت، ثم

مزقتها، وألقيت بها تحت قدمي مديرنا الأميريكي. استدرت للطلبة وقلت:

: ألم أقل لكم.. ها هو إعلان الطرد مكتوب باللغة العربية، ولا أظن أن مستر وليم يتقن أو يحترم لغة المتخلفين. جل همهم تعزيز شعورنا بالقهر وبالنقص، وبتحطيم مقومات وجودنا. لن يرتاحوا قبل اختراق عمقنا الحضاري والديني والبشري.

قال أحد الطلبة:

: بعتم أوطانكم، وجئتم لكي تدمروا بلادنا الآمنة.

أجبت والمشرف يدفع بي بعيداً عن الساحة:

: لا تصدق هذا الهراء، وخاصة أن بلادك آمنه.

مشيت بضع خطوات مع المشرف، التفت للخلف فرأيت الطلبة يتفرقون كأن شيئاً لم يكن. حاولت الرجوع لكن قبضة الأستاذ المشرف أعاقتني، كانت نظراته تنسكب مقتاً في عيني. بادلته بنظرة مماثلة فارتخت أصابعه فأفلت منها. كم كرهته لحظة حدق كل منا بعيني الآخر، رأيته مثل كل مأجور، تختلف أسماؤهم، ولكنهم يتشابهون في وضاعة نفوسهم، وفي سحنهم.

تركت الأوراق جانباً وسألتها:

: أ كتبت كل هذا؟

: نعم لقد دونت كل ما تلفظت به. إذا أردت أن تبعث برسالة لهاني فأعطهم هذه الأوراق.

: لن أعطيهم شيء. إذا كانوا جادين فليأخذوني إليه.

: سنذهب معاً.

رددت بابتسامة بريئة، في عمقي ألف حيرة وغيرة.

ناولتني فنجان القهوة وهي تقول:
: كم غبت عن أهلك في سفرتك الأولى.
: سنتان تقريباً. كان أبي يلح على عودتي. حين عدت تبين لي بأن شوقي لهاني فاق شوقي لأي فرد من الأسرة بما فيهم أمي. لم يقابلني بالشوق ذاته، لقد تغير، خيل ليّ أنه يتربص بي، لم يعد يثق بي، حسبني على المعسكر الآخر.
: أرجوك اكتبي كل ما أقوله، أريد تذكيره ببعض الأمور التي تداعت الآن في رأسي.
هزت رأسها وهي تتضاحك وتشير إلى الورق وتقول:
: لم ينقص إلا أن أسجل تنفسك. هيا أكمل.
: بعد ذهاب الأهل للنوم انفردت بي، صرت تحوم حول موضوع معين. وقتها كنت فخوراً بنفسي، رغم يقيني بأنه جد مختلف عما بنفسك. سألتني:
: هل من أنشطة سياسية يقوم بها الطلبة العرب هناك؟
: أنشطة كثيرة.
: مثل ماذا؟
: في الحقيقة نتشارك بأنشطة يقوم بها أمريكيون وأوروبيون ويهود. هدفهم تجاوز عداء لم يعد مجدياً.
: ثم ماذا؟ أعني ما دور الطلبة العرب؟
: أنت تعرف أكثر مني بأنهم لا يملكون القدرة، أو لنقل الرغبة، أو ربما بعد النظر، أو دعنا نسميها حنكة سياسية.
: ولماذا؟ أليس درجة وعي الإنسان لحقوقه أمر بديهي؟ نتفهم تعطلها هنا، لكن أن تتعطل هناك أيضاً أمر لا بد من تفسير له.
: لا وعي دون معرفة. لم تتح لهم فرص توسيع مداركهم ومواكبة العالم، فهم لا يعرفون حتى ما يحصل في بلادهم؟
: لكن ألا تعني تلك اللقاءات شيئاً مهماً بالنسبة للطرف الآخر؟ ألا تمكنهم من معرفتنا أكثر، وجس مواطن ضعفنا واختراقها، وخاصة مع هذا الجهل الذي تكلمت عنه؟

: غالبـاً مـا تـتم اللقـاءات فـي الجامعـات أو المنتـديات الثقافيـة، فـي منـاخ علمـي وثقـافي وأكـاديمي. نحـن مثقفـون ولسـنا سياسيين، المواضيع بكافة أشكالها تناقش من جانب أخلاقي.

: يعني؟

: كنا نكتفي بالاعتراف بالغبن الواقع علينا.

: الآن فهمت..شـيء مثـل هـذا الاختـراق عـن طريـق طلبـة فشلة يساعدهم، تحويل كفاحنا إلى رضوخ وإذعان.

: لمـاذا يـا هـاني لا تـرى الأمـور بشـكل منطقـي؟ ألا توسـع مثل هذه اللقاءات معرفتنا بهم أيضاً؟

: معرفتنا بهم؟ نتجرع مرارتها يومياً.

قاطعتني عائدة:

: لا أصـدق أنـك توسـمت خيـراً فـي أولئـك النـاس. فـي أحسن الأحوال يروننا كطبقة المنبوذين في الهند.

: عودي للكتابة..

لقـد أدركـت أخيـراً مـدى الظلـم الـذي نعيشـه. نتحمـل وزر خطـأ وتقـاعس وفشـل الآخـرين. بـلا وطـن يعنـي أن مكـان بالنسـبة إلينـا مكـان مؤقـت، تحـت رحمـة الظـروف والأهـواء السياسـية والاجتماعية والاقتصادية.

رنـين الهـاتف يتواصـل، رفعـت السـماعة بينمـا نظـرات عائده تتابعني باستغراب. سمعت صوتاً خافتاً يتكلم بسرعة:

: هل الدكتور سامي معي؟

: نعم..من المتكلم؟

: أنـا حسـن، سـمعت أنـك تريـد رؤيتـي، هـل تسـمح لـي بزيارتك؟

: تفضل وقتما تشاء.

: إذن..أنا قادم..

انطفـأت الحماسـة التـي كنـت أملـي بهـا المـذكرات. تساءلت:

: ماذا هناك؟

: إنه حسن، يطلب زيارتي.

: هل قال ما يقلق؟
: لا.. مجرد خوف من حقيقة لا أعرفها.
: لا أريد رؤيته.سآخذ صندوق الأوراق، ما رأيك؟
: أعيدي قراءة ما دوناه، ربما نرسلها لهاني.
: لن نرسل شيئاً، لكن اتفق معه على مقابلة هاني.
غادرت حاملة صندوق هاني الكبير، أحسست بها تحمل رفات هاني لكنني طردت الفكرة من رأسي. لم يمض وقت طويل حتى سمعت جرس الباب فأسرعت الخطى لفتحه، أدهشني سرعة وصول حسن بهذه السرعة حتى خيل إلي بأنه قد كان على بعد خطوات من منزلي، لعله رأى عائدة وهي تغادر قبل قليل.
سمعت القادم يقول بتساؤل:
: سيد هاني..مساء الخير
لم أرد، كنت أتفحص القادم. حين رآني دهشاً قال:
: هل أنت هاني عبد الله؟
دون تفكير أجبت"نعم"
صمت متشككاً ثم قال:
: إذن من أنا؟
لم أجب. سألني من جديد:
: لماذا أنت هنا؟ كيف عدت؟ ومتى؟
همست"لا أعرف"
احتد الصوت:
: كلمني..من أنت؟
ابتسمت بسخرية ثم قلت بثبات:
: قل لي من أنت أولاً حتى نستطيع التفاهم.
كان يبحلق في ارتباك، الشبه كبير بيني وبين هاني.
: أنا الدكتور سامي عبد الله.
: أنت شقيق هاني؟
: وتوأمه.
مد يده مصافحاً وقال:

: أنا الملقب بأبي الحسن. قيل لي بأنك تبحث عن هاني. الحقيقة بأنني رأيتك عدة مرات في الجامعة. اعتقدت بأنك هاني، ظننتك تتخفى. اتصلت بك تلفونياً أكثر من مرة أسألك إذا كنت تريد إرسال شيئاً لهاني. كنت أريد التأكد إن كنت هاني أم شقيقه كما قيل لي. الصوت أيضاً متشابه.

: أين هاني؟

: لا أعرف شيئاً مؤكداً. يقولون أنك أنت هاني وأن سامي هناك يقوم بمهام جسام، الأخبار متضاربة.

: أنا سامي، هاني لا نعرف أين هو. هل تعرف شيئاً؟

: كنا أقرب شخصين لبعضنا البعض. كان بيننا عهود أغلى من كنوز الدنيا، مع ذلك فصمته امرأة...

: كيف سبب كهذا يفرق بين اثنين عاشا واقعاً مريراً من أجل قضية مقدسة؟

: لا أعرف حقيقة ما حصل.. كل منا تعرض لضغوط قوية. لا أستطيع في هذه العجالة أن أخبرك بالكثير. فأنا مراقب.

: ممن؟

: من زوجتي..إنها قريبتكم.. وراءها سر كبير. في البداية فرقت بيني وبين زوجتي ومن ثم بيني وبين هاني ثم بيني وبين القضية. أنا في خطر حقيقي.

: إذا كانت زوجتك تعرف شيئاً عن هاني فأخبرني. لا بد وأنه كان لديها أهداف أخرى بزواجها منك.

: هاني في مكان ما، لا أعرف إن كان اختار الإقامة فيه بمحض حريته أم أنه مرغم. يعتقدون بأنه أنت، أو يوهمونه بذلك.

: أين هو بالضبط؟

: يقولون أنه هناك في عرين الأسد. اعتقد بأنه تعرض لضغوط ما. في اللقاء القادم سأخبرك أكثر.

مد يده وناولني ملفاً وهو يقول:

: اقرأ هذه الأوراق. سأراك غداً.

: أين ومتى.
: على الغذاء في الجامعة، كافتيريا الأستاذة.
خـرج بسـرعة بعـد أن تأكـد مـن خلـو الطريـق. حملـت بقايـا هــاني وتوجهــت إلــى الســرير اســتلقيت و فتحــت أوراقــه بلهفــة. كانت يوميات بخط هاني. قديمة وجديدة.

الورقة الأولى:

في ذروة وجعي همست لنفسي لقد هزمتني هذه المرأة. حين هدأت ثورتي بعد ذهابها اتخذت قراراً بأن لا أمكنها من كسري.

دائماً أتذكر وجه عائدة الباكي، منكفئاً فوق صدرها وجسدها يهتز بكامله. أحزنها كثيراً أن قابلتها وذهني خال تماماً من كل ما كانت تحدثني عنه، وعد وارتباط، وألم كبير عاشته بسببي. وسؤالها الباكي "كيف سمحت لنفسي بخداعها"

الآن أدركت كل شيء. كنت مغيباً، في عالم آخر. هذه المرأة، منذ أن تلاقينا، تدخل وتخرج في حياتي بحرية مرعبة، تفجر بأعماقي زلزالاً لا أعرف الخروج منه. لم أثق بها أبداً ومع ذلك كنت أسمعها وأسلمها قيادي، أتعامل معها وفق ما تشاء دون حرج.

متى التقينا؟ أين؟ لماذا هي؟ لماذا أنا؟

الورقة الثانية:

بعد اجتماع دام ساعات طويلة مع المفاوضين رفضوا مجرد إدراج مقترحات الدكتور عيسى على جدول العمل. وقف الرئيس منهياً اللقاء، ضغط على جرس أمامه، دخلت فتاة تحمل المظروف ذاته الذي سلمته الصباح أعطته لي.

سرت في شوارع المدينة الجديدة التي أزورها لأول مرة على غير هدى. تركتهم مستبشرين ضاحكين ساخرين مني ومن المقترحات أيضاً. قدرت ما قاله عيسى."ذهبوا إلى المفاوضات كمن يذهب لنزهة صيد للترفيه، لا كما يذهب من بيديه مصير أرض وشعب ومستقبل أجيال".

فجأة أحسست بشخص يرافق مشيتي، أحسست بعينين ترقباننني بفضول، التفت فإذا بي وجهاً لوجه مع فتاة في غاية الجمال في غاية الأناقة، تبتسم لي بدلال متسائلة برقة.

: هل أنت بحاجة إلى صحبة هذه الليلة؟

: لم أرد، لكنني لم أخف انبهاري الذي شملني من قمة رأسي حتى أخمص القدمين. ظننت نفسي رفضت وتابعت

مسيري، فتابعت سيرها، جددت في السير فأسرعت، حرصت على ملازمة كتفها كتفي، كانت تقاربني بالطول. توقفت وقلت:

: لست بمزاج جيد. لا أريد رفقة اليوم واليوم بالذات.

قالت بسرعة:

: أعرف.. أريد أن أخفف عنك.

صمتت برهة تتفحصني فلم أرد استطردت:

: أنا واحدة من المناضلين من أجل حريات الإنسان، مطلق إنسان. بغض النظر عن جنسيته أو لونه أو دينه أو لغته. لا أجد غضاضة في مساعدتك.

: لست بحاجة إلا للصمت والهدوء.

: عظيم.. سأصمت وأسير بجانبك بمنتهى الهدوء.

لم نسر بضعة دقائق حتى رأيت يدها تمسك بيدي، شدتني إلى جانب الطريق، حيث مقهى يعج بالناس، أجلستني في ركن بعيد، وطلبت شيئاً، ما لبث النادل أن جاء بفنجانين كبيرين من القهوة مغمورة بالقشدة:

: هيا..هذا أفضل شيء لاستعادة النشاط المفقود.

قلت كأنني أواسي نفسي:

: ليس نشاطي هو المفقود بل الأمل.

: حتى هذا عندي وصفة رائعة له. أنت مهموم بسبب قضية شعبك، لا تجد بارقة أمل لإحلال حقه.

قالت تلك الجملة بالعربية وبالإنكليزية والفرنسية. حدثتني بطريقة متميزة يبدو بأنها تقتحم بها عالم الآخرين. فكرت بأنها لا بد وإن تكون على صلة بما كنت بصدده. أثارت انتباهي وفضولي. لم لا أكسب تأييد جماعتها خاصة وأنها تنتمي لعدة ثقافات وربما جنسيات؟ قلت بسرعة:

: من أين أنت؟ وكيف عرفت ما بي.

: فرنسية، تلقيت تعليمي بأميركا. اسمي تانيا. مراسلة لعدة صحف وعدة محطات تلفزيونية. هل هذا يكفي كأوراق اعتماد لديكم دكتور سامي؟.

قلبت أوراق هاني الطازجة بين يدي لمعرفة تاريخها ومكان صدورها. لم أصل لنتيجة. يكفي أنها أحدث عهداً من الأخرى التي رحلت مع عائدة منذ قليل.

هل يحاول هاني أن يقول شيئاً معيناً؟ هل يبعث بما يشبه الرسالة إلى شخص معين؟ هل أكون هذا الشخص؟ هل راودته فكرة الكتابة إلي كما حصل معي؟ لم لا..التوائم تعيش توارد خواطر. عدت للقراءة من جديد.

الورقة الثالثة:

"حين نادتني باسم سامي أول مرة لم أصحح لها الخطأ، لكن حين أعادت الكرة، وسلمت عليّ بحرارة الأصدقاء، نادتني باسم سامي دون كلفة وسط أعضاء مرافقين لوفدنا هناك، أداروا وجوههم نحوي ليتأكدوا من شخصيتي. قلت دون أن أعرف أن كنت أنفي تهمة أو أصحح خطأ وقع، بأنني هاني ولست سامي.

اليوم نحت بحديثها منحنى آخر، سألتني إن كنت أريد تسقط أخبار مؤتمر السلام؟ لم تجد عندي رغبة في الحديث غير بعض إيماءات بسيطة. سألتني مباشرة:

: أعرف أنك تقابلت في أميركا مع جماعة اليهود المؤيدين للسلام؟

: تظنينني أخي، أنا هاني، أشبهه شكلاً فقط.

: لا يمكن أن تكون هاني، يقولون بأن هاني لا يطيق سماع كلمة يهود. تأخذه حماسة ويقذفهم بالشتائم والوعيد، شأن كل الثوار.

: من قال لك ذلك. يقولون بالأمثال"من لا يرى من المنخل فهو أعمى" ونحن لم يبق لنا إلا هذا النظر الثاقب. الحقيقة أنني معجب بقدرتهم على العمل لقضية كلها باطل في باطل، فجعلوا لها قوائم وقواعد وأسس، خلقوا دولة من لا شيء. على أي حال، أسعدتني معرفتك، لكن قبل أن نفترق أؤكد لك مرة أخرى بأنني هاني.

: ألا تشعر بالكراهية نحوهم؟

: لـيس إلـى درجـة ذاك القـول العـاجز الـذي دفعنـا ثمنـه كثيـراً "سـنلقي بهـم فـي البحـر". يبـدو أن علينـا تطـوير وعينـا السياسـي والفصـل بـين العاطفـة والعقـل. أظـن أن مثقفينـا العـرب فـي أمريكـا، وأخـي واحـد مـنهم، توصـلوا لصـيغة بيـنهم وبـين اليهود هناك.

: هنـاك كثيـرون آمنـوا بـوعي بحقكـم. أنـا مـثلاً ضـد كـل من يمارس القهر والظلم على الآخرين، وخاصة الفلسطينين.

صدقتها.الآن ظهرت مخالبها. صاحت وهي خارجة:

: أعـرف بأنـك تكـره العنـف، تـؤمن بقـيم الحـق والخيـر والجمال، تعتقد بأنها ستغلب الباطل وإن طال الزمن.

أسكتها صارخاً بدوري:

: أنت مثلهم تعتقدين بأنني سامي، أنا هاني.

تجاهلت ما قلت، عادت والتصقت بي لتنفث سمها:

: هيا كن شجاعاً مثل أخيك.

أحاطـت رأسـي بـذراعيها، امـتلأت برائحتهـا الغريبـة وفحيحها:

: فـي الحـرب كمـا فـي الحـب كـل شـيء جـائز. هـؤلاء سيتسـيدون العـالم فـي القـرن الجديـد فمـاذا ننتظـر. هـل أخطـأت باللجوء إليك.

رددت بسذاجة:

: وماذا تتوقعين مني؟

: نحـن فـي سـباق معهـم. يجـب أن نصـبح أشـرس مـنهم لنفشل مخططاتهم، أعني أن نستعمل أسلوبهم وأدواتهم.

سمعت نفسي ترد وكأنني اقتنعت بأنني غيري:

: لا لسـنا مـثلهم، فهـم يلجئـون للعنـف لأنهـم علـى باطـل نحن أصحاب حق وهو الذي سيفرض نفسه.

: ها..هـا..ألم أقـل أنـك سـامي؟ لعبـة الحيـاة هـي لعبـة الحيـاة، بطلهـا الرجـل المتفـوق. أنـت هـو يـا سـامي لا مجـال للتخاذل.

تركتني قبل أن تسمع ردي. غرقت في حيرتي. لعلي مريض، من يدري؟ أ أنا هاني أم سامي؟ يصرون على أنني ذاك الأكاديمي المتخاذل. لكن لم أستهجن ألم أكن أتكلم بلسانه قبل قليل؟"

الورقة الرابعة:

" في الآونة الأخيرة وصلت إلى حد اليقين بأنني غيري. لم أعد من كنته وأعرفه تمام المعرفة. لم أعد هاني الذي عاش عمره في المقاومة المشروعة بكافة وجوهها. وسامي شرف الدين أخي، الأستاذ الجامعي والمستشار القانوني القدير، كيف اختلطت مقومات شخصي ومكونات نفسي بغيرها؟"

نحيت أوراق هاني جانباً، ومن قلب ذهولي صرخت مستجيراً مما تخبئه لنا المقادير. ها هي عواصف التغيير سحقتني وسحقت أخي، فما الذي صنعته بأولئك الذين يعيشون يوماً بيوم ولا غد لهم؟

أي مهزلة نعيش؟

ما كان أسعدني قبل هذا الوجع، كنت رافضاً فكرة العزلة أو النفي ووطن ضاع. آفاقي أوسع من الانتماء لأرض وشعب. أما الآن فأنا أعيش في هذا المنزلق، ولا عزاء لي بكل ما أمتلك. تبدلت الأمور التي نعيشها يومياً أو ربما طرأت فجأة، صارت تساوي بين الأحياء والأشياء، بين الشواهق والمستنقعات، الحقيقة والعبث.

متى دخل هذا الكلام عقلي؟ يا الله.. من أنا؟ الازدواج يعذبني. سأتماسك، ما زلت كما أنا لا أعترف بحدود، لا شمال ولا جنوب، لا شرق ولا غرب. ممتلئة نفسي بمن أكون، أنا سامي شرف الدين الإنسان، اعتنق مبدأ حق الحياة للجميع. لكن ما أن تذكرت انسحاقي المعلن والمقروء والمسموع حتى شعرت بانكساري.

لعلي هاني، وهو سامي. كيف لي بمعرفة الحقيقة. أوراق هاني تشي بحيرة كحيرتي. لا يعجبني التأرجح بين

تمـــرد الثـــائر وثـــورة المثقـــف، أيهمـــا يعبـــر عـــن حقيقتـــي؟ الازدواجيـة تجعلنـي خـدراً، تضـللني لكنهـا تسـعدني فأحيانـاً أرى المسـتحيل ممكنـاً. صـرت بحاجـة إلـى بطولـة مـن نـوع آخـر، بطولة نبذتها عقولنا والعلم يبني الإنسان فينا.

أصبحت أرتاب بكل شيء.

سرت على قدميّ عابراً طريق الجامعة، ملتفتاً خلفي مع كل خطوة، أتفحص كل وجه يمر بي، أحدق بكل شباك وباب. تعكّر مزاجي، الطفرة تعود بإلحاح هذه المرة، من أكون؟. فجأة غمرني شعور غريب، ما ضرني إن كنت هاني أو سامي. اشرأب عنقي وارتفع رأسي مثل نبتة مشرعة نحو السماء.

صارت خطواتي ثابتة، وأفكاري مصاغة بسلاسة، تتدفق مع تدفق قطرات دمي في شراييني. مانشتات هاني جاهزة في رأسي سأقلبها على طاولة الاجتماع. "حتمية اختراع وسائل وأدوات للتمرد". "تكوين منظمات منضبطة متحدة للنضال والمقاومة". "لا للحلول السلمية".

كنت بحاجة إلى حافز لأصير أشبهه، ها هو الحافز بين يدي. حالة نفسية، رأيتها كثيراً في حياتي، آخرها في المستشفى حيث كانت أمي تعالج، مرضى عاجزون تماماً عن الحركة، محاطون بالأجهزة والأربطة، فجأة دوت صفارات إنذار حريق، وقفوا وألقوا بأنفسهم على الأرض يبتغون الهروب من خطر استشعروه.

ماذا أنتظر أكثر من هذا. قانون سائد، إن لم تكن قاتلاً فأنت لا محالة مقتول. آه.. يا زماننا الحزين.

ربما أمسكت اليوم بطرف خيط غياب هاني المريب، حسن سيفتح طاقة الأمل. تخلصت من ازدحام الطلبة مع بداية الفصل الجديد، انحرفت إلى الطريق الفرعي المؤدي إلى بيت خالد حيث سأعهد إليه بأوراق الدكتور عيسى.

كان بانتظاري حسب الموعد المتفق بيننا، قادني إلى طريق مؤد إلى مدخل فرعي للجامعة وهو يقول:

: الاجتماع في مكتبي.

هززت رأسي غير مكترث. رأسي مزدحم بلقاء حسن المنتظر والأخبار التي يمكن أن أسمعها منه حول اختفاء هاني. ضبط خالد عينيّ الزائغتين في أروقة الجامعة سألني:

: كأنما فتر حماسك للقضية.
: ما يشغلني من صميم القضية.
: هل من جديد؟
: نعم سأقابل حسن مساعد هاني المقرب، لقد وعد بإحضار وثائق مهمة لاجتماعنا اليوم.
دلفنا إلى مكتب خالد. أدهشني عدد الأساتذة الذين استجابوا للدعوة دون معرفة تفاصيل. عرفت بعضهم، ثم عرفني خالد بالآخرين. وضعت مظروف عيسى أمام خالد فتلقاه بلهفة، فتحه وأخرج الأوراق، وطافت عيناه بين سطوره المنسقة والمفصلة كعادة عيسى في كتاباته.
: الدكتور عيسى يشكر كل من اختار الالتزام في خط نضال جديد، على ضوء مستجدات عالم جديد. عالم اتسم باختلال موازينه وعلينا تدارس إيجاد صيغ تحقق توازننا فيه. صحيح أن الظروف الدولية الحالية لا تقيم وزناً لمعاناتنا لكنها لن تبقى للأبد.
طوى الأوراق متسائلاً وهو يبتسم:
: ما رأيكم؟ دعوة للحياة من جديد أليس كذلك؟.
جاء رد من بعيد ساخراً:
: أ تصحو الأموات؟
قال الدكتور الشيخ فواز.
: ولم لا، شرط إلغاء فكرة السلام. الحمد لله سننهي سنوات طويلة من المفاوضات كنا فيها كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغة.
قال الأستاذ كمال:
: ما تقوله صحيحاً، فثمة قصور في فكرنا حتى الديني منه، وتنظيماتنا حتى التي نذرت نفسها للجهاد. قصور جعلها عقيمة بمقارنتها بالفكر الصهيوني. بكل باطله أثمر دولة.
رد أحد الحاضرين:
: حالتنا مرضية ربما لا علاج لها.
جاءه صوت عابث:

: لكل داء دواء إلا الحماقة أعيت من يداويها.
: من يدري، قد نكون أصبنا بإعاقة دائمة.
: لا أعتقد. كل ما نحتاجه ثورة فكرية حقيقية.
كالعادة، هاج الجميع وماج قلت:
: هـا نحـن نبـدأ بارتكـاب الغلـط ذاتـه. حمـاس، هيـاج، غضـب، جعجعـة ولا طحـين أعتـذر للتشـبيه لكـن هـذه هـي الحقيقـة. قـال أحـدكم آنفـاً أن الفكـر الصـهيوني أثمـر دولـة وهـو على حق، فكرهم منظم وجاد وشعارهم الإصرار.
فتح الباب، أطل وجه سكرتير الإدارة، قال بانفعال:
: حسن قتل.
صرخت دون وعي:
: مـاذا تقـول؟ مسـاء أمـس كـان عنـدي، وقـد فـتح لـي بارقـة أمل بلقاء هاني. من قتله؟
: قتـل بعـد خروجـه مـن النـادي الرياضـي، كانـت معـه زوجتـه، لكنهـا لحسـن حظهـا عـادت لتحضـر شـيئاً مـن داخـل النـادي، حـين خرجـت إليـه وجدتـه وسـيارته قطعـاً متنـاثرة فـي الطريق الفرعي القريب من الفندق.
صرخت بيقين:
: هي من قتله.
قال خالد منبهاً:
: لا تستبق الأمور؟
: هو قالها أمس.
أكد الناعي قائلاً:
: لكنها في غيبوبة من أثر الصدمة.
قال خالد:
: لن ننسى دوره في حركات المقاومة لسنوات خلت.
: اعتقد بأنه قام بدور أكثر فعالية في اختفاء أخي.
دخـل مـدير الجامعـة فـي لحظـة هيجـان عصـف بـي شـأن كل من يضيع من بين يديه أمل كاد أن يتحقق.
: أين ما يكون الدكتور سامي يحصل شغب.

نفثت بوجهه همي صائحاً:
: شغب؟
: عل أنتم في اجتماع، لم نأخذ علماً بذلك.
: اجتماع عادي تباحثنا فيه بأمور تخص جماعتنا.
: لم يعد هناك أمر يخص جماعة لوحدها.
: لم أفهم؟.
: لم تفهم؟ ماذا كنت تعمل سنوات في عالم متحضر؟
: ماذا يعني؟ قلت عالم ولم تقل إسطبل.
: هذا تفكير عقيم. عالم كبير بحاجة لمن يسيّسه. وهذا لن يكون إلا لمن يملك قدرة الاستمرار في النمو والانتشار في كل مكان. ثابت السياسة، قوي الاقتصاد، ديمقراطي الدستور.
تفحص الوجوه من حوله، عاجلني بقوله:
: إذا كنت الدكتور سامي ستفهم ما أعنيه، فقد عشت طويلاً هناك. أما إذا كنت الآخر الأفّاق الإرهابي، فهذا حديث آخر.
: من تنعته بهذه الصفات هو أخي. بالمناسبة لم هذا التحامل على رجل وهب لنفسه لقضية وطنية مقدسة؟
: يتحدى قوانين القوى العظمى، أليس هذا كافياً؟
: وماذا تأمرنا القوى العظمى؟
: المهادنة..التسامح..مد يد المحبة لجارة لكم، بدل أن تلقون بها إلى البحر. ما وجدت هذه الدولة إلا لتبقى.
: سنقاوم شأن كل إنسان حر.
خرج من بيننا دون تعليق. قال الشيخ فواز:
: أن أي تحامل على اليهود يؤذيه، لعله منهم.
: أن ما بيننا وبينهم لا يقدر أحد فرض نسيانه أو تجاهله بمجرد أن يبلغنا استياءه.
قال كمال:
: هداك الله يا دكتور سامي هل من فرق بينهم؟
: نعم، أنا عشت هناك وأعرف الكثير.

: تعرف الكثير ولا تعرف نفوذ أغنياء اليهود على السياسة وعلى الاقتصاد أيضاً؟

: هذا غير صحيح، أميركا تعرف جيداً حقائق مصالح العصر الحديث ومدى حاجتها منه وتريد تأمينه. لن ينفذ رغباتها سواهم. فمن يستغل من؟ هاني على حق، أن كل ما جرى ويجري وسيجري مكتوب في علم غيبهم.

: ربما لكن كثيرين منكم يتوسلون "أن لم يكن بهم غضب عليهم فلا يبالوا".

قال الشيخ:

: استغفر الله يا رجل.

اندفعت إلى الخارج غاضباً. رأيت عائدة بالقرب من الإدارة تتحدث إلى رجل يبكي، ما أن رأتني حتى هرعت نحوي قائلة:

: هل قابلت حسن مساء أمس؟ لقد اغتيل.

قبل أن أرد هجم علي شخص ودفعني أمامه إلى سيارة متوقفة بجانبنا. صوت عائدة يصرخ هاني مرات عديدة، ثم أصبح بعيداً والسيارة منطلقة بي إلى المجهول.

طغى علي شعور بالابتهاج، أخيراً تحقق أملي وخرجت من جلدي البارد، ولبست جلد هاني الرافض للاستكانة بكل أحوالها.

لكـن.. لـم يعـد الأمـر هكـذا وأنـا ملقـى علـى الأرض، تتنـاوب الأحذيـه العسـكرية علـى ركلـي. لا أعـرف كـم مضـى علـى وجـودي فـي هـذا المكـان الـذي تتشـابه أيامـه ولياليـه، تتشـابه كل دقائقه، لم أعد أتألم أو أبرد أو أتأفف.

مـا الجديـد؟ أهـو الظلـم؟ أليسـت هـذا سـمة حيـاة شـعوبنا؟ إن لـم نجـد مـن يظلمنـا نظلـم أنفسـنا، أو يظلـم بعضـنا بعضـاً. ورد علـى فكـري تـاريخ فتوحـات العـرب، ورسـائلهم إلـى الفـرس والـروم تـبلغهم بثقـة" أتينـاكم بقـوم يحبـون المـوت كمـا تحبـون أنـتم الحياة"

متى كان ذلك؟

هل حقاً حصل شيء مثل هذا؟

هل كان لنا مثل هذا التاريخ؟

لماذا إذن عكست الآية في هذا الزمن التعس؟

فتح باب زنزانتي بعنف، كان سليمان زوج أمينة بملابسه الرسمية، نهضت واقفاً مثل غريق رأى بر أمان، لم يمد يده للسلام بل بأوراق وقال آمراً:

: وقع هذه الأوراق.

: من أبلغك بأنني هنا..؟

: وقع هذه الأوراق ثم نرى..لا بد من توقيعها.

وقعت الأوراق وهممت بالخروج، فجأة وقعت أرضاً إثر صفعة منه أذهلتني، سمعته يقول:

: أهذا يكفي؟ لم أمر فوق جثتك لأستعيد البيت كما ترى.

قلت والدم ينزف من شفتي:

: سأعود إلى بيتي.

قاطعني بقرف:

: لقد أحضرت لك كل ما يخصك هناك، لم يعد بيتك، إنه جزء من بلدي الذي أحسن إليكم وأسأتم إليه، لقد استولى والدك عليه بوضع اليد.

: ماذا أسمع؟ لقد اشتراه أبي و..

لم يدعني أكمل، خرج من الزنزانة، وخرج الجميع في إثره. عادوا وحملوني كما أنا، بكل جراحي وألمي وغضبي، وألقوا بي على المقعد الخلفي للسيارة وأسرعوا كأنهم في سباق أو فرار.

ما هذا الذي يحصل؟ هل تآمرت أمينة عليّ؟ هل أظلمها أم ظلمتني؟ هل أتركها بيد زوج تذكر وطنيته، ليس بغريب أن يكون قد تذكر ديانته التي تركها بمحض اختياره ليتزوجها؟ يا للمهزلة.. جزء من بلده احتلله أنا، لمن ألجأ والبلد تغلي؟.

وصلنا إلى المطار. ترجلنا من السيارة، واجهني مبنى مهلهل منخورة جدرانه مثل وجه مجدور. صرّت عجلات السيارة فوق الإسفلت وسقطت إحداها في حفرة كبيرة، طاش

صواب السائق والمرافقين. تقاذفوا سباباً بذيئاً، أدى إلى التشابك بالأيدي وتدخل الدرك المنتشر حولنا. قال أحد الدرك:

: إلى أين؟

ناولته جواز سفري الأميركي، فتحه، ألقى نظرة شاملة احتوتني لكنها لم تخترق عبوسي، لم أتشجع للاستنجاد به، فقد كان أشد انكساراً مني. سمعته يقول:

: لا طائرات اليوم.

رد أحد المرافقين:

: من قال لك إننا على عجلة من أمرنا، الأوامر تقول دعه ينتظر إلى ما شاء الله، سيأتي شخص ويرتب الأمور.

مضت الساعات وراء ساعات. مر يومين وأنا ملقى على مقعد خشبي طويل في إحدى زوايا تلك القاعة الخربة، بلا طعام سوى بسكويت قديم وماء ملوث وسجاير رديئة، أحرقها بجنون.

: دكتور سامي؟

رفعت وجها مخضباً بدموعي، وإذ بي وجهاً لوجه مع عائدة. نحيت وجهي جانباً وأخذت أمسح دموعي بأصابعي وأهندم نفسي قبل أن أرد. فكرت أن أدعي بأنني هاني.

ما الذي تفعله بي تناقضات هذه الفتاة؟. دمعتها تتقاسم ابتسامتها، رقتها خشونتها، ضعفها وقوتها، خوفها وشجاعتها. قلت:

: مرحباً عائدة.. إلى أين؟

: معك.

: كيف علمت بأنني هنا؟

: أمينة...

كنت منجذباً كلياً لمحدثتي، متناسياً كل شيء. بدت لي رغم محاولاتها لتخفف عني أكثر حزناً. وردة ذابلة في عز الربيع. وقفت بضع دقائق تحدق في وجهي الحائر. ردت على كل تساؤل قرأته في عيني بقلب شفتيها باستخفاف مؤلم. مهم

وجودها، سيخفف عني كثيراً في هذا المكان الخرب كوكر عصابات. قالت:

: موقفك في الجامعة أسعدني، ذكرتني بهاني.

لا تفرح هاني..حزنت في ذلك الحين، وهي تنقل لي أن سبب إعجابها بي أنني ذكرتها بك. قمعت الشعور الذي أنشب أظافره في قلبي. ها هي معي، بوجودها أعود كإنسان سوي كلما نضبت، وكفلسطيني كلما خمدت، وكرجل مثقف يحمل في عنقه أمانة لا بد وأن يؤديها كلما همدت. إنسان يمتلك قوة وعليه أن يفجرها في وجه الغربة والانسحاق.

نقلنا إلى غرفة الانتظار، نسمات طرية تستقبلني تأتيني من نافذتها المكسورة فأعب منها بعمق كأنني أرسلها إلى روحي الضجرة من كل شيء. لا أعرف لمصلحة من حجر على حريتي. ألقت عائدة متاعها القليل بجانب متاعي. قالت بجدية:

: ما رأيك أن نضرب عن الطعام؟

تبسمت لها ببؤس. جلست فوق الحقيبة الأصغر حجماً بينما الكبيرة المثقلة بكتبي وأوراقي أمامها. فتحتها وانهمكت تعيد تنظيم الأوراق باهتمام وشغف، رأيتها تدقق كل ورقة، تقرأ بتمهل، يتلون وجهها، يشرق بتباشير فرحة خاطفة، يفيض بالغصة. من إحدى ورقات دفتري الأسود قرأت. متغاضية عن وجودي، لعلمها بأنني أتابعها بكل جارحة فيّ.

" هاني..أننا ندفع ضريبة العيش في زمان يعبد فيه ثالوث أصم، سلطة ومال وتفرد.

قلت لها مقاطعاً:

: تصوري معاناة إنسان ما، تاه عن نفسه أمام صخب الحياة وعنفها، يتساءل بوجع عن اسمه وشخصيته وهويته.

نظرت إلي وعتب يرف مع حركة رموشها الغاضبة:

: لا أرجوك ليس هذا وقته..

: صدقيني لقد تهت..

صمتنا معاً. تنفست بعمق وقالت بمرارة:

:"إذا لم يكن ما تريد فهل ستوافق على ما سيكون"؟.
ونفسي تنضح بأساها أجبت:
: حتى هذا الهوان يريدونه بوسائلهم الخاصة. المشكلة أنني توقفت عن...
سألتني بلهفة وقد تركت ما بين يديها:
: توقفت عن ماذا؟ عن التفكير أم عن التنفيذ؟
ضحكت تهكماً:
: هل ثمة فرق، فلكل منهما صلته الوثيقة بالآخر. في الحقيقة لا تطاوعني نفسي على تبني الخسة والقسوة واللؤم وكل هذه القيم.
صمتت وتشاغلت في أركان المكان، لمحت دموعاً في عينها تغالبها، همست بيني وبين نفسي" لك الحق بمثل هذا الجزع يا فتاتي" كأنها أحست بما يعتمل في صدري فقالت بعنفوان:
: لن أخفف عنك. اعتبرني حزناً جديداً أضيف إلى أحزانك.
بدت الدهشة في عيني وأنا أجيب كالمسحور:
: أبداً..أبداً.. الحقيقة حين تكونين بقربي أشعر بمدى عجزي. أشعر بأنني حصان عجوز جامح، عصي على الترويض، يسير عكس الريح. أليس عجيباً هذا الإنسان؟
يسوغ لنفسه مزاعمها، يكتم

صراخها ووجعها، فيسمي كبتها هدوءاً وبلادتها رصانة.

صوت عائدة يتهادى هذه المرة بعذوبة وتحدي. كان وجهها باشاً وحنوناً، أغمضت عينيّ، أشرب من جمال طبيعي وأخّاذ ماثل أمامي، زهرة من زمن الفرح الهارب.

دخلت حياتي ببهاء حضورها الكامل. في البداية داهمني شعور غريق القي إليه بقارب نجاة. إنسانة طبيعة، حقيقية، لا زيف في حزنها وفرحها، في بسالتها وإحباطها. كل يوم، بل كل ساعة، أكتشف معها بانبهار خارق أموراً حياتية سهلة وعادية، انطمست في مخيلتي، في زحمة العمل والتعب والمعاناة.

التفت نحوها بكليتي حين سمعتها تهتف باسمي دون كلفة أو ألقاب. كانت صامتة، كأنها قررت الاحتفاظ به بين شفتيها.

حان وقت السفر، اقتربت مني وقالت بتهكم:
: سافر كأمريكي أكثر وجاهة.
: أما زلت تعتقدين بأنني تأمركت ونسيت أصلي؟
لم تجب.. دخلت الطائرة واتجهت إلى مقعد حيث أرشدتها المضيفة. ما أن استقررت بجانبها حتى قلت:
: ها نحن نعود سوياً كما جئنا.
: لكن دون ..
ابتلعت ريقها وهمست آسفة، تشاغلت بوضع الأشياء تحت قدميها. أردت إبعاد صورة أمي وهي راقدة بجانبي أثناء عودتي بها إلى البيت، فقلت:
: لم أسافر مع دلال سوى مرة واحدة.
: استعد للرحلة الطويلة.
قبل أن أعيد جواز سفري إلى جيبي أخرجت الآخر. أطلت النظر فيهما، كما أفعل دائماً حين أتوه. صورتي بإحدى زواياها تتحلى بختم نصف دائرة حمراء تثبت شرعية الجواز من مصدره، موثقة بدمغة، محتمية مني تحت غطاء شفاف كأنها الحرز، ليس بمقدور أحد التشكك بصلاحيتي.
: لدي جوازيّ سفر، يحمل كل منهما اسمي ومواصفاتي، ومع ذلك ألح في تساؤلي هل هذا أنا؟ كل مرة أدقق بصورتي أدهش من بلاهة الشخص الماثل أمامي، أبدو كالمشبوهين.
تهيأت للرد ولكني لم أمهلها أكملت:
: قد لا يعجبك هذا التشبيه، إذن أجيبيني، لماذا لي انتماءان؟ هل أنا شخص واحد أم شخصان؟ أم أن جوازي سفري مزوران؟
حاصرت دموعي، استدرت أخفي وجهي المشدود فوق عظامي الناتئة. أصبحت أحس به كأنه قناع مستعار من زمن الغضب المروض. يؤلمني جلدي، إذا تكلمت، إذا عبست أو ابتسمت، يجردني من سماتي، باهتاً بلا لون، جامداً بلا تعبير.

نحّيت جوازي السفر جانباً، أتذكر ملامح وجهي وملامح نفسي وجسدي. شجرة قديمة بدأ جذعها في الانحناء، شعرت بكراهية لها، نخرني العذاب، نخر عقلي، ومن قبل قلبي، وروحي.

تناولت من يدي جوازي الأمريكي، فتحته وتملت صورتي، رأيتني أميل برأسي لجانب رأسها، افتح صفحات التأشيرات قائلاً:

: خروج ودخول، قيام بمهمات رسمية عديدة، ومع ذلك، فأنا المنفي والمغيب، الضحية والجاني. من يشفيني من التيه الذي خصني به القدر والبشر.

: تخيل نفسك مقبل على حياة جديدة. ربما تكون شيئاً من حياة هاني أو امتداد لها. عندما تشعر بمرارة غيابه تذكر انبثاقه في داخلك، سترى الأمور بشكل أفضل.

: خمسون سنة مرت من عمري. أتذكر تلك الأعوام بكافة تفاصيلها، لم تخلو من خوف أومن شقاء. لكن حالما استقررت بوضعي الأكاديمي حتى قفزت فوق الخوف، بل واعتبرته وهماً. ها هو عاد أشد عنتاً، وجدته حقيقة، حقيقة غير مبالغ بها.

أنا هاجس الجميع. موجود في كل مكان، في الصحاري في المدن في الموانئ مع الطيور في السماء، أنا موجود شئت أم أبيت، علمت أم لم أعلم، في الرؤوس حتى التي لم أعرفها، صورتي في العيون حتى التي لم أرها، أرقهم.. قلقهم معظم الأحيان.

: المهم حقيقتك التي تؤمن أنت بها.

: يا لحقيقتي..إنسان مثقف تدهمه حيرة وهموم، خاصة وعامة. تولد أسئلة في رأسه، إذا تجاهلها يرتكب خطأ وإن حاول الاستفهام يرتكب جريمة. كل أبناء جيلي الذين انشغلوا بتبني المعرفة وإثراء الوعي يتساءلون عن فائدة العلم وعن معنى الوجود. بينما أولئك الذين انشغلوا بالبيع والشراء

والمساومة والمهاترات ورفع شعارات زائفة دون الإلمام بمبادئ أو بمعنى الوجود يعيشون حياتهم بهناء.

: إلى أي فكر تنتمي؟

: لا أنجذب بسهولة لأفكار محبوسة ضمن قوالب جامدة محدودة. لا أحب الأحزاب، لا يشغل أفرادهم تنفيذ مبادئه بقدر ما يشغلهم تحدي الأحزاب الأخرى. نأيت بنفسي عن مناطق النفوذ. اقتنعت بالانتماء لما أتوصل له بنفسي.

: لم هذه المستجدات إذن.

: قانون القوي، إن لم تكن معنا فأنت علينا.

تنبهت عائدة لأحاديث المسافرين فقالت:

: يبدو أن ما يشغلنا أصبح هماً عاماً.

هززت رأسي. لكزتني مشيرة لأحدهم، كان يقول:

: لا نسمع سوى عدالة وحرية ثم لا شيء. ليتهم يعاملوننا بضمير كما يطالبوننا أن نفعل.

صوت متهكم:

: ما الذي يمنعكم من الرفض؟

: كيف وإنسانيتنا ملغاة؟

بهمس قدم أحدهم نصيحة:

: أصبحوا أشرس عما كانوا عليه من قبل. يعرضون مذاهبهم ببساطة وبدون إلحاح وكأنه خيار من ضمن خياراتك الأخرى، ثم تكتشف أنه الوحيد.

تساءلت بيني وبين نفسي:

: وماذا عمن يرفض العالم الجديد هذا؟

لا أعرف كيف سمعوا، لكن ما أعرفه أن كثيرين قد تطوعوا بالرد بغوغائية:

: تأهيل الرافضين وإعادتهم إلى حظيرة الطاعة.

: سنرى على من ستدور الدوائر.

لامست عائدة ذراعي فتهيأت للدخول إلى فردوسها مرة أخرى. تصفحت عيني وجوه كثيرة لم تكن مريحة تخفي خوفاً يشبه خوفي ينكفئ إلى دواخلهم.

التصقت بي، صار بإمكاني تنسم عبيرها الفريد، حررت جسدي، رفعت رقبتي الغائصة بشكل لا إرادي بين كتفيّ. لامست كفاها جبيني، ضغطت بنعومة على الصدغين النابضين بألم، تسلل الكفان داخل شعري فعدت من اغترابي.

رفعت نظري نحوها، فأرخت أهدابها، لا أعرف كيف تفهمت صخبي المتنامي. ابتسمت كأنها توثق مصيرها بمصيري. قلت محاولاً تخفيف جو الحزن المثقلة به نفسي:

: أنصتي لنبض عقلي لتكوني على بينة.

قالت بهمس :

: أعجبني تعبيرك في وصف الزمان مستعيراً عنوان رواية فوكنر " زمن الصخب والعنف" هل سيركع العقل فيه؟

بدوت مثل عاجز يساق لمنصة الإعدام، وجود هذه الغادة بملابسها البيضاء وشعرها القصير الثائر يمنحه العفو. طائر جميل يشدو لحن الخلود، فتنسى أن تبتئس رغم كل الظروف. طلبت لنا قهوة.

رجل مثل الديدبان منذ بداية الرحلة يدور في كل مكان بلا كلل وقف بجانبي، انتزعني من هدوئي واستمتاعي بقهوتي وسألني بطريقة فجة:

: أنت الذي أقام الدنيا من أجل حقيبة كتب؟

: نعم أنا. أنا أستاذ جامعي، وتلك الكتب مراجع.

: كنت تصرخ بطريقة مسرحية:" إلا كتب القانون..إلا كتب القانون" أي قانون يا دكتور..

: القانون هو القانون. إن تجاهلوه أو تجاوزوه أو ألغوه.

: قال قانون.. شيء مضحك.

رفعت رأسي، واجهتني نظرة متعجرفة. رفع كتاب من أمامي وقرأ بسخرية قانون دولي"شت".

: أسمع.. أنا رجل قانون.

: رجل قانون! ماذا يعني؟ القانون أصبح هراء. ليس هناك حق وعدل وقانون في المطلق، المعيار الحقيقي هو

النجـاح، هـو السـلطة، السـيطرة. القـانون الحقيقـي هـو قـانون مـن يمتلك كل هذا.

: فترة عصيبة، ستنتهي بحتمية التاريخ.

: بالمناسـبة كلفـت بـأن أتقصـى إن كنـت حقـاً الأسـتاذ الجامعي أم التوأم الغريب الأطوار.

: ماذا يعنيك سواء أ كنت هذا أم ذاك؟

الهم ينز في عمقي. مشتت عن ذاتي، سامي أم هاني. لا أعرف. قالت عائدة:

: لعنة العالم الجديد تلاحقنا شئنا أم أبينا.

: سنأتي طوعاً أو كرهاً. ما أسهل الدخول في عالمهم المهووس هذا، مجرد إشهار التوبة عن التفكير. أما الخروج عليه، فذاك يعني النفي إلى المجهول.

التفت إليها كانت تربط منديلها حول عنقها. قلت:

: سألتني عن العقل إن كان سيركع أمام التحديات، لماذا يستثنى؟ العالم ضحية عقول مغرورة. العدل أن يقع ضحية نفسه. التغيير سريع ومذهل بلا حكمة.

رفعت رأسها نحوي وهي تسحب شعرها وتحبسه خلف إذنها بغضب مكبوت. أراقبها مأخوذاً وهي تعاندها، تفلت من أسرها، وتعود لمكانها الفوضوي، فترجعها تتفقدها بين الفينة والأخرى. قالت:

: التغيير سمة الحياة، وإلا لبقينا نشعل النار باحتكاك حجرين معاً، أما الحكمة التي تطالب بها فهذه مهمتكم، علموها تلامذتكم.

: التغيير الذي أقصده مرعب وبالتالي غير مفهوم. خرج عن طوره، عن دوره، أصبح ثورة تدق مفاهيمنا من العمق، من أصغر شيء حتى علم الفضاء.

: ماذا يا دكتور، أحقاً فاجأك هذا وأنت الأكاديمي؟

: ما يؤلمني أننا في نهاية الأمر نرضخ.

: سرعة الرضوخ تتناسب طرداً وعكساً مع التغيير.

: ألا يدفع شيء مثل هذا إلى الجنون؟

ألقت نظرة حولنا ورشفت من فنجان قهوتها، عاد لرأسي الطنين المدوي الذي لا يسمعه غيري مع أنه يكاد يخرق أذني، رفعت يدي ولمست جبيني ثم أغلقت أذنيّ بسبابتيّ سألت بقلق:

: هل عاد الصداع؟ سأعطيك بعض المسكنات.

: شيء عرضي سيزول لا تهتمي.

ناولتني الحبوب المسكنة مع فنجان قهوتي، عاد لنفسي شيء من الهدوء. سألتني بود:

: هل عقلك حزين؟ لا حظ أنني أستعير تعبيرك، إذ إنني حتى الآن لم يطل الحزن عقلي، فحزني عايش قلبي .

شعرت بامتنان لها، توخز عقلي ليتخلص من ضغوطه، قلت:

: حين يتكلم عقل ببرود المنطق يتهم بالهذيان. من يمتلك حساً إنسانيا عالياً يستطيع تقدير كمية القهر الذي تعرض له هذا العقل وتركه حزيناً. يدرك أن أسئلة كثيرة وردت عليه، رغم اجتهاده بقيت معلقة دون جواب فيعجز.

: كيف ..؟

: ماذا نفعل إذا كان الحمل استغرق عمراً كاملاً، عايشته أجيال عديدة، وجاء مخاضاً مؤلماً وعسيراً، اهتزت له الأرض والسماء، ثم كان الوليد لا شيء على الإطلاق.

لم يكن الحمل كاذباً أو وهماً، ولم يكن المخاض تمويهاً، كان كل شيء حقيقياً مثل ضوء الشمس، الحمل حقيقي والمخاض حقيقي والألم حقيقي والأمل حقيقي. فلماذا حصل ما حصل؟ كيف نقتنع بأننا لا نستحق إلا هذا المسخ المشوه بعد طول انتظار وعذاب؟ أفلا يحق للعقل أن يجن؟

: دع عنك هذا التناقض، لا تستعمل اللغة القديمة، لغة المشاعر الوطنية الراقية. لم يعد صراع عقيدة وفكر ووجود، صار نزاعاً على حدود، مساحة أرض، قابل للتفاوض، قابل للتنازل، قابلة للتوافق بين الجيران.

ضحكت بصوت عال كأنها فوق خشبة مسرح:

: عفواً أراه شيئاً مضحكاً ولا أعرف لم تعتبره جنوناً.

قلت أكمل فكرتها:

: أقدارنا بأيد تعرف أدق تفاصيل حياتنا، حتى ما يحصل في الغرف المغلقة. ما أكثر شهود الزنا الآن.

عادت تضحك من جديد وهي تقول:

: لم أعد أعرف متى تكون جاداً ومتى تكون هازلاً.

صحت منفعلاً:
: إلا أنت.. يجب أن تفهميني وإلا انتهيت..
: هل تفهم نفسك أولاً؟
: حالتي خاصة، أنا أكثر من شخص، أحدهما يرى الحلول المطروحة ستؤدي إلى طريق مسدود، فيستمر بمناطحتها بعنترية. وآخر متوقف بجمود، مع أنه عارف ببواطن الأمور.
: دع عنك هذا الوجع وأخبرني متى يتكلم قلبك؟
: حين أحس بجماليات الحياة، وقلما يحصل. حين أحس بصفاء السماء، وزرقة المياه، والأفق الملون، وطيور النورس. حين أعدك بأن أعمّد نفسي المتعبة بملوحة البحر لأصبح جديراً بملء رئتيّ من عبيرك.
شيء من السكون كسا وجهها المرهق من متابعة طفرات همومي التي تسيطر على كل ذرة في كياني.
: إذن ..
: بمنتهى البساطة منذ وجدتك أحسست بينبوع صاف يتدفق في أعماقي بعد جدب، هزة اعترت النفس، غيث سقا أرضاً يباب.
قالت محاولة استدراجي إلى المزيد من التفاصيل:
: هي أنا إذن صاحبة العناء والتعب؟
غمرتني رغبة حقيقية وصادقة بأن أسعدها فأجبتها:
: كنت أفكر فيك بين حين وآخر ثم أثوب إلى رشدي وأخفيك في الأعماق شأن كل أمنياتنا الصعبة والمستحيلة.
: ولماذا شأن الأمنيات الصعبة والمستحيلة؟
: غير مسموح الدخول في تفاصيل لم يحن وقتها.
رفعت وجهها نحوي كانت أشد أسىً عن أية مرة رأيتها فيه. تضغط على شفتها السفلى الممتلئة بأسنانها حتى تكاد تدميها، وعيناها تقاومان دمع على وشك النفور فيزيد من لمعانهما. جوهرتان تنافسان الضوء المنبعث من قلبي.

أشرق نور في نفسي الزاهدة، مددت يدي دون تفكير ألاحق خصلات شعرها الهاربة حين هاجمت وجنتيها، أعدتها خلف أذنها ثم ربت على خدها استرضيها. ما هذا الشيء الساكن في ملامح وجهها الطفولية يشدني إليها كلما نأيت وابتعدت؟ أكملت:

: حين رأيت وجهك يطل عليّ من وراء ستارة غرفتك في المستشفى، انكشف الغمام عن تفكيري وضحت الرؤية وانفك السحر عن الطيف القائم والمقيم.

ضغطت على يدي فأحسستها تعيد ومضة الحياة.

: ثمة سحر عبث بقلبك ولا يفلح السحر حيث أتى.

: سحر أحيا قلبي المذهول طويلاً، لم يعد له من عمل سوى الشفقة عليّ من نمط حياتي.

أي شيطان أملى علي فكرة اختبار تلك المشاعر المتدفقة من عينيها نحوي فقلت بخبث:

: هناك خبر سيفرحك.

: لم يعد يفرحني شيء.

: سأتحدى عنادك. هاني في أمريكا، إذا صدق حسن.

صمتت بحزن باد، ثم انفلتت للبعيد.

انتهت إجراءات الخروج من المطار بسرعة كالعادة. اجتزنا الممرات بنشاط، حاملين أمتعتنا بأنفسنا، متدافعين وسط الركاب نحو القطار الذي يصل المطار بالعاصمة. قالت وهي تلهث:

: أجمل شيء في بلادهم النظام.

: المغادرة أكثر سهولة. عندما غادرت واشنطن لزيارة أهلي كانت بعد انتهاء السنة الدراسية الأولى، حصل معي شيء غريب. فحال دخولي إلى المطار بدأت في إجراءات السفر، من وزن الحقيبة، تفتيش، مروراً بالسوق الحرة، فجأة وجدت نفسي في قاعة المسافرين، أمام الباب المؤدي إلى الطائرة، تذكرت، لم أمر على الأمن العام لختم جواز سفري استعداداً للخروج. رجعت مسرعاً، أوقفني ضابط الأمن متسائلاً، شرحت له مشكلتي. تبسم بثقة وقال: لا لم تنس، لكنك نسيت بأنك في اليو إس أيه.

ضحكت كثيراً قبل أن تقول:

: ها نحن في وكر الحضارة المتفوقة والمغرورة من جديدة.

في المحطة الأخيرة نزلنا وحملنا متاعنا إلى سيارة الأجرة. سألني السائق عن وجهتي، خطر ببالي عنوان بيتي، تريثت متسائلاً هل هو بيتي وتلك المرأة هناك أهي زوجتي بعد هذا الغياب؟ قالت:

: أوصلني إلى أي فندق أولاً ثم اذهب إلى بيتك.

: الأفضل أن نذهب معاً إلى هناك ومن ثم نعود إلى الفندق. لابد من أن نبقى معاً.

على باب بيتي أصبت بهزة عميقة. وجدت سكاناً جدد لا أعرفهم يقيمون فيه. تلجلجت وأنا أتلفت حولي لعلي قد أخطأت في البيت، لكن الرجل الواقف على الباب ينتظر ليعرف سبب زيارتي إن كانت هذه زيارة. بدا يعرفني، مد يده لي بالتحية وقال:

: تفضل بالدخول دكتور سام.

: من أنت؟ ماذا تفعل في بيتي؟

: عفواً..لقد اشتريت البيت منك منذ مدة؟

: أنا بعتك بيتي؟ كنت خارج البلاد. أين عائلتي؟

: انتقلتم إلى بيت كبير خارج المدينة، ربما كان قريباً من بيت الدكتور عيسى صديق العائلة كما سمعت.

لم أدخل وإنما انسحبت من أمامه جاراً حزناً جديداً أضيف إلى أطنان أحزاني التي لا تنتهي. عدت مع عائدة إلى أقرب فندق لبيت الدكتور عيسى. انهينا إجراءات الفندق، ثم ذهب كل منا بصمت إلى غرفته ليستريح.

في بيت عيسى كانت الأمور سيئة جداً. دقائق طويلة مرعبة وعيسى مسمراً أمامي صامتاً حتى عن رد التحية، ارتميت فوق كتفه باكياً فلم تتحرك يداه لتردني عنه أو تربت علي. الجملة الأولى التي نطق بها"تحلى بالصبر".

سألت بجزع:

: أين عائلتي؟

أطرق ولم يجب، خيل إلي بأنني ألمح دموعاً متجمدة. ألقى بنفسه على أول أريكة صادفتنه، ركعت على ركبتي أمامه، يداي ترتجفان فوق ركبتيه، ووجهي شاخصاً متسائلاً متعجلاً المصيبة. أدار وجهه ناحية أخرى، وقعت عيناه على عائدة، لم ينتبه لوجودها، تبسم لها معتذراً وطلب منها الجلوس.

انطلق يحكي عن أمراض الشيخوخة التي فتكت به وبزوجته. قلت محاولاً أن أبدو طبيعياً:

: ماذا عن الكتابة التي تفرغت لها أخيراً؟

: حتى الكتابة عزائي الوحيد لم أعد بقادر عليها.

كنت أسمعه بكل الحب، بينما عقلي مشغول بمصير أسرتي. نظر في عينيّ يتفحصني. أمسك بالهاتف بجانبه وضغط على زر صغير وأعاد السماعة مكانها. جاءت زوجته، كأنني تركتها منذ دهر. نظر نحوها وسألها أن تجيبني على سؤالي، فانخلع قلبي. قالت ببساطة:

: من الضيف؟

رد باقتضاب:

: سامي.

صرخت:

: سامي؟ إذن من ذاك الآخر؟

وضع إصبعه فوق شفتيه طالباً منها الترفق بي.

عادت من حيث أتت. سألته:

: ماذا في الأمر؟ هل جرى لهم مكروه؟

هز رأسه نافياً، قلب شفتيه بحيرة واستمر في الصمت، انتقلت عائدة من مكانها وجلست بقربه. لامست يديه المتشابكتين فوق ركبتيه، قرأ في عينيها السؤال ذاته.

قام من مجلسه وسار إلى خارج الدار، أشار إلى بيت قريب من بيته وهمس:

: هناك تسكن أسرتك.

صمت قليلاً ثم قال بلهجة موجعة وساخرة:

: معك..

: معي؟ كيف وأنا وصلت أمس إلى هنا.

عض على شفته وتنهد قائلاً:

: هكذا يقولون.

قفزت من أمامه كمجنون، قطعت المسافة القصيرة ركضاً وعائدة راكضة مثلي، ترجوني التروي، لنتفهم معنى ما قال وما يقال. لم أتوقف إلا أمام باب البيت، يدي تضغط على الجرس بلا انقطاع. فتح ابني هاني الباب ونادى بفرحة:

: ماما..بابا..أسرعا..عمو هاني جاء.

ارتميت على الأرض ضارعاً:

: حبيبي أنا بابا.

: بابا؟ أنت عمو هاني. .صورتك هناك على الطاولة الكبيرة بجانب صور جدتي تعال أريك إياها.

سحبني من يدي وأنا أتبعه كالمشدوه. التفت خلفي، عائدة تنظر إلينا والألم يعتصرها، لحق بنا عيسى ووقف بعيداً، يدخن البايب وينتظر. تراجعت للخلف لحظة، ثم عدت إلى ابني احضنه وأقبله، أخته تدفعه لترتمي بين أحضاني.

ظهرت دلال ووراءها شخص، وقفا ينظران نحونا بحيادية عجيبة. تقدمت وأبعدت الصغيرين وهي تقول:

: أهلاً هاني..تفضل..الحمد لله على السلامة.

تنبهت لوجود عائدة، رحبت بها ببرود، نظرت نحو عيسى بلا مبالاة، وصفقت الباب دون أن تدعوه للدخول.

تقدم الرجل نحوي فصحت من أعماقي:

: هاني..أنت هنا ونحن نبحث عنك في كل مكان؟
قال دون حماس:
: أهلاً هاني..ما بك؟ هل موت أمك أضاع عقلك.؟
: هاني؟ ناديتني هاني؟
: ماذا بك يا أخي هل نسيت اسمك.
: دعابة غير لطيفة في ظرف كهذا.
: دعابة؟ ماذا دهاك؟ لقد جن أخي.
: ربما أصبت أنت بعقلك وليس أنا. أنت من غبت طويلاً ثم وجدتك في بيتي مصادفة. هذان ولداي هالة وهاني، زوجتي دلال وهذا..
: يا أخي عد لطبيعتك المرحة، لا تفقد أحلى ما فيك.
لم أجب، بل ربما راودني بعض شك، نظرت نحو عائدة وجدتها جاحظة العنين كالمصعوقة. لكن.. قبل قليل كنت مع عيسى ولم يتشكك بي بل عرفني على الفور، آه.. لكنه قال يقولون أن أسرتك تقيم معك. أي أحجية هذه؟
تقدم هاني مني أمسك بمعصمي وهو يقول:
: لا أكاد أصدق هذا البله الذي تبديه. على كل حال ما زال في صدري متسع لهذه الترهات فكم عشناها وسنعيشها.
صمت قليلاً وهو يحدق في يدي، ابتسم وكأنه وجد ضالته المنشودة، رفع يدي اليمنى للأعلى وهو يقول:
: من كان يلبس ساعته في يد اليمنى، وهذه اليد الأخرى ليس بها خاتم زواج، هاك خاتمي لم يفارق إصبعي منذ تزوجت دلال. وهذه الساعة العجيبة، من منا كان مولعاً باقتناء مثل هذه الساعات الرخيصة أنا أم أنت؟ أنظر إلى ساعتي، لقد أهديت إلي يوم تخرجي هل تذكرها؟ هل تذكر من قدمها لي؟ ماذا عن هذه الملابس؟ هل كنت أجيز مثل هذه الملابس التي ترتديها؟ تسريحة شعرك، التدخين، أنا لا أدخن أبداً.
انتهت المرافعة الطويلة، للأسف ليس عندي دفاع. الساعة التي في معصمه ساعتي، هدية الدكتور عيسى يوم

تخرجي. الساعة التي بيدي أهداني إياها هاني يوم تفرقنا للمرة الأولى، أتذكر ما قاله لي حين قدمها لي" جرب هذه الساعة "السكني" سترى كم هي لطيفة وخفيفة وعملية لا تحس بها كأنها قطعة من جلدك".

حين بدأت أمي تناديني باسم هاني، أسرعت بإخراجها ولبستها، خلعت خاتم زواجي من يدي للسبب ذاته. قلت:

: ما هذه العلامات السخيفة التي تريد بها إقناعي بأنني أنت. لا يضيرني ذلك بل على العكس عشت أتمنى أن أكون أنت لشدة إعجابي بك وبنبل مواقفك.

: علامات؟ ماذا تقول هل أنت جاد؟ محال أن أتحمل أكثر من ذلك. الآن أريد الدكتور عيسى وليشهد أمامك على أوراقي الرسمية التي تؤكد من أنا. دلال من فضلك أحضري جواز سفري وشهاداتي ووثيقة الزواج وشهادة ميلاد الطفلين. ماذا بعد؟

تحركت تتبختر كأنها في حفل راقص. فقلت بازدراء:

: إذا كان جاداً فيما يقول وليس ممازحاً، اسمحي لي أن أستغرب كيف أنك لم تعرفي زوجك.

: أتراك تعتقد بأنك زوجي أيضاً؟ أنت أدرى الناس بشعوري تجاهك منذ بداية زواجي. كنت دائماً تسبب الألم للجميع، حتى أنا شخصياً كنت تحرض زوجي عليّ، تماماً كما كنت تحرض والد هذه الفتاة على أمها، بيني وبينك، ظننتك معقداً من فكرة الزواج. دعني أخبرك أن أمك ماتت حزناً من استهتارك بمشاعرها.

كانت تتكلم بصفاقة عجيبة. كدت أفقد عقلي، أريد تأيداً من أحد أي أحد يؤكد بأنني أنا ولست هو. هرعت إلى الباب أفتحه، ناديت بملء صوتي عيسى ليشهد تلك المهزلة. كان ما يزال في مكانه، حين رآني والغضب يتملكني ابتسم تلك الابتسامة الحزينة التي تتفجر على وجهه كلما اشتد ألمه، لم ينجدني بل استدار عائداً إلى بيته لا يلوي على شيء.

جلست منهاراً على مقعد بجانبي، شيء ما يطبق على أنفاسي فأكاد أختنق. فجأة، تذكرت أريكتي وكتبي وأشيائي الخاصة، دفاتري السوداء والصور. انطلقت في أرجاء البيت الكبير لم أجد شيئاً يخصني فعلاً، لم أجد شيئاً واحداً وإن كان تافهاً يقول بأنني كنت رب هذه الأسرة خمسة عشر سنة متواصلة، لم أجد. وجدت رخاء وثراء تماماً كما كانت دلال تحلم وتعذبني لعدم قدرتي على تأمينه لها. قلت:

: التاريخ يعيد نفسه، هكذا اغتصب عمنا بيت والدنا. هل تذكر؟ لكنه كان أكثر ذكاء منك. لم يستول على أسرة بكاملها، فمثل هذا العمل يحتاج إلى حواة. لن أسكت.

: هل تذكر ما كنت أقوله دوماً لك بأنني المحامي ولكنك من يكسب النقاش. هذه المرة لا. بإمكاني استدعاء البوليس، وإثبات حالة جنونك، وإدخالك إلى المستشفى بمنتهى السهولة.

لم أرد لكن عائدة قالت:

: شيء لا يصدق.

قالت دلال:

: فعلاً من يصدق هذا الآفاق، عاش حياته طولاً وعرضاً وها هو هنا ليفسد حياتنا وحياة طفلين بريئين. ما رأيك؟

: كنت أعرف هاني كما أعرف نفسي سيدتي، يوم كان مناضلاً كبيراً وعظيماً. غاب، قلقنا، حزنا، انتظرنا. آخر مرة هاتفني كان رجلاً ومسئولاً وشهماً.

قالت وهي تحدق في عينيه الثابتتين بجرأة:

: استدعاني عن طريق أحد رجاله برسالة مكتوبة بخط يده بأسلوبه في الرائع في الكتابة، ظننته يفي بوعود قطعها لي قبل سفره الأخير الذي لم يعد منه، فصدقت. اكتشفت بأنني خطفت والبقية عندك أو عند الأخرى التي كانوا ينادونها باسم تانيا. قيل بأنك تزوجتها.

ضحكت دلال ساخرة وقالت:

: تزوج تانيا؟
قاطعت الحديث وقلت بهدوء:
: للمرة الأخيرة أسألك توضيحاً لما أرى وإلا..
ضحك وفتح باباً مواربا فدخل خمسة رجال أشداء، ودخلت على أثرهم فتاة شقراء جميلة أنيقة، وقف الجميع بامتثال تام. انفلتت عائدة من ورائي مثل صاعقة، وانقضت على أحد الرجال الخمسة الواقفين أمامنا وهي تصيح:
: هؤلاء الكلاب اختطفوني، الآن عرفت لمصلحة من.
التفتت نحو هاني وهي تصيح بتشنج:
: هذا من أحضر رسالتك إلى بيروت. وهؤلاء نفذوا ما أمروا به. لماذا؟ لماذا؟
سورة غضب اجتاحتها لم أر في حياتي مثيلاً لها. تولول باكية بحرقة لا مزيد عليها. تقفز بالهواء نحوهم تهاجمهم بأظافرها واحداً إثر الآخر. تقع على الأرض، تتلوى ألماً، تدور من جديد حول نفسها، تقف وتصرخ.. ثم توقفت وبصقت على وجهه قائلة:
: أنت وصمة في جبين كل من عمل تحت إمرتك وتعلم منك شيئاً. أنت مهانة للقضية المقدسة.
أمسكها بهدوء من كتفيها، وببرود أجبرها على الاستدارة باتجاهي، مشيراً بإصبعه نحوي، قال بفحيح مقرف:
: كم مرة سأقولها؟ ذاك هاني وليس أنا.
الرجال الخمسة على وقفتهم الهادئة، لم يردوا صفعات عائدة ولا لكماتها بانتظار إشارة. حركت السكرتيرة يدها فانقضوا وسحبونا إلى الخارج وأغلقوا الأبواب.
عدنا إلى بيت عيسى. كان الباب مفتوحاً كأنه بانتظارنا. الصمت يلفنا جميعاً. شعرت بضيق في صدري وصعوبة في التنفس، أسرعت عائدة بإحضار كوب ماء لأتناول الدواء. ألقيت وجهي بين كفي وبكيت. رفعت رأسي استجدي السماء:
: ها هذا معقول؟ ماذا حصل للدنيا.
: الناس استشرست.

: لكن الدنيا فيها قانون، فيها أطباء لإثبات أبوتي، فيها أصدقاء شهود، فيها..

رد عيسى باقتضاب:

: فيها أيضاً تدليس وخيانة وغش وخداع.

عاد لصمته، استأذنت منه وأنا أدير رقم سميحة لم يجبني أحد. عدت لمقعدي ولحيرتي. قال عيسى:

: طلقت من زوجها ولحقت بابنتها.

قالت عائدة:

: متى كان ذلك؟

: منذ شهور قليلة.

سألته عائدة:

: لماذا الآن وبعد كل ذاك الغرام؟

: قالت لأنه قرر العمل مع سامي. اكتشفت أن بينه وبين دلال علاقة، وإن سامي يعرف ويتجاهل لأنه على علاقة بسكرتيرته. حين واجهته قال إن كان الوضع لا يعجبك الباب يفوت جمل.

سألته:

: ألم تشك بأنه هاني؟

: أبداً..لم أقنعها ولا استطاعت إقناعي. أكدت لها بأنك في بيروت، وأنني كلمتك أكثر من مرة، وأخبرتها بأنك ما زلت تبحث عن أخيك رغم حزنك الكبير بعد وفاة أمك. كانت تقاطعني قائلة ما يدريك، لعل من كلمته هو هاني وليس سامي. ثم ألا تتذكر تلك التغيرات التي ظهرت على من كنا نعتبره سامي. كان هاني وهذه طباعه وحقيقته.

جاء صبح ليلة مؤرقة لم أذق بها طعماً لنوم أو راحة. في بهو الفندق كنت واقفاً مع عائدة أخبرها عن كيفية البحث عن نفسي بنفسي. سأذهب إلى الجامعة، سأستخرج ملفي وأوراقي بنفسي. ثم لدوائر الجوازات و..

سمعت أحد رجال البوليس يسأل موظف الفندق عن هاني شرف الدين. نقر على الكومبيوتر ثم قال: آسف النزيل هنا يدعى الدكتور سامي شرف الدين.

رأيت رجل البوليس يقترب منه ويهمس في أذنه، تغير وجهه، بدا عليه شيء من الذعر، أشار بإصبعه نحوي.

استدار وتقدم نحوي، وقفت بعناد وتحدي انتظر، أشار لمعاونه أن يمسك بي. تقدم مني وبقبضة يده القوية أمسك بمجامع قميصي وحاول جري كالذبيحة. صحت بمرارة:

: لم كل هذا؟ أنزل يدك فأنت تؤلمني.

في محاولتي للتخلص أفلت فتراجعت للخلف ارتطمت بالحائط بقوة فردني نحوه بعنف. سألته:

: ما الأمر؟

لم يلتفت، تابع سيره مشيراً لمرافقه بإحضاري. كبل يدي للخلف وسحبني، لم يتحرك أحد، ولا حتى من باب الفضول، بقيت الوجوه ناشفة عابسة متفرسة بي تكاد تخترق عالمي، من عيني، من جلدي إذا لزم الأمر.

في السيارة المنطلقة طلبت شرح الأمر، أصبح الجميع أصم أبكم. وصلنا إلى مركز البوليس، كان هاني هناك مع سكرتيرته. قال بحزن:

: أخي في حالة هيجان، لقد عاوده المرض. تهجم أمس على بيتي.

: هل تتقدم بشكوى دكتور سامي؟

: طبعاً لا..سأتدبر الأمر كالعادة.

قلت بثقة:

: أنت الدعي وليس أنا وسأثبت لكم ذلك.

انطفأت لمعة التذاكي من عينيه وإن بقي ذلك الشيء الوقح يلوح بهما. طلب حمايته مني، وأخذ تعهد مني ألا أتعرض له أو لأي من ولديه. رفضت التعهد. اعتذر المسئول على استمرارية حجزي إذا لم أوقع على التعهد. قالت عائدة:

: ماذا عني يا أستاذ هاني. لقد اشتركت في التهجم.

: اسمي دكتور سامي من فضلك. أنت لا شيء.

: شكراً لتقديرك هذا.

اقتربت مني وهمست:

: لا توقع سأذهب لكل الأماكن التي ترددت عليها وعملت بها. سأبحث عن أمي، وكل أصدقائك القدامى. سأعود مع محامي.

: أخبري عيسى أين أنا وهو سيتدبر الأمر.

ألقيت بمكان ما، مكان لم يخطر على بالي قط طوال عمري بأنني سأدخله بمثل هذه الصورة التي أنا عليها. الضجيج يأتيني من كل الجهات، غناء اختلط هزله بجده، مثل غناء هذه الأيام. وطباع هذه الأيام، وقوانين هذه الأيام. الحقيقة أنني لم أتعلم نهج "لا مبدأ"، فهل أقول جديداً إذا قلت إن شركاً منصوباً لأمثالي في كل درب، في كل كلمة، في كل اتفاق، في كل معاهدة، بين النبضة والنبضة.

متى كانت بداية النهاية؟

لعلها منذ أن تغيرت صيغ الحياة ومفرداتها، إعصار، هدم، وجرف، ودمر ثم أنحسر. حضارة تفوق الخيال، مبان عالية، تخضير الصحراء، تكيف الأجواء، تكنولوجيا في يد الصغير قبل الكبير في يد الجاهل قبل المتعلم، خبراء عن اليمين وعن الشمال. لكن ماذا عن الإنسان؟

أتذكر أخي، أغلى الناس على قلبي، فأفزع. أهرع لأوراقي، لأول مرة أبث فوقها خوفي وألمي ووجع حنيني للماضي، ولكل جميل مغيب. أحد الحراس يسألني إن كنت أريد صحف المساء. قبل ن أرد قذف بواحدة. تركتها ملقاة حيث هي، وقع نظري على اسمي على مقال "الوعي

القـومي". سـطا علـى مؤلفـاتي وعلـى بيتـي وعلـى دفـاتري الخاصـة، علـى أفكـاري. فهمـت كيـف ولمـاذا. لقـد فقـد كـل شـيء قيمتـه حتـى الوجـود ذاتـه. اللغـة صـارت لغـة السـوق، لغـة البورصة العالمية، لغة رخيصة لا تطيق العدل.

زارنـي صـباحاً عيسـى وعائـدة والمحـامي جـورج. لا تبشـر وجـوههم بخيـر، لكننـي لـم أفقـد الأمـل، مـا زالـت أومـن بـأن الحقيقة فوق كل شيء. قالت عائدة:

: ذهبـت مـع الأسـتاذ جـورج إلـى الجامعـة، لـم يسـمحوا لنـا باسـتخراج الملـف الخـاص بـك إلا بـإذن، تـدبر الأسـتاذ جـورج الأمر وأحضر الملف.

: وبعد..

: لـم نجـد بـه سـوى بضـع أوراق بـلا قيمـة. قـالوا بـأن الملـف الحقيقـي نقـل إلـى الإدارة الجديـدة حـين أعفيـت مـن التدريس.

قال جورج:

: وحـين ذهبـت إلـى هنـاك أخبرونـي بأنـك اسـتقلت لتعمـل بالأعمال الحرة وسحبت ملفك.

: أعمال حرة؟ ما معنى هذا؟

: هذا ما كتبته باستقالتك.

: لم أستقل، أوقفوني عن العمل فسافرت مع أمي.

قال جورج:

: هنـاك أمـل وحيـد، بصـماتك وتوقيعـك، سنضـاهيها ببصـمات وتوقيعـات الملـف الموجـود فـي الهيئـة الاستشـارية الرئاسية.

أفـرج عنـي بضـمان عيسـى ومحاميـه بعـدم تعرضـي لبيـت أخـي مـرة أخـرى. أقنعنـي عيسـى بالبقـاء معـه ريثمـا نجـد طريقـة لإثبـات حقـي واسـترجاع اسـمي. الأيـام تمـر ولا جديـد، الإحبـاط يزحـف يصـير يأسـاً اكتئابـاً ولا جديـد. فـي منـزل عيسـى مـع عائـدة التـي مـا تـزال تسـعى وتبحـث وتعـود بخفـي حنـين. كـل

الأبـواب مغلقـة فـي وجهـي. كأنمـا القـدر اسـتجاب فتبادلنـا الأماكن. فلينعم بمكاني لكن هاني وهالة لا وألف لا.

حين رآني عيسى أستعد للخروج قال بهدوء:

: سامي دون مشاكل، لا تزيد الأمر تعقيداً.

تركـت البيـت ماشـياً علـى قـدمي لأهـدئ مـن غضـبي. وجـدت نفسـي قـرب الجامعـة، سـأتأكد مـن ملفـي بنفسـي، سـأثبت للجميع ولهاني بأن الغلبة للحق وليست للقوة.

عقلـي ينشـط، أعتـرف بـأن ادعـاء هـاني زلزلنـي. لكننـي على يقين بأن هـاني لـيس فـي وعيـه أبـداً. يعتقد بأنـه أنـا، بـدا علـى قناعـة كاملـة، لـم يظهـر عليـه أي ارتجـاج فـي الحـديث أو شـيء من تمثيل لدور مدروس.

سـأعاود قـراءة أوراقـه، سـأعرف كيـف تمكنـوا مـن الدخول إلـى عمقـه وعمقـي. لقد حولـوه إلـى شـخص لـم يعجبـه فـي يوم من الأيام.

هـا أنـا ذا فـي المكـان الـذي كـان لـي سـنوات طويلـة وأجبـرت علـى الجـلاء عنـه. دخلـت المكتـب بطريقتـي الخاصـة، لا شـيء تغيـر فـي المكتـب، أرفـف الكتـب مـا تـزال علـى حالهـا وكمـا أردتهـا دائمـاً منضـدة نظيفـة لامعـة. فتحـت الأدراج واحـداً إثر الآخر ثم أغلقتها بغضب، ليست كما كانت.

ذهبـت إلـى الأرشـيف أبحـث عـن ملفـي بـين الملفـات الكثيـرة، تصـدت لـي الفتـاة التـي تعمـل هنـاك. أصـرت علـى عـدم لمسـها دون إذن مسـبق مـن المسـئول. كـان أملـي أن تتعـرف علـيّ أو تتعـاطف معـي. حـين رأت إصـراري ضـغطت علـى رز بجانـب مكتبهـا فـدخل رجـل الأمـن مسـرعاً مستوضـحاً فقالـت على عجل:

: السيد يبحث عن ملف الدكتور سامي دون إذن.

رد بدهشة:

: لكنه الدكتور سامي نفسه.

: عرفتـه، لكننـي تشـككت حـين حـاول إرغـامي علـى تجاوز القانون مع معرفتي بشدة تمسكه بالقوانين؟

استدركت خطأي فأسرعت قائلاً:
: آسف.. كل ما في الأمر أنني أمر بأحداث غريبة أفقدتني توازني. من فضلك دعيني أراها.
: غير ممكن.
: لا بأس تأكدي من وجوده فقط.
نبشت بين الملفات بينما كنت أؤكد عليها:
: عمره أكثر من خمسة عشر سنة.
سمعتها تهتف:
: غير معقول ما أرى. سأخبر رئيسي وأعود.
تركت أمامي ملفاً فارغاً، بداخله أوراق بلا قيمة. عادت مع رئيسها الذي رحب بي فقلت:
: أرجوك، إنني معرض للإلغاء من الوجود، شخص انتحل شخصيتي وألغاني، ألا يستحق شيئاً كهذا البحث لإبطال هذا الإلغاء.
قال الرجل بود:
: دعنا نرى..
فتحه وأغلقه وهو يقول:
: لا بد من التبليغ وطلب التحقيق.
خرجت من المكان ورجل شرطة يتابعني وينصحني بأن مثل هذه الأمور لا تؤخذ اعتباطاً بل يجب السير بها بطرق سليمة لا بد أنني أعرفها بحكم مهنتي. أعذرني لا بد من التبليغ بما حصل في مكتبي وفي الأرشيف.
وفي الإدارة الاستشارية حصل الشيء ذاته، تعرضت للمسائلة وللخذلان من جديد، لم أجد شيئاً يقول بأنني مررت من هنا. لم أستطع ضبط نفسي لهذه القرصنة وأنا ما زلت حياً أرزق. اندفعت أكيل التهم بالتواطؤ على إلغائي، ومساعدة دون وجه حق بعض أصحاب القوى للاستيلاء على ما ليس لهم.
في طريقي إلى بيت عيسى، وقع نظري على البيت الذي تسكنه عائلتي تذكرت بيتي القديم. استدرت وتوجهت إلى

الطريق العام واستقللت سيارة أجرة طالباً من السائق أخذي على عنوان بيتي.

أغمضت عيني، تخيلت العمارة الكبيرة الرابطة على زاوية الشارع، والمصعد الذي سيقلني إلى الدور التاسع، والباب الكبير الأسود الذي سيواجهني حال خروجي من المصعد، بوسطه فتحة، محلاة بإطار نحاسي لاستقبال البريد. سأعبر إلى صالة واسعة، مقسمة إلى أماكن دون حواجز. غرفة مكتبي الصغيرة في الجهة اليسرى، سأجد أريكتي بانتظاري لاحتوائي كعادتها. سأرتاح عليها. جهة اليمين سأجد بضع درجات قليلة توصل إلى غرف نومنا، سأدخل غرفة هاني وهالة.

قرعت الجرس ففتحت لي هذه المرة صبية شقراء، قبل أن تسألني الدخول أو التوقف، صرت وسط الصالة. كان تقسيم البيت كما عهدته، ثم كل شيء مختلف. لا .. لم أجد غرفة مكتبي ولا أرفف كتبي الكثيرة، ولا الأريكة العزيزة. جهة اليمين درجات قليلة اندفعت صاعداً إليها.

عدت إلى الصالة من جديد منكسراً. تنبهت إلى صراخ البنت وأمها، الباب المفتوح على مصراعيه، رجل البيت يتكلم مع رجال بوليس جاؤوا على عجل.

انتزعوني انتزاعاً من الأرض، كنت منبطحاً بين أيديهم طالباً منهم أن يتفهموا ما أقول. هذا بيتي، سرقني أخي، سرق بيتي وأولادي وزوجتي وكتبي. خرجت من بيتي مكبلاً بتهمة التهجم على بيت غريب وإفزاع أهله.

كنت أهذي بكل هذا حين عدنا إلى مقر الشرطة، ألقيت هناك مرة أخرى ريثما يحضر أخي. سمعته يقدم نفسه باسمي، فعاد لي هيجاني، أكدت أن هذا اسمي، وذاك أخي، وإنه من سرق تاريخي ومكان إقامتي وعائلتي و... قال الضابط بملل:

: اسمع.. هذا ليس عملي. هذه القضية تثار في المحاكم.

لم أفق من نوبتي إلا حين سمعت الضابط وزميلة يتضاحكان مما سمعا. يتندران بأنهما لم يسمعا في تاريخ عمرهما أن سرق أحد عائلة وتاريخ وجغرافيا أحداً. صحت نعم لقد حصل الآن، وحصل من قبل. أخي فعلها وعمي فعلها قبله مع أبي.

صدقوني أنا الدكتور سامي شرف الدين وليس هو. عاد لي هدوئي حين رأيت عائدة والمحامي وعيسى أمامي. قالت عائدة وهي تنظر نحو هاني بمغزى:

: ما يضرك لو كنت هاني وليس سامي؟ نحن بحاجة لأمثال هاني الحقيقي البطل. المثقفون كثر لكن ماذا فعلوا.

قال هاني:

: صدقت هذه الشابة. أسمعني جيداً، إن مكانك الحقيقي هناك، مع رجال السلطة. تذكر كم ناضلت من أجل أن يتحقق التحرير.

: بل أنت من ناضل للتحرير، أنا من سعى للتسوية.

: اعتبرها يا أخي تسوية.

: ما كنت أدعو لمثل هذا. الرأي العالمي لم..

قاطعني بنفاد صبر:

: هل الواقع تغير، كل شيء على حاله بل سيسير نحو الأسوأ في المراحل القادمة.

كانت عائدة ترقب بعين ثاقبة وجهينا، لمحت الحيرة في عينيها مما أثار أعصابي وضيقي. عيسى لم يزل على ثقة أنني سامي، رفيف عينيه الغاضبة تعدني بالمناصرة إذا لزم الأمر. بينما المحامي بعيداً متأبطاً محفظة أوراقه.

الكلام الذي يتدفق في عقلي يعذبني، يثقل رأسي، يهد أعصابي. يؤلمني، يتمدد، يصبح نهراً، بحراً، يغرقني يشعرني بالاختناق. حالة مخاض. حين تتاح لي فرصة الكتابة من جديد، سأعترف بأنني وقعت تحت تأثير شعار حضارات زائفة. كانت تنادي بالحرية، بالحق وبالعدل للجميع. ثراء فكري جعلني أؤمن بالعقل أولاً وأخيراً. آخ.. أي ترهات؟

ظهر وجه الضابط وقال:
: قال أخوك بأنك تعاني منذ الصغر حالة هذيان كهذه، تنسى من أنت وتدعي أنك هو. أخبرنا بأنك عولجت وشفيت.
: هذا افتراء، لم أعان شيئاً في الصغر.
: رأيت تقارير طبية عن حالتك من الطبيب هرنان.
: كذب.. لا أعرف هذا الطبيب.
: لكنه عرفك.
: لقد تذكرت، كنت أزور إنسانة مريضة من معارفنا.
: لا بد من التأكد. ما تقوم به خطر، تدخل بيوت الناس عنوة، قد تؤذيهم، هذه ليس المرة الأولى، لقد دخلت الجامعة، اعتديت على رجل أمن حاول أن يحول بينك وبين العبث بأوراق ليست لك.
تقدم أخي قائلاً:
: اسمحوا لي أن أصطحبه بنفسي إلى طبيبه؟
صحت دون شعور:
: لا أريد الذهاب معه. أريد طبيباً من قبلكم، لا أملك في الدنيا إلا عقلي. تفهموا أرجوكم، كم يعني لي شيء كهذا؟
قال عيسى وكله أسى:
: ما هذا؟ أين نعيش؟ سأتولى القضية بنفسي.
قال هاني ساخراً:
: أما زلت تعتقد بأنه بإمكانك ممارسة المحاماة.
: سترى.. وهل تظن الأمور سائبة؟
: لا أظن بل متأكد. من معه القوة معه الحق.
: هنا؟
: في كل زمان ومكان.
: لماذا اخترت قتله بالضربة القاضية هنا.
: لأنها ورقة رابحة.
: هذه لغة المقامرون.
: بل لعبة الأذكياء.

: إذن عليك أن تعي جيداً ثمن بيعك أخيك. تذكر سنكون هنود حمر جدد هنا.
: ريثما ينتهون من إعادة ترتيب العالم.
: حلبة مصارعة.
: دون حكّام.
: لن نقبل.
: باسم من تتكلم.
: باسم مائتين وثلاثين مليوناً.
: دعني أضحك عليهم فطالما أبكوني. هيا إلى الطبيب لمعالجة رجلنا المريض. حقيقي إن بين العبقرية والجنون خيط رفيع، يبدو أن أخي وقع بينهما وأنت قبله.
: سأذهب معه.

فـي طريـق عودتنـا كـان المحـامي جـورج يخبرنـا بـأنني فعلاً في مأزق، ليس من السهولة الخروج منه.
سأله عيسى:
: هل ما تزال محامينا أم انضممت للأقوى؟
: لا تسـخر، مـا أقولـه حقيقـة. كـل بـاب نطرقـه يؤكـد مـزاعم الأخ الآخـر، كـل الأوراق الموجـودة فـي ملفـات الحكومـة تؤكـد بصـماتها وتوقيعاتهـا بأنـه هـو سـامي ولـيس مـن سـندافع عنه.
: هل نسيت أنها هذه هي القضية؟
فـي بيـت عيسـى احتـدمت معركتنـا، كـان عيسـى يفاضـل بين الذهاب إلى الطبيب أو الفرار والسفر. قال جورج:
: لكنهم احتجزوا جواز سفره الأمريكي.
قلت مهموماً:
: معي جواز آخر، لكن لم الفرار أنا صاحب حق؟
قالت عائدة بحزن:
: كـان غيـرك أشـطر. أرجـوك انـس، بالمناسـبة هـذا الشيء الوحيد الذي يؤكد بأنك سامي.
نظرت نحوها دهشاً:
: هذا فقط.
هزت رأسها..نظرت للبعيد ثم عادت لتسأل:
: أمـامي الآن جهابـذة بالقـانون، إعلمـوني مـا الـذي غيـر ذاك البطل؟
: امرأة..
قالت عائدة:
: أعرفـه جـداً، لـم يكـن فـي يـوم مـن الأيـام مـن أولئـك الرجال المهووسين بالمرأة.
قال عيسى:
: لكنهـا ليسـت امـرأة، إنهـا شـيطان. الإغـواء مهنتهـا. ألـم تسمعي عن أمثالها في التاريخ.
قالت عائدة:

: هـل تريـد أن تقـول أنهـم اسـتخدموا امـرأة لتجرفـه عـن المسار الصحيح، عن الالتزام بمبدأ عاش حياته مخلصاً له؟

قلت بدوري هازئاً:

:الرجـل العربـي يعتبـر المقاومـة لكـل مصـائب الزمـان حتـى لرغباتـه الشخصـية صـلابة ورجولـة، لكـن المقاومـة لإغواء امرأة يعتبرها طعناً لهذه الرجولة.

كـان عـدد الحضـور يتزايـد بـين فينـة وأخـرى، فقـد حضـر بعـد قليـل هـاني وتانيـا، ثـم سـيارة رانـج كبيـرة ترجـل منهـا بعـض الرجـال الـذين كـانوا فـي بيتـه حـين وصـولنا. قفـز مـن داخلهـا اثنـان مـن الممرضـين. لـم تسـتطع عائـدة تحمـل المنظـر الماثـل أمامهـا وخاصـة عنـد وصـول الطبيـب هرنـان طبيبهـا ومسـاعده مع رجل أمن. استنجدت به قائلة:

: هـل صـحيح أن هـذا الرجـل كـان ذات يـوم مريضـاً فـي مشفاك.

هز الطبيب رأسه بالإيجاب، اندفعت تصيح بوجهه:

: افتراء..مـا تقولـه افتـراء. لـم تـره ولـم تعرفـه قبـل أن يـأتي لزيارتي.

تجاهـل الطبيـب مـا تقـول وانصـرف إلـى عيسـى يشـرح لـه الحالة التي أعانيها ومدى خطورتها، قال:

: إنــه خطــر. علامــات المــرض واضــحة جليــة فــي كــل تصــرفاته. شــعوره بالاضــطهاد، وبأنــه مســتهدف لعــدوان مــا لسلبه حقوقـه. شـهد كثـر مـن زملائـه وبعـض الطـلاب والأصـدقاء بأنه فصل من الجامعة لما بدا عليه من اضطراب.

أسـقط فـي يـدي. قطـع عيسـى حـديث الطبيـب معتـذراً، أتجه نحو أخي وقال:

: أسمح لي دكتور سامي بكلمة.

كــان يقصــد أخــي طبعــاً فأصــبت بالــذهول، إذن فقــد انتهيـت. انزويـت حزينـاً فـي ركـن بعيـد، قـررت الاستسـلام نهائياً. سمعت عيسى يقول:

: عندي فكرة، ما رأيك أن تتيح له فرصة للسفر للبعيد وأعدك بأنك لن تراه أبداً. رجل بمثل هذا التاريخ النضالي لا يمكن أن يحكم عليه بإقامة جبرية بأي مكان فما بالك بالمكان الذي سترسله إليه.

: هذا اتهام أرفضه، يجب أن تعلم بأن مصلحة أخي فوق كل اعتبار، لا أرمي لشيء سوى علاجه. أنا أعرف أكثر منك بأنه مريض.

: هل تعني بأنك أنت تلميذي حقيقة وليس هو؟

: بلا أدني شك.

: اسمعني جيداً، أعرف حقيقتك منذ بداية اللعبة. حين قرأت في الصحف خبر موافقة الدكتور سامي على كافة الشروط، وترشيح نفسه لمنصب رئاسي كبير، عرفت أن خطأ ما حصل. لم يخطر على بالي أن تكون أنت من يقامر، ليس بأخيه وبماضية فقط، بل بقضية عظيمة. القضية برمتها انتهت، لن ألهث وراء لا شيء. كل ما أريده أنهاء المهزلة.

: أتقول عن اهتمامي بعلاج أخي مهزلة؟

: بل أقول أن كل ما جرى وما سيجري مهزلة. إذا لم تنفذ ما أطلبه منك، سيكون لي شأن آخر، سأعلن احتجاجي، قد يكون مثل احتجاج الضعفاء أو المغلوبين على أمرهم، لا يهمني. أعتقد جازماً أن ما أقوم به يحتاج إلى شجاعة وهي عندي. إذا كنت تلميذي ذات ساعة واحدة بعمرك، ستفهم قيمة الكلمة حين أقولها.

صرخ أخي بصوت غاضب:

: هيا يا رجال، خذوه إلى السيارة.

زوجة عيسى خرجت للشرفة بعدما رأت زوجها خارجاً من البيت وبيده مسدسه. صرخت مع صوت الطلقة، وقع عيسى على الأرض مضرجاً بدمائه وهي مغشي عليها.

انقض الرجال علي، وألبسوني قميصاً أبيض، ربطوه إلى الخلف، بينما عائدة تلطم الرجل وهاني. صراخها يملأ أذني منذ ذلك الوقت وإلى الآن.

أنـا هنـا منـذ شـهور، قلبـي يـؤلمني. أدون علـى الأوراق والجـدران والأبـواب أوجـاعي. أتسـاءل لمـاذا. وأجيـب علـى نفسي بأنه الخوف. الخوف من الحق من العدل ليأخذ مجراه.

لـم لا؟ فطالمـا أحرقـت بكتابـاتي أقنعـتهم فبـدت وجههـم على حقيقتها وأضعت لهم كل ما بذلوه من جهد في تجميلها.

لكننـي أعـود وأتسـاءل بهـوس: مـم خـوفهم وقـد أصـبحوا أصحاب سلطة؟

أليس بإمكانهم تمزيق ما أكتبه؟

أليس بإمكانهم الاستفادة منه فيما لو قرروا تصفيتي؟

قال أحد الجالسين بقربي بأسى:

: طالما هللت لهم.

: مـا أبعـد المسـافة بينـي وبينـهم ومـا أقصـر زمـن التغييـر. ليسوا هم من كنت أكتب عنهم.

: تعلموا بسرعة فنون السلطة.

: ومنذ تلك اللحظة لم نعد أصحاب قضية مقدسة.

: ولم نعد مناضلين.

: لم أعد سامي ولا هاني. صرت بقايا إنسان.

: وتوأمك صار يستحق أي صفة إلا صفة الإنسان.

: أخي غلب على أمره.

: وهو غلبك على أمرك.

لـم أعـد أقـوى علـى كتابـة المزيـد، ألـم مبـرح يـذبح قلبـي. صـرخت ألمـاً، الـوخز المـؤلم فـي صـدري أشـتد كـأن نصـل حـاد أغـرس فـي عضـلة القلـب. تمـدد الألـم إلـى ذراعـي الأيسـر، جـيش مـن نمـل يزحـف علـى يـدي. أحـاول استنشـاق هـواء لـم أقـدر علـى ذلـك، صـرت أنـتفض كالـذبيح طلبـاً للهـواء. سـمعت صـراخاً ممـن حـولي يطلبـون مسـاعدة ولـم أعـد أرى، غشـاوة حجبـت عنـي الضـــــــياء والـــــــنفس.....

فتحت عيناي على وجه فتاتي. كانت دامعة العين، متورم وجهها من طول البكاء، الطبيب بجانبي يعيد قياس الضغط مرة تلو مرة. طلبت من الممرضة أن ترفع السرير وتساعدني على الجلوس. ابتسم الطبيب وهو يقول:

: الحمد لله على السلامة. الأفضل أن تأخذ وقتك للراحة لتعود لعضلة القلب لياقتها. الأمر أخطر مما تتخيل فاحترس.

قالت الممرضة:

: دكتور ماذا سنفعل مع ذلك الرجل المنتظر منذ يومين صحوة المريض.

: دعيه ينتظر، المريض بحاجة إلى عناية مركزة.

فجأة انتصب أمامي رجل عملاق. قال مرافقه للطبيب:

: السيد روكس جاء يتسلم الرجل.

تفرست في وجهه، كان واقفاً بعنترية، متعالياً بزيه الفرنسي الأنيق، ينتشر عطره بسرعة كأنه يفر من تواضع المكان فلا يجد السبيل. سألته بوهن:

: لماذا أنت هنا؟

: هل ستطلع علي جنونك أيضاً؟

قال الطبيب:

: أرجوك.. الرجل ما زال متعباً.

خطا بحذائه اللامع مقترباً مني، أشار إلى صدره:

: أنا مندوب الدكتور سامي شرف الدين.

قالت عائدة:

: فتنتكم لعبة الحكم، ونسيتم الحق المسلوب.

انطلق صائحاً" فخار يكسر بعضه ليش قاتل نفسي".

أعلنت إضراباً عن الطعام والدواء. قال الطبيب:

: الإضراب يعني الهروب إلى الموت.

تضاحكت بألم:

: وهل تراني على عجلة في تنفيذ أمر آت لا محالة. وليكن ..هل تلومني إذا سعيت لشيء كهذا؟ ليس بسبب اليأس

أو المـرض بـل كراهيـة لحيـاة تربـع علـى عرشـها حفنـة مـن البشر فقدت صلاحيتها منذ زمن طويل.

سـاد صـمت بيننـا، لـم نعـد نسـتمع إلا لـدقات الحـزن فـي صـدورنا ورؤوسـنا. تركـت رأسـي مـدلى فـوق صـدري المشحون بثورة موت لا يعلم إلا الله متى ستتفجر وكيف.

وعائـدة تنتحـب، مثـل أم تنـدب كـل موتاهـا مـن أجـل مبـدأ.